



د. راوية عبد الحميد شافع

# المرأة في المجتمع الأندلسي

من الفتح الإسلامي للأندلس حتى سقوط قرطبة



# المرأة في المجتمع الأندلسي

من الفتح الإسلامي للأندلس حتي سقوط قرطبة  
( ٩٢ - ٤٢٢ هـ ) ( ٧١١ - ١٠٣١ م )

دكتورة راوية عبد الحميد شافع

الطبعة الأولى

٢٠٠٦م



مركز للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

RESEARCH CENTER FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

مكتبة الميثاق للدراسات الإنسانية والاجتماعية

# مكتبة دار الفكر للدراسات الإنسانية والاجتماعية

المشرف العام : الدكتور قاسم عبده قاسم

المستشارون

د. أحمد إبراهيم الهولوى

د. شوقي عبد القوى حبيب

د. قاسم عبده قاسم

المدير التنفيذي

شريف قاسم

مدير الإنتاج

جمال صابو

مصمم الغلاف : منى العيسوى

حقوق النشر محفوظة ©

الناشر: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

شارع ترعة الميمنية - الهرم - ج.ع. تليفون وفاكس ٢٨٧١٦٩٢

Publisher: EYN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

3, Meyoutia St., Elharam - A.R.E. Tel : 3871693

E-mail : dse\_Ein@hotmail.com

book cin @ yahoo.com

web site: WWW.Dar-Ein.com

الموقع الإلكتروني

## الإهداء

إلى زوجي محمود وأبنائي إسلام وجهاد

إلى أمي دولت وأبي عبد الحميد

إلى كل من ساندني في مشوار العلم والحياة

تحية عرفان وتقدير

د. رابعة عبد الحميد



المفتدين

## شكر وتقدير

يجب علي أن أزجي بالشكر والتقدير لكل من ساعدني علي انجاز هذه الدراسة وأدين بشكر خاص لأستاذي الدكتور أحمد مختار العبادي الذي أشرف علي هذه الدراسة وأحاطني برعايته وتوجيهه ونصائحه الغالية أطال الله عمره وأمددا بمزيد من علمه .

وشكري الخاص لأستاذي المرحوم الأستاذ الدكتور السيد عبد العزيز سالم الذي أدين له بفضل كبير رحمه الله وجعل هذا في ميزان حسناته .

كما أتوجه بالشكر إلي أساتذتي الذين ساعدوني : الأستاذ الدكتور محمد مرسى الشيخ . والأستاذ الدكتور حمدي عبد المنعم حسين والأستاذة الدكتورة سحر السيد عبد العزيز سالم لما أولوني به من رعاية علمية ومعنوية .

والله ولي التوفيق





## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### مُقَدِّمَةٌ

يتناول موضوع الكتاب " دور المرأة في المجتمع الإسلامي الأندلسي من الفتح الإسلامي للأندلس وحتى سقوط الخلافة الأموية" على مدى ما يقرب من ثلاثة قرون وثلاث القرن من سنة (٩٢- ٤٢٢هـ) (٧١١- ١٠٣١ م). وقد تم اختصار العنوان منعاً للإطالة إلى " المرأة في الأندلس من الفتح الإسلامي حتى سقوط الخلافة بقرطبة".

ما من شك في أن أي موضوع يتصل بدراسة المرأة يكون له طابعه ومذاقه الخاص لما لتلك القضية- " وإن كنت لا أمل إلى اعتبار المرأة قضية في الإسلام"- من جذور ضاربة في عمق التاريخ الإسلامي، كتب عنها الكثيرون من الكتاب الإسلاميين والمستشرقين، البعض منهم كتب بدافع الغيرة لها وعليها متسلحاً بالمنطق والحق، والبعض الآخر كان متحاذلاً لأسباب كثيرة، إما لتفسير وفهم خاطئ لبعض النصوص القرآنية والأحاديث النبوية الخاصة بالمرأة، وإما بتقليد أعمى لبعض العادات اأغلبية والقبلية المتبعة، والتي لم يحاولوا بذل بعض الجهد في الرجوع إلى أصلها، وهل تتفق مع ما تدعو إليه الشريعة الغراء من إفساح المجال أمام الحسين في أخذ فرصتهما كاملة في كافة المجالات بصرف النظر عن النوع ذكر أم أنثى.

ومن هذا المنطلق أردت أن ألقى الضوء على حقبة تاريخية مهمة في تاريخنا الإسلامي المجيد، فيما يتصل بحياة المرأة الأندلسية المسلمة ومكانتها ، في فترة زمنية معينة وهي فترة حكم الدولة الأموية في الأندلس.

ولقد حاولت قدر الإمكان أن أتناول الموضوع بحياء كامل، فلم أحاول أن أبرز الإيجابيات مع التغاضي عن السلبيات، وإنما بحث الموضوع من كافة جوانبه. والحقيقة أن المرأة الأندلسية لم تحذلني بل أعطيني أكثر مما كنت أظن أنها فاعلة.

ولا شك أن المرأة الأندلسية قد تمتعت بمكانة خاصة في ظل دولة بني أمية في الأندلس، قلما نجدها في عصر آخر سابق أو لاحق، فقد كان لها حضورها القوي على مسرح الأحداث الاجتماعية، والسياسية والعلمية والاقتصادية وغيرها..

ومع قلة المادة العلمية في كتابات المؤرخين وتأثيرها وبصفة خاصة في المصادر العربية والإسبانية، تطلب الأمر مني مرونة فائقة في معالجة الموضوع حتى استطعت في النهاية وبقدر الإمكان الخروج بموضوع أدعو الله أن يكون مترابطاً ومتكاملاً. وأن يكون قد حقق الهدف منه في إلقاء الضوء على كافة الجوانب الخاصة بحياة المرأة الأندلسية في عصر الدولة الأموية في الأندلس.



ومن أهم الصعوبات التي واجهتني في هذا الموضوع، تجميع المادة العلمية الخاصة بالتفصيل الأخير لهذا الكتاب، وهو دور المرأة الاقتصادي، إذ أن الكتابات في هذا الموضوع كانت متناثرة هنا وهناك في بطون المصادر، ولم نعدنا المصادر إلا بإشارات صغيرة لا تشبع فهم الباحث، ولذلك بذلت جهداً كبيراً في محاولة تجميع تلك المادة حتى خرجت والحمد لله في النهاية بمصيلة لا بأس بها أرجو أن تكون متكاملة. ومن الجدير بالذكر هنا أن اختياري لهذا الموضوع ربما يبدو غريباً للوهلة الأولى، إلا أنني أعتبره موضوع العصر رغم أنه يناقش فترة زمنية مضى عليها وقت ليس بقصير، فقد كثُر الحديث في عصرنا الحالي عن المرأة وحقوقها وما يهمننا هنا محاولة إبراز أن المرأة الأندلسية المسلمة نالت حقوقها كاملة. ولكن في إطار الشريعة الإسلامية وليس في إطار أي نظم أندلسية أخرى.

وقد أبرزت هذا الدور للمرأة الأندلسية من خلال ما أمدتني به المصادر والمراجع من نصوص صريحة لا تحتمل التأويل.

أما عن الآراء التي أثبتت حول المرأة الأندلسية وخاصة في دوائر المستشرقين، فقد تناولت هذه الآراء واختلفت اختلافاً يَبَساً بينهم، منهم من تكفهم وضعها بصدق من خلال فهمه الصحيح ودراسته الجادة للمصادر العربية التي تناولتها، ومنهم من اتزق في أحكام خاطئة بل وجائرة أحياناً، وقد فندت تلك الآراء في متن الكتاب.

ولي كلمة أخيرة حول تلك الدراسة وهي ألفا امتحني ووجدت فيها نفسي إلى درجة أنني أحسست ألفا تَمَس كل امرأة مسلمة في كل مكان وكنت أرى من خلال كل مرحلة من مراحل البحث أن الحديث لا يقتصر على المرأة الأندلسية فقط، بل إلى كل امرأة مسلمة، وكنت كلما صادفتني إنجاز لتلك المرأة في تلك العصور البعيدة وددت لو أبلغته لكل امرأة في عصرنا هذا كي نفتدي بها، وتفتخر بإنجازاتها الرائعة على الساحة الأندلسية.

قسمت هذا الكتاب إلى أربعة فصول، مهدت له بدراسة تمهيدية حاولت فيها إبراز دور المرأة في المجتمع الإسلامي بصفة عامة، مع التركيز على بعض النماذج المشرفة، وإبراز حقوق المرأة التي كفلها الإسلام. بل وواجباتها في المجتمع الإسلامي أيضاً.

كذلك قسمت بدراسة تمهيدية لتاريخ الأندلس من خلال عرض سريع مع ربط الأحداث التاريخية بمدى تواجد المرأة على مسرح الأحداث في الأندلس منذ بداية الفتح الإسلامي.

أما الفصل الأول وعنوانه " دور المرأة الاجتماعي في الأندلس " فيشتمل على ست نقاط أساسية: النقطة الأولى تحت عنوان "التفاعون المسلمون للأندلس والزواج المختلط بالإسبانيات من الفتح الإسلامي حتى سقوط الخلافة الأموية" حاولت التركيز من خلالها على إبراز دور الفاتحين في عملية دخولهم الأندلس وهل دخلوا أفراداً كجنود عسكريين فقط أم دخلوا في صحة عائلاتهم وأسرهم؟ كذلك أبرزت فيها عمليات الرقبات التي تمت بينهم وبين الإسبانيات.

وأما النقطة الثانية فهي عن التسري بالإماء والجواري عن طريق السي مع الإشارة إلى مدى حب أمراء بني أمية للجواري الإسبانيات وخاصة الشفراوات منهن.

والنقطة الثالثة والتي جاءت نتيجة للنقطين السابقين، وهي ظهور طبقة اجتماعية جديدة مسلمة وهي طبقة التولدين، كنتاج للزواج المختلط والتسري بالإماء والجواري. وأوضحت من خلال تلك النقطة مدى تأثير وتأثر هذا العصر السكاني الجديد في الحياة الأندلسية. ثم انتقلت إلى النقطة الرابعة عن فن الغناء والموسيقى، وأوضحت أثر النساء للتوليدات والمشرقيات في التجديد في هذا الفن.

أما النقطة الخامسة فكانت عن عادات المرأة الأندلسية في الزي واستخدام أدوات الزينة والتزين بالخلعي والطيب بالعمطور. وختمت هذا الفصل الأول بالنقطة السادسة والأخيرة: عن موضوع الزواج والطلاق، وأوضحت فيه مدى تمسك المرأة ببعض الحقوق في وثيقة زواجها، بل وصل الحد أحياناً إلى إملاء بعض الشروط في الوثيقة.

أما الفصل الثاني وعنوانه " دور المرأة في المجال السياسي في الأندلس " فيكون من أربعة نقاط أساسية: أولاً مدى تأثير أمهات الأولاد على الولاة والأمراء والخلفاء في عصر الدولة الأموية. مما أدى إلى مشاركة المرأة في الأحداث السياسية. وإن كان معظمها كان يتحدث من وراء الكواليس بالتأثير على أزواجهن أو أولادهم. فتحدثت عن "أيلة" أو "إمطلونا" زوجة الأمير عبد العزيز بن موسى، وكيف أتمت بأنها أحد الأسباب التي أدت لمقتل الأمير بتسلطها عليه وبسماعه لتصانحها وتغلبها. وتحدثت عن "سارة القوطية" وكيف كانت العنصر النسائي الأول في ظهور طبقة "التولدين" ثم تحدثت عن "عجب" ومكانتها لدى الأمير الحكم الرهضي، وختمت النقطة الأولى " بطروب البشكنسية " ودورها البارز في محاولة وضع ابنها عتوة على كرسي الإمارة في الأندلس، وفشلها في تلك المحاولة.

والنقطة الثانية عن " دُر " أو " ونقة " جدة الخليفة عبد الرحمن الناصر. والنقطة الثالثة تحدثت فيها عن السيدة " صحح البشكنسية " ودورها البارز والمهم في حياة زوجها الحكم المستنصر، ثم الخاجب المنصور بن أبي عامر. ثم ختمت الفصل بالنقطة الرابعة عن أمهات ولد المنصور بن أبي عامر وأبرزت من خلالها عمليات المصاهرة التي تمت بين المنصور وملوك إسبانيا المسيحيين وكيف أنهروهم بتأقلم على ميل المهادنة وكسب السؤد.

أما الفصل الثالث وعنوانه " دور المرأة في المجال العلمي في الأندلس " فقد قسمته إلى ثلاث نقاط رئيسية، جاءت النقطة الأولى عن دور المرأة في الأدب الأندلسي مع ذكر أمثلة لشاعرات الأندلس المشهورات مرتبة ترتيباً تاريخياً من بداية الفتح حتى نهاية الدولة الأموية. في محاولة لإبراز دور كل منهن، ومدى ما أسهمت به في مجال الحياة العلمية والأدبية في الأندلس.

ثم جاءت النقطة الثانية تحت عنوان الكتابات والعمليات والخطاطات والمذهبات. أوضحت من خلالها الأنشطة العلمية التي ساهمت فيها المرأة من خلال كتابتها للمخطوطات والكتب الثمينة والتعليم وتذهيب النصاحف وتزيينها. ثم ختمت هذا الفصل بالحدث عن شعر الحب والغزل عند المرأة. ما قيل فيها وما قالته: وأبرزت كيف كانت المرأة الأندلسية صريحة في إبراز مشاعرها بدون تورية أو مداراة.

أما الفصل الرابع وهو آخر فصول الكتاب. وجاء تحت عنوان " دور المرأة في المجال الاقتصادي في الأندلس " فقد جاء في أربعة نقاط أساسية.

أولاً: المهن والصناعات التي مارستها المرأة الأندلسية، وضربت أمثلة على ذلك منها صناعات الأطعمة والأشربة والغزل والفقه والتوليد والحاطبة وغيرها. ثم انتقلت في النقطة الثانية عن أسواق الجوازي وأنواعهن وذكر أن الإسلام لم يعمل على إيجاد ظاهرة النخاسة والعيد أو الرق، بل كانت موجودة بالفعل، بل ومستشرية قبل ظهور الإسلام، وعلى العكس عمل الإسلام على القضاء عليها وهذا ما حدث بالفعل تدريجياً.

ثم تحدثت في النقطة الثالثة عن حالة الجوازي الاقتصادية، وكيف كانت الجوازي يمكن من الفروات الطائلة، ما مكنتهن من إقامة بعض المنشآت الدينية والدنيوية الخاصة بهن.

وفي النقطة الرابعة والأخيرة من هذا الفصل تحدثت عن مكانة المرأة في المجتمع الإسلامي بصفة عامة، وكيف وصل الحد في محافظة المجتمع على نسائه إلى درجة استفزاز الحملات الحربية للدفاع عن امرأة أسيرة مسلمة وقعت في يد الأعداء.



## تقديم

رأيت من الضروري في تلك الصفحات القليلة القادمة أن أتعرض بشكل سريع لبعض غماذج من النساء على مستوى التاريخ الإسلامي كله بدءاً من نهاية العصر الجاهلي قبل ظهور الإسلام بوقت قليل حتى يومنا هذا، فالمرأة في المجتمع الإسلامي كل لا يتجزأ، ولذا رأيت أنه رغم أن موضوع الكتاب منصب على دور المرأة في المجتمع الإسلامي الأندلسي بصفة خاصة أن أتعرض ولو بسرعة وإيجاز لدور المرأة في المجتمع الإسلامي بصفة عامة. مع الإشارة إلى بعض الآراء التي أثيرت حول ما قدمته الشريعة الفراء لها من مكاسب معنوية ومادية.

فوضع المرأة قبل ظهور الإسلام كان في غاية الإحطاط والتدني، ولا نجد أمامنا أبلغ من قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا بَشَّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ يُخَسِّرُ عَلَىٰ هُونٍ لَمْ يَدْسِهِ فِي التَّرَابِ إِلَّا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾<sup>(١)</sup> صدق الله العظيم.

ولم يكن المجتمع العربي فقط هو الذي ينظر إلى المرأة تلك النظرة، بل أن جميع الأديان والأُمم السابقة على العرب أساءت إلى المرأة، فكان الإغريق على سبيل المثال يعتبرون النساء من المخلوقات المنحطة، التي لا تصلح لغير دوام النسل وتدبير الدول، وبماثلهم في هذا الرأي الصينيون والإيطاليون والأسبان والرومان وغيرهم..

بل إنه من الأمور الطريفة في هذا الصدد إبان ظهور البعث النبوي الشريف، أن يعقد مؤتمر في بلاد الروم أو البيزنطيين، ويُطرح به سؤال هام. هل للمرأة روح؟! والأطرف أن يجمع المؤرخون على أن النساء أشياء لا روح لها ويمكن بيعها وشراؤها ويتصرف فيها الرجال كيفما شاعوا.<sup>(٢)</sup>

أما عن السبب الرئيسي لتدني وضع المرأة في المجتمع الجاهلي وغيره.. فيوضح لنا من خلال البحث أن عمليات السبي التي كانت تتعرض لها الأنثى هي السبب الرئيسي، فيقول الفرنسي جيجار: إن عمليات السبي التي تعرضت لها الأنثى كانت تؤدي إلى ضياع هبة وكرامة القبيلة التي تنتمي إليها الأنثى وترتب على ذلك ظهور عملية "وأد البنات" أي دفن الأنثى الصغيرة حديثة الولادة حية عقب ولادتها مباشرة، فقد فضلوا لها "القبر" على أن تصبح جارية أو عشيقة لرجل آخر من قبيلة أخرى.<sup>(٣)</sup> والحقيقة أن جيجار أصاب إلى حد بعيد في تحليله لتلك الظاهرة، فالمسألة إذن ليست ضغائن شخصية ضد العنصر الأجنبي، وإنما هو الخوف العربي على ضياع الشرف والكرامة.

١- سورة "النحل" الآيات (٥٨، ٥٩).

٢- عبد العزيز بن عبد الله: المرأة المُراكمشة في الحقل الفكري - صحيفة معهد الدراسات الإسلامية. مدريد - المجلد السادس. العدد ١ - ٢ - ١٣٧٨ - ١٩٥٨، ص ٢٥٩.

٣- Guichard (Pierre): Structures Sociales Orientales et occidentales dans L'Espagne musulmane. Paris 1977. p41.

أما بعد ظهور الإسلام وقضائه على كل تلك العادات بنصوص قرآنية وأحاديث نبوية صريحة تجسّس أكثرها على أن الحنة تحت أقدامهن وعلى البر بالساء: عندئذ انتفح الميدان فسيحاً أمام المرأة فشاركت في كافة العلوم الثقيلة والعقلية. وابتكرت في الشعر والغناء، وأصبحت كثيرات منهن معلمات متلفات.

ليحدثنا البلاؤري قائلاً إنه عندما جاء الإسلام، لم يجد بين النساء سوى جلس نسوة يقرآن ويكتبن فقط.<sup>(١)</sup> ورغم ما قدمته الشريعة الغراء للمرأة المسلمة إلا أن بعض المستشرقين يبخسوها هذا الحق، فيذكر المؤرخ الإنجليزي بنتر "Painter" وذلك بعد أن يتعرض لمركز المرأة الأوروبية البالغ التعقيد على حد تعبيره في المجتمع الإقطاعي الأوروبي المعاصر للمجتمع الإسلامي. وكيف ألقا- أي المرأة الأوروبية- كانت دائماً إما تحت وصاية زوجها أو والدها أو أكثر إبناتها وفي كل الأحوال خاضعة مستسلمة تماماً لتلك السيطرة والوصاية. ثم يعود ويقول رغم ذلك كانت أحسن حالاً من معاصرها المسلمة.<sup>(٢)</sup>

ويليد بنتر مستشرق آخر وهو الإسباني حولان ريبيرا "Ribera" الذي يذكر أن العصر الإسلامي لم يهتم بتعليم المرأة. ولم يحترم تلك الرغبة فيها وأرجع السبب في ذلك إلى المحدثين ورجال الدين المشاركة بصفة خاصة، وكيف ألهم كانوا ضد تلك العملية التعليمية. وإن كان ريبيرا استثنى المرأة الأندلسية لأسبابه الخاصة التي أرجعها إلى تأثير الحضارة المسيحية على المجتمع الأندلسي. وانعكاسها على وضع المرأة فيه مما جعلها أكثر تقدماً ورقياً من مثيلاتها المشرقيات.<sup>(٣)</sup>

رغم أن الحضارة المسيحية التي سبقت دخول الإسلام في الأندلس، لم تقدم للمرأة المزايا التي قدمتها لها الحضارة الإسلامية. والحقيقة أن كلا الرأيين فيهما تبحر كبير على الحضارة الإسلامية، وما قدمته للمرأة، وتلك مسألة لا تحتاج إلى مناقشة، فكل من له ذواية صحيحة، ولو قليلة بالدين والحضارة الإسلامية. يعرف تلك المزايا الكثيرة التي قدمت لها بشكل لم تحصل عليه المرأة الأوروبية حتى وقتنا هذا.

أما إذا كان وضع المرأة قد خضع لبعض التبدل في بعض العصور الإسلامية، فهذا لا يرجع إلى الإسلام كدين، وإنما إلى القائمين على تطبيق الإسلام كدولة.

١- البلاؤري: ( أبو العباس أحمد بن يحيى ) فوح البلدان، القسم الأول. نشره الدكتور/ صلاح المحمد. القاهرة، ١٩٥٦م، ص ٤٥٨.

٢- Painter:History of the middle ages. Great Britain, 1979, pp.121-122

استغنى: المرأة في الغرب الأوروبي في العصور الوسطى، دار المعارف، الإسكندرية، ١٩٨٣م، ص ١٠٩.

٣- Ribera Y Tarragó: Disertaciones y Opúsculos, Madrid, 1928, Tomo I, pp. 3-44-3-45.

وفي هذا الصدد تقول الدكتورة "فاطمة المريني" عن أن العلاقة بين الرجل والمرأة، هي التي أدت وبشكل أساسي إلى تدهور العالم الإسلامي. فهذه العلاقة المتضادة كانت داء أشقى المجتمع، وحكم على نصفه الأتوني بالعيش في شلل تام.<sup>(١)</sup> وكانت أولى المشاكل التي واجهت المرأة في ظل المجتمع الإسلامي مشكلة الرق أو العبودية.

ومعروف أن الإسلام لم يشرع الرق بل شرع العتق، ولم يسبق أي من الحضارات شرعت العتق. ولذلك عندما ظهر الإسلام وجاء بالعق سبق بذلك التطور الدولي الحديث بزمان طويل في تقرير فك الرق<sup>(٢)</sup> وعمل الإسلام على فك الرقيق بوسائل شتى، إذ جعلها فداء لأعظم الجنايات مثل القتل الخطأ، وأخفها مثل الخنث باليمين<sup>(٣)</sup> بل فضل الإسلام الزواج بالجاريات على الخوارج سلبات البيوتات وبخاصة المشركات عنهن ويتضح ذلك في قوله تعالى ﴿وَالْأَمَةُ مَوْمِنَةٌ كَوْنُهَا مَشْرُوكَةٌ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾.<sup>(٤)</sup> ورغم حالة التدني التي عرفتها المرأة في العصر الجاهلي، لم تكن هذه هي القاعدة بل وجد بعض الاستثناء، تضرب مثلاً لذلك "هند بنت عتبة" فقد ضربت مثلاً رائعا للمرأة القوية، التي نالت حقها وأخذت شهرة عريضة بل أخذت مشورتها في أدق تفاصيل حياتها وبخاصة الزواج فقد كان لها حرية الاختيار في القبول أو الرفض. فقد خطبها رجلان في آن واحد، فجاءها أبوها يخبرها فقالت له صفهما لي، فلما وصف كلا منهما اختارت أحدهما لصفتها أعجبها فيه. بل هناك من رفضت وأعلنت ذلك صراحة مثل الخنساء.<sup>(٥)</sup>

ويذكر الأستاذ جوستاف لويون: أن الإسلام كان ذا تأثير عميق في حال المرأة في المشرق، فهو قد رفع مستوى المرأة الاجتماعي خلافاً للمزاعم المكررة علي غيو هدى. والقرآن قد منح المرأة حقوقاً إرثية بأحسن مما في قوانيننا الأوروبية، ولعبت المرأة دوراً في منتهى الخطورة. فقد كان منهن العالمات البارعات والشواعر الماهرات ممن ذاع صيتهن في العصر العباسي في المشرق والأموي في الأندلس.<sup>(٦)</sup>

١- للمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع: انظر مقال الأستاذة الدكتورة/ فاطمة المريني. أستاذ علم الاجتماع بجامعة الرباط. في مجلة "فكر وفن" تحت عنوان "الأيديولوجية والإسلام" العدد (٤٧) ميونخ، ألمانيا ١٩٨٨م، ص ٦٥ وما بعدها.

٢- عباس محمود العقاد: المرأة في القرآن، دار الفلال، القاهرة ١٩٦٧م، ص ٣٠.

٣- شوقي ضيف: العصر العباسي الثاني، دار المعارف، الطبعة الثالثة، القاهرة ١٩٧٣م، ص ٨٠.

٤- سورة "البقرة" من الآية (٢٢١).

٥- أحمد الشامي: عقود الزواج في الإسلام، كلية الآداب، جامعة الزقازيق، ١٩٩٢م، ص ١٠، ١١.

٦- عبد العزيز بن عبد الله: المرأة المراكشية في الحقل الفكري، ص ٢٦٢.

وأيضاً حول ما قدمته الشريعة الإسلامية للمرأة المسلمة تقول الدكتورة " زينب رضوان" إن الشريعة الإسلامية بمبادئها السامية، خصت المرأة بالعديد من الأحكام فأحاطتها بالعناية وأوصت بالترفق في معاملتها ومنحها الأهلية الاقتصادية لتلقى الحقوق والتكاليف أسوة بالرجل، بعد أن كانت أداة للخدمة والاستمتاع ومجربة للذل والعار وبعد أن كانت الأتولة سبباً من أسباب انعدام الأهلية كصغر السن والجنون<sup>(١)</sup> وكفل الإسلام للمرأة أيضاً حق المشاركة السياسية عملاً بقوله تعالى يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبائعنك... إلى قوله تعالى و فبايعهن<sup>(٢)</sup>.

فقد شاركت النساء في بيعة الرسول ﷺ بعد فتح مكة، واجتمع إليه وفد من نساء قريش ترأسهن "هند بنت عتبة" وكان لها حوار طويل مع الرسول يدل على مدى ذكائها وفطنتها وقناعتها بقدر كبير من الوعي لحقوقها السياسية وحقوق من تمثلهن من النساء اللاتي ذهبن معها<sup>(٣)</sup> وحتى بعد وفاة الرسول ﷺ لم تنف المرأة المسلمة مكتوفة الأيدي عن المشاركة في الأحداث السياسية الجارية على الساحة من حولها، فرى السيدة "عائشة" زوج الرسول رضي الله عنها ورغم خصومتها الشديدة مع سيدنا "عثمان بن عفان" رضي الله عنه تطالب بدمه من خصومه. بل وتتهم سيدنا "علي" رضي الله عنه بالتآليب عليه والتواطؤ على قتله، وتخالفت مع أعدائه، وقادت المسلمين في الموقعة الشهيرة التي عُرفت في التاريخ الإسلامي باسم موقعة "الجمل" نسبة إلى الجمل الذي كانت تركبه السيدة "عائشة" سنة ٣٦ هـ. وكانت في هذه المعركة هي القائدة العليا للجيش، تصدر الأوامر وتسعين الأمراء، وتوجه الرسل إلى الأمصار المختلفة<sup>(٤)</sup>.

١- زينب رضوان: الإسلام وقضايا المرأة، القبة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣، ص ١٣، ١٢.

٢- سورة "الممتحنة" : من الآية (١٢).

٣- راجع الطبري، لمعرفة المزيد عن الحوار الذي دار بين هند بنت عتبة، والرسول ﷺ.

الطبري ( أبو جعفر محمد بن جرير الطبري)، تاريخ الأمم والملوك، بيروت، لبنان ١٩٩١ م، ج ٢، ص ١٦١، ١٦٢.

٤- السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الدولة العربية، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية ١٩٨٤ م، ص ٣٠١، ٣٠٩، ٣١٣.

٢- زينب رضوان: الإسلام وقضايا المرأة ص ٤٢.

وللمزيد من التفاصيل، عن حياة السيدة عائشة رضي الله عنها، راجع: ابن خلكان (أبي عباس شمس الدين) وفیات الأعيان وأنباء أبناء أهل الزمان، حققه الدكتور/ إحسان عباس، دار صادر، بيروت ١٩٧٨ ج ١ ص ٢٥ - ج ٣ ص ١٦٦، ١٦٩، ١٦٥، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠، ١٧١، ١٨١، ج ٦ ص ٩٩ ج ٧ ص ٦٨، ٦٩، ١٦٥، ١٦٦.

٣- زينب رضوان : نفس المرجع ، ص ٢٥ .

وشاركت المرأة بنسبة عامة في التربية والنهوض بالإنسانية، فشاركت في الدعوة، وشاركت في الهجرة، وشاركت في الاجتهاد، وشاركت في الرأي والغزو والعلم والرواية والاجتهاد والتأمين من الأعداء، وشاركت في كل ذلك في كل مرحلة من مراحل الدعوة وكان عليها من الواجبات. ولها من الحقوق مثل أخيها الرجل<sup>(١)</sup>.

فقد كان للسيدة أم سلمة زوج الرسول ﷺ فضل حفظ كتاب الجماعة الإسلامية، ووقايتها من التدهور، في أثناء الفتنة التي حدثت على عهد النبي بين المسلمين ولقد هم الرسول ﷺ بشأن شروط صلح الحديبية. فقد أشارت على الرسول بالإسراع إلى ذبح الهدي والحنس. ولم يكذب المسلمون يرون هذا حتى تناسوا خلافاتهم وسارعوا إلى الاقتداء بالرسول وبذلك التأم الشمل<sup>(٢)</sup>.

وفي الميدان العسكري أي في أثناء الغزوات وعلى عهد الرسول ﷺ شاركت المرأة مشاركة كبيرة. فيذكر لنا الطبري قصة صفية بنت عبد المطلب وكيف خرجت يوم " أحد " تهيأ أخاها حجرة فطلب الرسول منها من الخروج فقالت للرسول " ما حسب " أخي (أي لن أقوم بأفعال الجاهلية) وسأذكر أسرتي ومكانتي وحسي. فلقد هذبا الإسلام واكسبها قوة لم تكن تتحلى بها في الجاهلية<sup>(٣)</sup>.

وكان من الطبعي أن تشارك النساء في الغزوات. ففي غزوة أحد كانت مهمة النساء الرمي بالحجارة جنباً إلى جنب مع الصبي<sup>(٤)</sup>.

ويضيف الطبري كذلك بأن النساء شاركن مشاركة فعلية وكبيرة في معركة اليرموك، وذلك عندما اشتد القتال وخرجت "جويرية بنت أبي سفيان " تحارب إلى جوار أبيها وزوجها حتى أصيبت بعد قتال شديد<sup>(٥)</sup> " و" أم حكيم بنت الحارث بن هشام " التي طلبت من الرسول عقد الأمان لزوجها عكرمة بن أبي جهل، بعد أن فر إلى اليمن.

ودفعت وراءه إلى اليمن، بعد أن أخذت له عقد الأمان لكي تحضره بنفسها<sup>(٦)</sup> وامرأة أخرى كان لها تأثير كبير في حياة أحد أهم القادة المسلمين وهي السيدة: فاطمة بنت الوليد أخت القائد خالد بن الوليد، والتي كان يستشيرها كثيراً في أمور يعجز أحياناً في إنفاذ قرار حاسم فيها. وذلك

١- وللمزيد من التفاصيل- حول شخصية صفية بنت عبد المطلب راجع:-

الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص، ٩٦، ٩٧، ١٣٦.

٢- الطبري: نفس المصدر، جـ ٢، ص ١٦٢.

٣- الطبري: نفس المصدر، جـ ٢، ص ٣٣٨.

٤- الطبري: نفس المصدر. جـ ٢، ص ١٦٢.



لنقله الشديدة في رجاجة عقلها وسداد رأيها <sup>(١)</sup> وعائنة بنت طلحة "حفيدة أبي بكر الصديق. التي كانت تاضل الرجال بالسهم والنبال، وقد جمع الرسول كثيراً بين النساء والرجال في غزواته وسأوى بينهما في الغنائم وكانت "كسبية بنت سعد" أول ميدة يقلدها الرسول قلادة تشبه الأوصة الخربة في عصرنا الحديث اعتزازاً بدورها في الغزوات وقد ظلت تلك القلادة معها طيلة حياتها. بل عندما ماتت دفنت معها عملاً بوصيتها <sup>(٢)</sup>. وقد مارست المرأة في الغزوات بصفة خاصة مهنة الطب. ففي عهد الرسول ﷺ عرفنا أول طبيبة في الإسلام وهي "رؤيدة الأسلمية" والتي اتخذت موضعاً ما من مسجد الرسول لتداوي فيه الجرحى. وذاعت شهرتها وخبرتها في مجال الطب إلى درجة أن الرسول ﷺ أرسل إليها "سعد بن معاذ" بعد إصابته بسهم في غزوة الخندق وقال لأصحابه: خذوه إلى خيمة رؤيدة حتى تداويه <sup>(٣)</sup>.

ويبدو أن رؤيدة كانت قد وصلت إلى درجة رفيعة في علم الطب، حتى يعهد إليها الرسول ﷺ بعلاج تلك الإصابة الخطيرة. ومن المهن التي اشتهتها المرأة أيضاً التجارة، فقد تاجرت "هند بنت عتبة" زوج أبي سفيان وكانت تخرج بتجارها بنفسها تبيع وتشتري واحتاجت يوماً مبلغاً من المال فافترضه من بيت المال. وذلك في عهد الخليفة "عمر بن الخطاب" -ع- الذي اشترط عليها رده مرة أخرى بعد التاجرة به. وكان المبلغ يقدر بأربعة آلاف درهم وبالفعل ردت المبلغ بعد رجوعها من رحلة التجارة إلى المدينة.

وكان لتلك المرأة تأثير كبير على ابنها معاوية بن أبي سفيان، حتى إنه كان يفخر بأنه يدعى "ابن هند" من شدة إعجابه وتفاخره بأمه <sup>(٤)</sup>. والحقيقة أن أبرز دور للمرأة يتضح لنا بجلاء في مجال التعليم. فيحدثنا ابن خلكان عن الإمام الشافعي -ع- وكيف تلقى علومه وأخذ الحديث عن السيدة "نفسه" والتي كانت تعقد حلقات درسها التي ضمته في مصر، بل قامت بالصلاة عليه بعد موته، وكذلك الصحابية "أم الدرداء" التي كانت تحضر إلى بيت المقدس وتعقد هناك حلقات الدروس، وكان يحضرها الخليفة "سليمان بن عبد الملك" <sup>(٥)</sup>.

## مكتبة المهديين والائمة الاثني عشرية

- ١- الطبري: نفس المصدر. جـ ٢، ص ٣٧٥.
- ٢- زينب رضوان: الإسلام وقضايا المرأة. ص ٤٢.
- ٣- الطبري: المصدر السابق. جـ ٢، ص ١٠٠، ١٠١.
- ٤- الطبري: نفس المصدر. جـ ٢، ص ٥٧٦، ٥٧٧.
- ٥- ابن خلكان: وفيات الاعيان. جـ ٥، ص ٤٢٣، ٤٢٤.

والحث على تعليم المرأة كثير جداً، فعن ابن عمر يقول: علموا أبناءكم السباحة والرمي والفرس والغزل<sup>(١)</sup> أما عن المرأة المغربية، والتي نجتمعها بالمرأة الأندلسية موضوع هذا الكتاب صفات كثيرة مشتركة ربما لقرب الموقع وتشابه كثير من الظروف والعادات، والتقاليد، التي قربت كثيراً بينهما. فقد لعبت النساء المغربيات دوراً كبيراً وبارزاً في مختلف مراحل التاريخ الإسلامي، أظهرن براعة إدارية وثباتاً وحكمة جعلت منهن مستشارات لأزواجهن الأمراء والرؤساء، ويكفي أن نعلم أن جامع القرويين الذي تحول إلى تلك الجامعة العريقة والشهيرة في مدينة " فاس " إنما أسسته فاطمة " أم الحسين " بنت محمد بن عبد الله الفهري عام ٢٤٥ هـ. بينما أقامت أختها مريم هناك أيضاً جامع الأندلس الذي كان ينافس جامعة القرويين حوالي القرن الرابع الهجري، وصار بعد ذلك أكبر فروعها<sup>(٢)</sup>. وفي العصر الإدريسي نعت الأميرة " الحسنى بنت سليمان النجاشي " زوجة المولى إدريس الأزهر، والذي كان لا يفعل شيئاً إلا بموافقتها وكانت إليها المشورة في دولته<sup>(٣)</sup>.

وما لاشك فيه أن الإسلام لا يمكن أن يأتي بتحريم أمر أو إباحته، ثم ينبت الواقع صلاحية نقيضه، والدليل على ذلك أنه على مر عصور الازدهار الإسلامي نالت المرأة حقوقها الشرعية التي مُنعت عنها في العصر الحديث، فيخبرنا التاريخ عن " أم المقتدر " العباسي أنها رأت جلسات المظالم في بغداد مما يقوم شاهداً ورداً على من يتعنون ويطالبون بتجني المرأة من تولي منصب القضاء بحجة عدم صلاحيتها لهذا المنصب.

فهذا المنع لا يستند إلى حق شرعي، أو نص واضح يجمعها من تولى هذا المنصب. ولا علاقة له بقدرات المرأة الذاتية، فكل الدراسات العلمية المحايدة أثبتت تساوي معدلات الذكاء والقدرات الإبداعية والقتية عند الجنسين<sup>(٤)</sup>. وهذا ما يؤكد لنا الواقع الملموس، والخليفة في رأي هنا تعود إلى بعض العادات والتقاليد الموروثة، والتي قلصت دور المرأة وحقوقها، وهي عادات كثيراً ما تستند إلى الأعراف السائدة أكثر من استنادها إلى نصوص شرعية صريحة.

ونقيض ذلك في صدر الدعوة الإسلامية، عندما بلغ اعتزاز المسلمين بالمرأة ولقبهم فيها ما حدا بالخليفة " أبي بكر الصديق " - عليه السلام - أن يختار واحدة منهن. وهي أم المؤمنين " حفصة بنت عمر بن الخطاب " دون جميع الرجال بما فيهم من صحابة رسول الله ﷺ بأنقتها على النسخة الوحيدة "

١ - عمر رضا كحالة: المرأة في غني العرب والإسلام سلسلة بحوث اجتماعية، الجزء ٦، ص ٧ مؤسسة الرسالة ١٩٨١م، ج ٦، ص ٢٢.

٢ - عبد العزيز بن عبد الله: المرأة المراكشية، ص ٢٧٠.

٣ - عبد العزيز بن عبد الله: نفس المرجع والصفحة.

٤ - زينب رضوان: الإسلام وقضايا المرأة، ص ٩٩.

للقرآن الكريم " بعد أن تم جمعها عقب وفاة الرسول ﷺ وظلت في مأمن لديها حتى أخذها "عثمان بن عفان" ، ونسخ منها الأربعة نسخ التي وزعها على الأمصار.<sup>(١)</sup>

وظهرت شجاعة وبطولة المرأة المسلمة، أروع ما تكون في الدفاع عن زوجها في أثناء الفسة التي راح ضحيتها سيدنا "عثمان بن عفان" ، فقد تلقت عنه زوجته " عائشة بنت القرافصة " إحدى الضربات التي اغتالت عليه حتى قُطعت أصابع يدها كلها، بل عندما تقادى المتآمرون في قتلهم به بعد مقتله أُلقت عليه بجسدها كي تقبه سولفهم وأخذت تصيح حتى يعدوا عنه.<sup>(٢)</sup>

وشاركت المرأة كذلك في الغزوات البحرية في مراحلها الأولى، فقد حل معاوية بن أبي سفيان زوجته " فاختة بنت قرظة " وحل عبادة بن الصامت امرأته " أم جراح بنت ملحان الأنصارية " ولا بد أن يكون الكثير من جنود تلك الحملة البحرية قد حذوا حذوها.<sup>(٣)</sup>

وظلّت المرأة أحياناً من خلال صفحات كتب التاريخ، إلا أن بعض المؤرخين النصفين ثاقبي البصر، لم يرضهم هذا الظلم وخاصة عندما يقع على امرأة مسلمة معروف نسبها وأصلها الشريف، الذي يمتد إلى سيد الخلق جميعاً، ومن أشهر تلك القصص ما ورد عن " العباسة " أخت هارون الرشيد، التي ذكرها الكثير من المؤرخين.

وملخص القصة أن أحاماً هارون الرشيد، كان لا يطق صبراً لبعدها عن مجلسه هي ووزيره جعفر البرمكي، فزوجهما الرشيد بشرط ألا تخلو بها الخلوة الشرعية المعروفة للرجل بزوجته، لتحايث العباسة حتى احتلت بزوجها، بل وأقنعت منه غلاماً أرسلته إلى مكة بعيداً عن متناول الرشيد كي لا يقتله.

وذكر الطبري هذه القصة دون تعليق، ولكن المؤرخ العربي "ابن خلدون" والذي جاء من بعده ينفي تلك القصة من جذورها نقياً تماماً بل ويدافع عن العباسة ضد الافتراءات التي ألصقت بها ويقول: كيف وهي من بيت عريق تغامر بسمعتها وسمعة بيت النبوة الذي تنتمي إليه في سبيل إرضاء.....؟ وكل ما قيل وادعى باطل، لا يلقى بمكانتها السامية.<sup>(٤)</sup> وفي العصر العباسي ظهرت

١- إصمت غنيم: المرأة في الغرب الأوروبي في العصور الوسطى، ص ١١٠، ١١١.

٢- الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٦٠٣، ٦٦٠، ٦٦٨، ٦٦٩، ٦٩٢، عبد العزيز سالم: تاريخ الدولة العربية، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٤م، ص ٣٠٠، ٣٠١.

٣- عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص ٣٣٣.

٤- راجع الفصة كاملة في: - الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٤، ص ٦٦٠، ٦٦١ ابن خلدون: (عبد الرحمن ابن خلدون العربي) المقدمة، الطبعة الأولى بيروت، ١٩٩٢م، ص ٥٠ حسين مؤنس: (إسلاميات) مقال بمجلة أكتوبر عن العباسة، العدد ٦٦٠، الأحد ١٨ يونيو ١٩٨٩م، ص ٥٢، ٥٣. ويضيف الدكتور مؤنس: بأن هذه الشائعة دُست على العباسة، وأن الرشيد نكح بالبرمكة لأسباب سياسية بعيدة جداً عن العباسة وقصتها.

شخصيات نسائية كثيرة منهن "الحزيران" التي تدخلت في شئون الحكم بشكل سافر وأثرت في حياة ثلاثة رجال في عصرها. وهم زوجها المهدي ولديها القادي وهارون الرشيد، بل وصل الأمر بها أن تأمرت على قتل ابنها الهادي لحماية ابنها الآخر والأصغر هارون الرشيد، بعد أن علمت بأنه يريد خلع البيعة لأخيه وأخذها لابنه جعفر فسعت في قتله، ويبدو أنه علم بذلك المؤامرة، فسمى هو الآخر في حفيها بعد أن ضاق بها ويتدخلها دائماً في شئون الحكم، فأرسل إليها طعاماً مسموماً، فاحتذرت منه، ولم تتأوله لشكها في نواياه، وأعطته لكلب فمات في الحال.<sup>(٦١)</sup>

هناك شخصية أخرى من العصر العباسي. وهي زبيدة بنت جعفر زوجة هارون الرشيد المفضلة والمندلة، وأم ابنه الأمين، ويحكى لها حجت سنة (١٨٦هـ - ٨٠٠ م) ورأت في مكة ما يعانيه أهلها في الحصول على ماء الشرب. فعدت خازن أموالها وأمرته أن يدعو المهندسين والعمال من كافة أنحاء العالم الإسلامي وقالت له: أعمل ولو كلفتك ضريبة الفأس ديناراً، وذهب إلى مكة أكفأ المهندسين والعمال ووصلوا بين منابع الماء في الجبال، حتى وصل إلى المسجد الحرام، ومازال هذا الماء يجري في مكة حتى يومنا هذا. وكانت لها علاقة خاصة مع زوجها هارون الرشيد غاية في الرومانسية والدلال.<sup>(٦٢)</sup>

والحقيقة أن النماذج النسائية المشرفة في التاريخ الإسلامي لا حصر لها. ولكن آثرت ألا أطيل فيها. إما لأن كثيرات منهن تتشابه ظروف الكتابة عنهن وعن إنجازاتهن، وإما الخوف من الإطالة أو الخروج عن الهدف من تلك المقدمة، التي هدفت منها في المقام الأول التعريف ببعض النماذج قبل الدخول في متن الموضوع الأساسي للكتاب.

ولكن لا يفوتنا قبل أن نغم تلك النقطة أن نذكر بعضاً من الحقوق التي كفلها الإسلام للمرأة المسلمة بصفة عامة في أي زمان ومكان، فأبسط شيء من تلك الحقوق القاعدة الإسلامية المعروفة وهي حرية اختيار الشريك في الزواج، وأن كل عقد زواج باطل إذا أنكرته المرأة أو أكرهته عليه.<sup>(٦٣)</sup>

فقد جاء في الحديث الشريف، ما يكشفُ للمرأة الحرية الكاملة في شئون زوجها، ولا بد من موافقتها موافقة صريحة. فقد قال رسول الله ﷺ لا تنكح " الأنيس " <sup>(٦٤)</sup> حتى تستأمر، ولا البكر حتى تستأذن. <sup>(٦٥)</sup> وقد منح الإسلام المرأة حقوقاً كثيرة لا حصر لها سواء مادية أو معنوية، ومنها حق

١- الطبري: نفس المصدر، ج ٤، ص ٦٠٦، ٦٠٧، ٦٢٠.

٢- إسمت غنيم: المرأة، ص ١١٤، ١١٥.

٣- إسمت غنيم: نفس المرجع، ص ١٠٣.

٤- الألب: التي سبق لها الزواج.

٥- العنود: المرأة في القرآن، ص ٨٧.

الإرث، والتي كانت ممنوعة عنها في العصور الجاهلية. فالذمة المالية المنفصلة للمرأة قاعدة إسلامية معروفة أيضاً.<sup>(١)</sup>

والخليفة ما قصدت من تلك الصفحات السابقة الدفاع عن المرأة المسلمة، فثلث قضية مفروغ منها، وإنما قصدت إبراز بعض دورها فقط، وفي بعض الجوانب المختلفة. فمما لا شك فيه أن الإسلام كدين انتقل بالمرأة نقلة كبيرة جداً، فقد رفع شأنها ووضعها في مكانة سامية، وخصها بدور عظيم في الحياة بصرف النظر عن النواحي العلمية والعملية. فأعظم دور للمرأة هو صناعة الأمومة، وتربية الأجيال، وهو في رأيي دور عظيم لا يقل أهمية عن النواحي الأخرى، وإن كان الكثيرون فسروا هذا الدور تفسيراً خاطئاً، بل وحجموها في هذا الدور باعتباره دوراً هامشياً، وغير مهم ولا يحتاج إلى إعداد علمي تربوي، وهذا التوجه فيه قصور. فما التعارض بين إعطاء الفرصة للمرأة، والحق في نيل قدر كبير من التعليم في شتى مجالاته مع مساعدتها في الاحتفاظ بدورها الأساسي في الحياة وهو إعداد وتربية الأجيال بعلم ووعي لا بأمية وجهل.

وفي لمحة تلك المقدمة، أسعير بعض كلمات للدكتورة/ زيب رضوان: وردت في كتابها المذكور " الإسلام وقضايا المرأة " نقول فيه: - " يُعَدُّ وضع المرأة في أي مجتمع أحد المعايير الأساسية لقياس درجة تقدمه، لأنه لا يتصور أن يتقدم مجتمع في عصرنا الحالي بخطى منتظمة مختلفاً وراء النصف من أفراده في حالة تخلف. إن المرأة لا تعيش في حالة انزاع عن الرجل، بحيث يمكن أن يتطور بشكل يمر وضعه تمييزاً جذرياً عن وضع المرأة، فكلاهما في مركب واحد، فتخلفها لابد أن ينعكس أثره مباشرة على تفكير الرجل ومسلكه وبالتالي لتخلفها يكون من أهم العوائق الحضارية.

والأمثلة على هذا كثيرة في كتب التاريخ الماضية، فمعظم عصور الانحطاط للدولة الإسلامية نجد دائماً المرأة فيها مروية بعيدة عن أي مشاركة من أي نوع.<sup>(٢)</sup>

والمثال الحي لهذا الرأي سأقتنه في كتابي هذا عن المرأة الأندلسية. وبخاصة في عصر الدولة الأموية أزهي العصور الأندلسية وقمة العطاء الإسلامي في الأندلس. وكيف كانت المرأة بارزة ولها دور هام ومكانة سامية.

١- حول حقوق المرأة في الإرث ونصيبها راجع:- سورة " النساء " الآيات (٧، ٢١).

٢- زيب رضوان: الإسلام وقضايا المرأة، ص ٧، ٨.

## دراسة نقدية وتحليلية لأهم المصادر والمراجع للكتاب.

### أولاً : المصادر

(١) ابن القوطية القرطبي: (ت ٣٦٧هـ - ٩٧٧م).

كتاب تاريخ افتتاح الأندلس.

هو أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز بن إبراهيم بن عيسى بن مزاحم ويعرف " بابن القوطية " ، والقوطية التي ينتمي نسب إليها هي الأميرة " سارة " حليدة غبطشة Witiza ملك إسبانيا الفوطي. وقد ذهبت سارة إلى الشرق في خلافة هشام بن عبد الملك بن مروان. شاكبة إليه ما وقع عليها من ظلم من عمها الذي غلب ميراثها، وفي تلك الرحلة زوجها الخليفة من قائله عيسى بن مزاحم، وعادت معه إلى الأندلس. ومن سلالتها جاء المؤرخ "ابن القوطية" وترجع أهمية هذا الكتاب بالنسبة لموضوع البحث فيما نقله ابن القوطية عن جدته سارة بحكم الزواج المختلط الذي تم بينها وبين العنصر العربي باعتبارها من طبقة "المولدين" التي جعلته يتحيز ويميل إلى عصره المولد على حساب العنصر العربي في كتاباته.

وكان هذا من النفاذ التي أشرنا إليها في النقطة الخاصة بطبقة المولدين، وما نتج عنها من نزعات قومية وتعصب ضد الجنس العربي والسيادة العربية، بل وصل الأمر لدرجة أن اعتبر الأستاذ الدكتور / أحمد مختار العبادي ابن القوطية، هو واضع اللبنة الأولى " لحركة الشعبية " في الأندلس. ومن المعروف أن الشعبية لم تقاوم الإسلام كدين، وإنما كدولة حرمت العنصر المولد من كل مرافق الدولة، واستأثر بها العرب دون سائر العناصر الأخرى المكونة للمجتمع الأندلسي.

وقد أفاد هذا الكتاب موضوع البحث، من حيث انفراد ابن القوطية بين مؤرخي القرن الرابع الهجري في نقل تلك المؤامرة التي كانت بين " طروب " والقي " نصر "، حاجب القصر، ضد الأمير عبد الرحمن الأوسط. وقد نقلها ابن القوطية بالتفصيل، وعنه نقل كثير من المؤرخين اللاحقين.

وقد ورد في هذا الكتاب أيضاً ما يفيد من أن هذه الأميرة سارة القوطية سلمت زوجها جميع ممتلكاتها ثمنياً مع التقاليد القوطية الإسبانية. رغم علمها بأن الإسلام كما هو معروف يعطى المرأة حق التصرف في ممتلكاتها دون وصاية زوجها.

وكتاب تاريخ افتتاح الأندلس له أكثر من مخطوطة. ومن الذين قاموا بنشره العالم الإسباني باسكوال دى جاينجوس P. Gayangos كما ترجمه إلى الإسبانية المستشرق الإسباني خوليان ريبيرا "J. Ribera" مترجم ١٩٢٦م.

(٢) ابن حزم: (٢٨٤ - ٤٥٦هـ) (٩٩٤ - ١٠٦٣م).

طوق الحمامة في الألفة والألاف.

هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي، وينحدر من أسرة إسبانية الأصل، وكان أبوه محمد وزيراً للمصور بن أبي عامر، ولهذا عاش ابن حزم الفترة الأولى من حياته عيشة

سعيدة مرحلة في قصور الخلافة بقرطبة، وقد أثرت هذه الحياة المثمرة في شخصيته ووجداته، ومكنته من الفرغ للدراسة والتحصيل على أيدي أكبر علماء الأندلس في عصره.

ومؤلفات ابن حزم كثيرة، وما يهتما منها هنا كتابه الشهير باسم " طوق الحمامة في الألف والألاف " الذي ألفه وهو في ثورة الشباب، وفي أيام الجهد التي شهدتها بقرطبة سنة ٤١٠ هـ قبل أن تعرض قرطبة للفن والتأمرات والتي شهدها هو بنفسه في آخريات حياته والتي أثرت عليه في كتاباته وتصرفاته.

والكتاب عبارة عن رسالة فلسفية أدبية في صفة الحب ومعاليه وأسبابه وأعراضه وما يقع فيه وله على حد قوله: فالموضوع كما نرى يتحدث عن عاطفة الحب، وما يترتب عليها من علاقات بين الرجل والمرأة، ولذلك جاء الكتاب ملياً بإشارات كثيرة ومعلومات مفيدة عن الحياة الاجتماعية للمرأة الأندلسية، فأقادني في موضوع البحث، وخاصة أن ابن حزم كما ذكرت كتبه بدون تحفظ وهو في سن الشباب والدفاعه، ولذلك جاء صادقاً في تعبيره وفي غاية الدقة والعدوبة والصراحة أيضاً.

ولقد تضمن كتاب طوق الحمامة قصصاً عديدة وصوراً مختلفة للمرأة الأندلسية، بقلم رجل معاصر لفترة هذا البحث، وهو ابن حزم، مما أضاع لي الطريق في هذا الموضوع. وحسبي أن اكتفي بذكر ما قاله هو نفسه عن نفسه في تلك العبارة إلى حسمت القضية لصالح المرأة الأندلسية عند قوله: أنه تلقى كل علومه ومعارفه على أيدي النساء، وأنه ما جالس الرجال، إلا وهو في حد الشباب، فتلك الشهادة من ابن حزم توضح لنا مدى ما وصلت إليه المرأة الأندلسية من تعليم وثقافة وإبداع.

ولقد اهتم العديد من المستشرقين بهذا الكتاب، ونقلوه إلى لغاتهم الأصلية مثل بتروف Petrof الروسي، ونيكل Nykl الأمريكي، وبرشة Bercher الفرنسي، وغرسة غومث Garceia Gómez الإسباني وغيرهم.

والطبعة التي اعتمدت عليها، هي آخر الطبعات العربية " لطوق الحمامة " هي التي حققها وقومها وقدم لها وعلق عليها الدكتور/ الطاهر أحمد مكّي، والذي أعد بعد ذلك دراسة منفصلة مستمدة من روح ونصوص الطوق تحت عنوان " دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة " وقد أقادني هذه الدراسة أيضاً.

(٣) ابن بسام الشتريني ( ت ٥٤٢ هـ - ١١٤٧ م ).

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة.

هو أبو الحسن علي بن بسام الشتريني، وينسب إلى شترين Santarem وتقع حالياً في البرتغال. وينتمي ابن بسام إلى أسرة عريقة، عاشت في شترين. وعندما كبر رحل إلى إشبونة ثم إلى قرطبة.

وينقسم كتاب الذخيرة إلى أربعة أجزاء طبقاً للأقاليم الجغرافية الأندلسية كل قسم يتحدث عن الإقليم، وأمراته وشعرائه. ولذلك حفظ لنا كتاب الذخيرة أجمل شعر الأندلسيين في الفترة التي ندرسها ومثال ذلك الأشتار التي تودلت بين ابن زهون وولادة. وهذا يعتبر ابن بسام مصدراً الأساسي في كل ما أوردناه عن تلك الشخصية النسائية الفذة في تاريخ الأندلس. والشاعرة ولادة بنت الخليفة المستكفي التي وصفها ابن بسام في أسلوب جميل يدل على مدى إعجابه بها وبشخصيتها وإنجازاتها بل وينفي عنها كل التهم التي ألصقت بها من حيث التحرر غير المألوف على عصرها.

وكذلك أورد لنا ابن بسام في الذخيرة مثلاً رائعاً للفرقة المكافحة التي يموت عائلها فتتحمل بكل مهارة تربية أولادها، وذلك في معرض حديثه عن "ابن اللبابة" الشاعر الأندلسي المشهور.

وقد اعتمدت في التأريخ على القسم الأول من هذا الكتاب، والذي يتناول قرطبة وما يجاورها من بلاد وسط الأندلس. وقد نشر معظم هذا القسم في لجنة التأليف والنشر بالقاهرة ١٩٣٩ م، وطبع طبعه أخرى للدكتور/ إحسان عباس، بيروت ١٩٧٩ م، ويقع في سبعة أجزاء، وجزء خاص بالقاهرة.

#### (٤) ابن بشكوال (ت ٥٧٧ هـ - ١١٨٢ م).

الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثهم وأدبائهم.

هو أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال، وواضح من اسمه بشكوال أنه تحريف للاسم الإسباني بسكوال Pascual وكتابه يعد من أبرز كتب التراجم الأندلسية، ويقع الكتاب في جزئين ونشره كوديرا Codera في مدريد سنة ١٨٨٣ م، وهناك طبعة أخرى للجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦٦ م.

وترجع أهمية هذا الكتاب بالنسبة لموضوع البحث. أن ابن بشكوال قد أفرد في نهاية الجزء الثاني من كتابه بضع صفحات لتراجم أبرز الشخصيات النسائية الأندلسية كالأدبيات والعلمات والشاعرات. وإن كنا نأخذ على الكتاب أنه ترجم مجموعة قليلة منهن، وأن الترجمة كانت أحياناً غير كافية وغير واضحة، وعلى الرغم من أن بعض الترجمات كانت مختصرة ومقتضبة، إلا أنها كانت توضح ما يريد المؤلف أن يقوله لنا.

#### (٥) محمد بن عبد الملك المراكشي (ت ٧٥٣ هـ - ١٣٥٤ م).

الذيل والتكملة لكتايب الموصول والصلة.

هو أبو عبد الله محمد الأنصاري بن محمد بن عبد الملك المراكشي، وكتابه كما هو واضح من عنوانه عبارة عن تكملة لكتاب ابن بشكوال السالف الذكر. ولنا مؤلف الكتاب كما يتضح من اسمه في مدينة "مراكش" بالمغرب ثم رحل إلى الأندلس وبعد فترة قصيرة عاد إلى وطنه مرة أخرى.



والكتاب عبارة عن موسوعة علمية لبعض رجال وعلماء الأندلس البارزين، وأيضاً من رحل إليها من المشاركة أو المغاربة حتى أواخر القرن السابع الهجري.

ويقع الكتاب في جزئين. وقد أفادني فائدة عظيمة، إذ أن صاحبه قد ذيله في نهاية الجزء الثاني منه بترجم للنساء الأندلسيات والمغربيات اللاتي زرن الأندلس في عصره. والكتاب مرتب على حروف المعجم. وكان يقع في تسعة أجزاء سبعة لأهل الأندلس والثان للغرباء الذين دخلوا الأندلس. وقد ضاعت بعض أجزاء هذا الكتاب، أما الأجزاء الباقية فقام ينشرها الأساذان إحسان عباس. ومحمد بن شريفة. وقد صدر منها فعلاً خمسة مجلدات في بيروت ١٩٦٤ - ١٩٦٥م.

(٦) ابن عذاري: كان حياً في (٧١٢ هـ - ١٣١٢م).

اليان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب.

هو عبد الله محمد بن عذاري المراكشي وواضح من اسمه أنه مغربي الأصل، وعاش في عصر الموحدين وبداية عصر بني مرين، ويعتبر كتاب "اليان" من أهم مصادر تاريخ المغرب والأندلس.

والكتاب عبارة عن أربعة أجزاء - الجزء الأول شمل أخبار المغرب والجزء الثاني شمل أخبار الأندلس - من الفتح حتى سقوط الخلافة الأموية - والجزء الثالث خاص بعصر الطوائف، أما الجزء الرابع فخاص بتاريخ الموحدين وبداية عصر بني مرين، وقد استفدت من الجزء الثاني، الذي تناول تاريخ الأندلس حتى سقوط الدولة الأموية، فليه أورد ابن عذاري بشيء من التفصيل أخبار أمهات الأولاد اللاتي تزوجن أمراء بني أمية، وقام بتوضيح ما إذا كانت جارية أم حرة مع ذكر كل واحدة باسمها وكنيتها ولقبها، وأحياناً لبذة عن تاريخها كما فعل مع السيدة "صبح" التي أمدنا بأخبارها بالتفصيل مع المنصور بن أبي عامر، وترجع أهمية هذا المصدر أيضاً في تناوله للعديد من الجوانب على الساحة الأندلسية سواء سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية أو علمية وبخاصة في الناحية العلمية، فقد عرفنا من خلاله العديد من الأشعار لكثير من الجوّاري الأندلسيات.

وقد اعتمدت على طبعة الكتاب التي تعهدها الأساذان/ ليبي بروفسال وكولان في الجزئين الأول والثاني (بيروت ١٩٥٠) أما الجزء الثالث فعني بنشره بروفسال منفرداً.

أما الجزء الرابع فقد نشره المستشرق الإسباني/ أوبيي ميرندا، والعلّامان المغربيان إبراهيم الكتاني، ومحمد بن تايوت. الرباط. ١٩٦٣م.

(٧) المقرئ (ت ١٠٤١ هـ - ١٦٣١م).

نفع الطيب، من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب.

هو أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد بن يحيى بن عبد الرحمن بن أبي العيش بن محمد المقرئ - التلمساني المولّد - والمقرئ التلمساني جزائري من مدينة مقصورة [ بتشديد القاف ] بجوار قسنطينة. وقد جاء إلى مصر ومات بها ودفن بترابها.

ويُعد كتاب " نوح الطيب " من أهم الكتب التي استفادت منها استفادة عظيمة في موضوع البحث، إذ هو عبارة عن موسوعة علمية كثيرة عن الأندلس لصفها الأول يتضمن التعريف بالأندلس، بينما تصفها الثاني عن الوزير الغرناطي لسان الدين بن الخطيب تقديراً واعجاباً به، والكتاب ألف في أثناء رحلات المغربي في مصر والشرق بعيداً عن وطنه ومكتبته، فجاء الكتاب غير منظم. كثير الاستطراد والتكرار، ولكن هذا لم يمنع من كونه مصدراً أساسياً وتراجع أهمية هذا المصدر بالنسبة لموضوع البحث في أن المقسري ألفه فصلاً كاملاً لنساء الأندلس، مع إبراز الإنجازات الخاصة بكل واحدة منهن، ولا سيما في مجال الإبداع الأدبي والعلمي، فقد أرخ لأكثر من خمسة وعشرين منهن.

ورغم ما قاله المرأة الأندلسية في كتاباته من توضيح واهتمام، إلا أن كلامه عنها كان مقتضباً وغير كاف، وربما يرجع ذلك لبعد الفترة التاريخية، وبعد المكان. فقد كان معظم ما ذكره متقولاً عن مصادر أخرى سابقة عليه، ولم يأت إلا بالقليل الجديد، ورغم هذا يعتبر من المصادر الهامة للبحث.

وقد نُشر الكتاب عدة مرات. فهناك طبعة بولاق القديمة في أربعة أجزاء (القاهرة ١٨٦٣م) وهناك طبعة الشيخ/ محي الدين بن عبد الحميد في عشرة أجزاء (القاهرة ١٩٤٥م) ثم نشره أخيراً الدكتور/ إحسان عباس في ٨ أجزاء، والجزء الثامن خاص بالفهارس للأجزاء السبعة الأخرى، مما يسهل على الدارس عملية البحث، وتلك هي الطبعة التي اعتمدت عليها.

### ثانياً: المراجع الأوروبية الحديثة.

(١) هنري بيرس Heneri Pérès الشعر الأندلسي في القرن الحادي عشر

جوانبه العامة، وموضوعاته الرئيسية.

#### La Poésie Andalouse en Arabe Classique ou XI Siècle.

ومؤلف الكتاب هو المستشرق الفرنسي هنري بيرس. أحد المستشرقين المعاصرين البارزين في دراسة الأدب الأندلسي، والكتاب عبارة عن دراسة تحليلية للشعر الأندلسي واستباط الكثير من مظاهر الحياة الاجتماعية في الأندلس من خلاله، وهي معلومات يصعب أن نجدها في الكتب التاريخية.

وبطبيعة الحال كان للمرأة الأندلسية نصيب كبير في هذا الكتاب الرائع، إذ عرفنا الكثير عن حياتها من خلال أبيات الشعر التي تناولتها. ولقد ألف بيرس للمرأة فصلاً خاصاً من كتابه تحت عنوان " المرأة والحب " وكان بيرس أكثر المستشرقين تعقلاً في حكمه على وضع المرأة الأندلسية، وجاء ذلك نتيجة لعنايته الفائقة بدراسة الشعر الأندلسي وسير أغواره. إلى حد قوله أن الأندلسيين ذهبوا بحب المرأة إلى درجة العبادة.

والواقع أن بيرس لم يكن مبالغاً في أحكامه، لأن المرأة الأندلسية شاركت مع الرجل في كل مجالات الحياة، وحدثننا الكتاب عن هذا، وقد أفادني الكتاب أيضاً في معرفة أنواع المأكول والمشرب، وأدوات الزينة والملابس، وجوانب أخرى عديدة في حياة المرأة، وردت أوصافها فيه.

وقد صدر الكتاب باللغة الفرنسية عام ١٩٥٣. ثم قام بترجمته إلى العربية الدكتور/الطاهر أحمد مكي، مع إضافة حواشي وضروح مفيدة لكل ما قد يكون غامضاً. وصدر عن دار المعارف بالقاهرة في يولييه ١٩٨٨م.

(٢) جوليان ريبيرا (١٨٥٨ - ١٩٣٤ م) Julián Ribera.

ديوان ابن قسُمان: بحث في كتابه "المقالات والرسالات".

El Cancionero de Abu Cuzman en Disertaciones y Opusculos.

ريبيرا أحد المستشرقين الأسبان الملهمين البارزين في مجال الأندلسيات. ولم يتعرض ريبيرا في حديثه عن المرأة بصفة مباشرة، وإنما جاء حديثه عنها من خلال بحثه الذي ألفه في التجمع الملكي الإسباني، عند اختياره عضواً فيه عام ١٩١٢م، وكان البحث عن ديوان ابن قسُمان، أحد شعراء الأندلس في القرن السادس الهجري (١٢م) وأول من وصل إلينا ديوانه في الأزجال، ونشر البحث بعد ذلك في سنة ١٩٢٨م في كتابه الذي يحمل عنوان "المقالات والرسالات" وتناول ريبيرا الحديث عن المرأة الأندلسية في معرض حديثه عن مشكلة اللغة التي كان يتحدثها سكان الأندلس، وكان أول من اكتشف أن الأندلسيين يتحدثون لغتين عاميتين مختلفتين جداً إلى جانب هما العربية والرومانشية Romance إحدى لهجات اللاتينية.

وقد ناقشت في هذا البحث آراء ريبيرا عن دور المرأة، وأهميته في أسبنة المسلمين القدامين من المشرق والمغرب.

وناقشت أيضاً آراءه حول دخول العرب الأندلس، فهو يميل إلى أن العرب قد دخلوا الأندلس أفراداً دون أسرهم، وأن العرب بعد عدة أجيال قد فقدوا خصائصهم وأصبحوا أسبانياً ابتداءً من الجيل الثالث نتيجة لهذا الزواج المختلط.

ثالثاً: المراجع العربية الحديثة.

(١) الأستاذ الدكتور/ أحمد مختار العبادي.

أستاذ التاريخ الإسلامي، والخضارة الإسلامية، كلية الآداب. جامعة الإسكندرية.

أ- في تاريخ المغرب والأندلس.

ب- دراسات في تاريخ المغرب والأندلس.

ج- الإسلام في أرض الأندلس- أثر البيئة الأوروبية... وغيرها.

وقد استفدت إلى حد كبير من كتابات أساذي الدكتور/ أحمد مختار العبادي. ورجعت إليه في كثير من نقاط البحث الأساسية، وبخاصة للنقاط التي تكون غامضة وتحتاج إلى توضيح في المصادر الأساسية. وكتابات الدكتور/ العبادي في تاريخ الأندلس وحضارتها كثيرة وثرية، وتعتبر من أهم المراجع الحديثة المتخصصة في هذا المجال. فقد أحملت برأي سيادته في العديد من المسائل التاريخية والحضارية والتقاليد والأعياد والاحتفالات، وما يصاحبها من تأثير وتأثر واختلاط.

(٢) الأستاذ الدكتور/ السيد عبد العزيز سالم.

أستاذ التاريخ الإسلامي، والحضارة الإسلامية، كلية الآداب جامعة الإسكندرية.

أ- تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس.

ب- قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس.

ج- دائرة معارف الشعب..... وغيرها.

وقد أفدت أيضاً من معظم كتب أساذي الدكتور/ السيد عبد العزيز سالم فائدة كبيرة. وخاصة كتاب " تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس " فهو عبارة عن موسوعة تاريخية حضارية، سياسية لكل نواحي الحياة الأندلسية، من الفتح وحتى سقوط الخلافة، وكذلك كتاب " قرطبة حاضرة الخلافة " فهو يلقى الضوء على تلك المدينة الساحرة، التي كانت تعتبر العاصمة و قلب الحياة الأندلسية.

أما مقالاته في دائرة معارف الشعب، والتي تناول فيها بشكل مفصل ودقيق الحياة العلمية والأدبية، وفن الغناء والموسيقى الأندلسية، فكانت خير معين لي في إثارة الطريق، ومعرفة الكثير عن أسلوب الحياة الأندلسية في هذا المجال.



المفتدين

## دراسة تمهيدية وعرض سريع لتاريخ الأندلس

في عصر الولاة والأمراء والخلفاء الأمويين.

في البداية أود أن أوضح أنني لن أتناول هذا العرض بمنظور سياسي بقدر الإمكان. فالتاريخ السياسي معروف، وإنما سأتناوله من خلال علاقته بموضوع الكتاب، ومحاولة معرفة مدى تواجد المرأة على مسرح الأحداث وخاصة في بداية الفتح الإسلامي لإسبانيا.

ومما لاشك فيه أن كلمة الأندلس لها في قلب كل عربي ومسلم، مكانة سامية كما لها في نفس المولت رنة حزينة وعهد المتقنين مكانة مرموقة، ولا غرو فقد التقى على أرضها الشرق بالغرب، وامتزج القديم بالحديث، وقد بلغت الحضارة العربية آنذاك قمته كما بلغت الآداب شأواً عظيماً، وبدأت تستغل جزاياها خاصة عن مصادرها الأولى في المشرق، ولهذا أضافت إلى الذخائر العربية ذخائر طريقة وفريدة وبخاصة في الشعر والأدب.<sup>(١)</sup>

ولن أضيف حديثاً إذا ذكرت أن وضع المرأة يحتل الحضارة والواجهة للأمة التي تسمى إليها حبر تقليل. ومن نسَم أستطيع أن أذكر ومنتهي الصراحة أن المجتمع الإسلامي الأندلسي، قد بلغ بالمرأة أعلى درجات الرقي والتقدم، ولن أكرر ما ذكرته المرأة عن نفسها، وعن حُلجتها، بل ما دُكر عنها وما تناوله الشعر عنها من خلال مقطوعات غابة في العذوبة والرقي وضعها في مكانة عالية، لم تطاولها امرأة مثلها معاصرة لها.

وكانت إسبانيا القوطية قبل الفتح الإسلامي، على أتم الاستعداد لحركة التغيير التي جاءت مع الفتح الإسلامي. فقد كانت مكونة من طبقتين لا صلة لحداهما بالأخرى، طبقة الأحرار وطبقة العبيد، ولا يمكن أن تقوم بينهما أي روابط وبخاصة في الزواج.<sup>(٢)</sup>

وجاء الفتح العربي الإسلامي لإسبانيا، بما يحمله من تسامح فاستقبله أهالي البلاد أحسن استقبال. وكلمة الأندلس هي الاسم الجديد الذي أطلقه المسلمون على شبه جزيرة إيبيريا "إباريه" تعريباً لكلمة "فندالشيا" التي كانت تطلق على الإقليم الروماني المعروف باسم باطقة Batia الذي احتلته قبائل الجرمان ما يقرب من عشرين عاماً، ويسميهم الحميري بالأندليش.<sup>(٣)</sup> ويضيف

١ - ليبي بروفنسال: سلسلة محاضرات عامة في أدب الأندلس وتاريخها. ١٩٤٧ - ١٩٤٨ م. الطبعة الأميرية - القاهرة ١٩٥١ م، ص ١٤.

٢ - Aguado Bleye: Manuel de la Historia de España. Tomo I, Madrid 1947, P.361.

٣ - الحميري: (أبو عبد الله محمد الحميري) صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض الطيار، تحقيق/ ليبي بروفنسال، ١٩٣٧ م، ص ٢؛ السيد عبد العزيز سالم: دائرة معارف الشعب. كتاب الشعب العدد (٦١) عن فن الغناء والموسيقى في الأندلس، ١٩٥٩ م، ص ٣.

الخيري عن الأندلس في كتابه "الروض المعطار" قائلاً: بأن الأندلس شامية في طبيعتها وهوائها، ممانية في اعتدالها واستوائها، هندية في عطرها وذكايتها، أهوازية في عظم جبايتها، صينية في جواهر معادنها، عدنية في منافع سواحلها<sup>(١)</sup> وتعرف الأندلس في اللغة اليونانية باسم إيبيريا Iberia، وفي اللغة اللاتينية باسم Hispania<sup>(٢)</sup> وفي بادئ الأمر كانت كلمة الأندلس تطلق على شبه جزيرة إيبيريا وبعد مرور سترات وتعداً للوضع السياسي أخذ اللفظ يقل مدلوله الجغرافي بعد أن ضاعت أجزاؤها الشمالية. حتى صار آخر الأمر وبعد سقوط مملكة غرناطة وانتهاء الحكم الإسلامي في إسبانيا سنة ٨٩٧هـ - ١٤٩٢م يطلق على الأجزاء الجنوبية من شبه جزيرة إيبيريا، وهي المنطقة التي تشمل اليوم ولايات قرطبة Cordoba وإشبيلية Sivlla وغرناطة Granada ويطلق عليها الأسمان لفظ أندلوفيا Andaluia<sup>(٣)</sup>.

وتعرف الفترة الأولى للحكم الإسلامي في الأندلس بعصر الولاة، وهي فترة مضطربة اشتهرت بالغزوات الخارجية التي شنها ولاة الأندلس على جنوب فرنسا. كما اشتهرت أيضاً بالفتن الداخلية التي قامت بين العرب والبربر تارة، وبين العرب أنفسهم تارة أخرى، وكانت الأندلس في ذلك الوقت إمارة غير مستقلة وتضع الخلافة الأموية في الشرق بدمشق وعكفها وال يعرف بالأمر، وهو يصنع أمير إفريقية من الناحية الإدارية. وكان يعينه غالباً والي القيروان<sup>(٤)</sup>.

وكانت أول الجيوش التي دخلت الأندلس، الجيش العربي البربري المشترك بقيادة القائد طارق بن زياد، والذي هزم القوط هزيمة ساحقة في "شذونة" بعد معركة شرسة ضارية استغرقت أسبوعاً من رمضان إلى ٥ شوال ٩٢ هـ / ١٩ - ٢٦ يوليو سنة ٧١١ م.<sup>(٥)</sup> وبعد دخول طارق الأندلس أقام عدة أيام في جبل طارق الذي عرف باسمه Gibraltar وهناك بقي طارق قاعدة عسكرية بجواره على الساحل، وهي مدينة الجزيرة الخضراء Algeciras وتسمى في المصادر العربية بجزيرة "أم حكيم" على اسم جارية لطارق كان قد حملها معه عند الغزو ثم تركها في هذه

١- الخيري: نفس المصدر. ص ٣.

٢- الخيري: نفس المصدر. ص ١.

٣- أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة الثقافة الجامعية الإسكندرية، ص ١٩، ٢٠ - بدون تاريخ.

٤- أحمد مختار العبادي: نفس المرجع: ص ٨٥.

٥- ابن عسكري: البيان للعرب في أخبار الأندلس والمغرب، ٤ أجزاء، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٠ م، تحقيق ج. م. كولان، ولفي بروفيسال، ج ٢، ص ١٠، المقري: (أحمد بن محمد المقرئ التلمساني) فتح الطب من غصن الأندلس الرطيب، حققه الدكتور إحسان عباس، ٨ أجزاء، دار صادر، بيروت ١٩٦٨ م. ج ١، ص ٢٥٩، أحمد مختار العبادي: نفس المرجع، ص ٦٦.

البلدة فسبت إليها<sup>(١)</sup> وفي السنة التالية (٩٣ هـ - ٧١٢ م) حلق بطارق قائد الأعلى موسى بن نصير، على رأس جيش عربي، ومضى يأخذ دوره في عملية الفتح<sup>(٢)</sup>.

وكان أول ولاية الأندلس عبد العزيز بن موسى بن نصير، ولم تطل مدة حكمه وقتل بعد فترة قصيرة<sup>(٣)</sup> سنة (٩٨ هـ - ٧١٦ م) وتولى من بعده علي مدى عصر الولاية كله سبعة عشر والياً. وذلك على مدى ستة وأربعين عاماً، كان أولهم ابن عمته أيوب بن حبيب اللخمي، والذي نقل الحاضرة إلى قرطبة، بعد أن كانت إشبيلية على عهد الأمير عبد العزيز بن موسى. ونذكر من هؤلاء الولاة السبع بن مالك الحولاني (١٠٠ - ١٠٢ هـ / ٧١٨ - ٧٢٠ م) وغنم من طرف الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١ هـ)، وأشهر أعماله تجديد القنطرة القديمة على نهر الوادي الكبير بقرطبة<sup>(٤)</sup> وعبد الرحمن الغافقي والذي تولى الإمارة مرتين، وهزم في المرة الثانية هزيمة ثقيلة أوقفت أي تقدم إسلامي بعد ذلك فيما وراء البربات، وذلك في موقعة توربويا الشهيرة<sup>(٥)</sup> (١١٤ هـ - ٧٣٢ م / ١٣٨ هـ - ٧٥٥ م) أو بلاط الشهداء كما يسميها مؤرخو العرب<sup>(٦)</sup>. ثم بدأ عصر الإمارة بتولى الأمير عبد الرحمن بن معاوية إمارة الأندلس، بعد صراعات عديدة مع معارضيه، وبدأ عبد الرحمن بن معاوية "الداخل" الرحلة من الشرق بدمشق إلى الغرب بالغرب، ثم الأندلس وكانت رحلة طويلة وشاقة يبرز من خلالها مشاركة المرأة في المساعدة بأحسن ما تكون المساعدة. بداية من أخته أم الأصغر أمة الرحمن، والتي ساعدته بالمال اللازم والمواثي لمواصلة تلك الرحلة الشاقة<sup>(٧)</sup> حتى وصل إلى أحواله النفرين في المغرب، وبقي معه من

١- الحموي: المصدر السابق، ص ٧٣؛ أحمد محار العبادي: تاريخ الفتح الأندلس لابن الكردوبس، وهو قطعة من كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء، تحقيق الدكتور/ أحمد محار العبادي، مدريد ١٩٧١، ص ٤٤؛ ليفي بروفنسال: تاريخ إسبانيا الإسلامية، ج ١، ص ٦.

٢- السيد عبد العزيز سالم: دائرة معارف الشعب العدد (٦١) ص ٦.

٣- راجع أسباب مقتل عبد العزيز بن موسى: الفصل الثاني دور المرأة السياسي ص ١٣١.

٤- السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة بقرطبة، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية ١٩٦١ م، ص ١٣٤، حسين مؤنس: فجر الأندلس، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٥٩، ص ٢٤٦ حاشية (١).

٥- عن معركة توربويا أنظر: - حسين مؤنس: نفس المرجع، ص ٢٧٤، ٢٧٥.

Leve Provencal: Histoire de l'Espagne Musulmane. Iriden.

1950 - 1954. pp. 62, 63. Paris. 3 Vols.

٦- حكيب ارسلان: تاريخ غزوات العرب، ص ١٠٠.

٧- مجهول: أخبار مجموعة، ص ٥٤، ٥٥، ٥٦ ابن عذاري: البيان المغرب، ج ٢، ص ٤٠، ٤١، المقري: فتح الطيب، ج ١، ص ٥٤٦، ج ٣، ص ٢٨، ليفي بروفنسال: تاريخ إسبانيا الإسلامية ج ١، ص ٨.

Dozy: Historia de los Musulmanes de Espana, Tomo I. Leyden 1861. p.253.



الموالي الذين أرسلتهم أختاه مولاه بدر. أما أبو الشجاع سالم فقد عاد إلى المشرق بعد أن اطمأن عليه.<sup>(١)</sup>

وبذكر الحشني أن عبد الرحمن لم ينس صنع أخته ثم الاصبح بعد أن استقر به الأمر في الأندلس، وأصبح أميراً فأرسل معاوية بن صالح إلى أخته بالشام، كي يأتي بها ليعوضها عما فعلته معه في رحلته، لكنها أثرت اللقاء في الشام وقالت للرسول: لقد كثرت سني ولا طاقة لي على شق البحار وحسي أن أعلم ما صار إليه من نعمة. ويبدو أن أخته الأخرى أمة الرحمن كانت قد ماتت لعدم ذكر اسمها في النص المذكور.<sup>(٢)</sup>

وأثناء تواجد ابن معاوية بالمغرب قبل نزوله إلى الأندلس يذكر المقري: أنه نزل "بُعيلة" عند شيخ من رؤسائها يدعى "وانسوس"<sup>(٣)</sup> وبكى أبا مرة وزوجته تدعى "تكفات" وقد غيابه تحت ثيابها في أثناء مدامها وجمال عبد الرحمن بن حبيب القهري له. ولم ينس لها ولزوجها ابن معاوية هذا العمل الذي القذ حياته بعد أن صار أميراً للأندلس فأكرمها وقال لها يوماً مداعباً: لقد عذبتني يوماً بريح إبطيك يا تكفات، علي ما كان بي من الخوف فكان جوابها سريعاً دون حرج قائلة: بل كان ذلك قد خرج منك وأنت لم تشعر به من فرط فرحك فاستظرف جوابها، وأغضى عن مواجهتها وأكرمها هي وزوجها واستظلا بظله طوال إقامتهما في الأندلس.<sup>(٤)</sup>

ونستدل على وجود المرأة في الأندلس من خلال الصراع الذي دار بين عبد الرحمن بن معاوية ومعارضيه ولاية الأندلس يوسف القهري والصميل بن حاتم، فقد بادرا بإرسال وفد عندما علما بنزوله إلى "طرس" يعرضاً عليه أن يوسف القهري يريد أن يقربه إليه وبزوجة ابنته أم موسى، وكانت قد نزلت في ذلك الوقت من زوجها قطن بن عبد الملك، حتى يكون تحت أعينهم بعد أن رأوا شعبيته تزداد يوماً بعد يوم.<sup>(٥)</sup>

وعند دخول ابن معاوية الأندلس أرسلت "أم عثمان" زوجة يوسف القهري، له خطاباً وهو بوادي شربة، وكانت هي بقرطبة مقر الإمارة وإقامتها. تسلمه بدخول ابن معاوية

١- عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم، ص ١١٧٩ محمد عبد الله عان: دولة الإسلام في الأندلس من الفتح إلى بداية عهد الناصر والخلافة الأموية والدولة العائرية، العصر الأول. القسم الأول. القاهرة ١٩٥٥. ص ١٥٠.

٢- الحشني: (أبو عبد الله محمد بن حارس بن أسد القيرواني) تاريخ قضاة قرطبة، الدار المصرية لطاليف والترجمة ١٩٦٦ م، ص ١٦-١٧.

٣- وقد استقر وانسوس وأسرته في الأندلس، ومن نسله أصبح بن عبد الملك بن وانسوس، والذي قام بتورة على الحكم الرئضي سنة ١٩٠ هـ. للمزيد من التفاصيل راجع: ابن عذاري: البيان المغرب، ج ٢.

٤- المقري: نفس المصدر، ج ١، ص ٣٣٣، ٣٣٤ عبد العزيز سالم: نفس المرجع، ص ١٧٨.

٥- مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها، حلقه الأستاذ إبراهيم الإيماري، الطبعة الأولى ١٩٨١. ص ٧٠، ٧١. عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين، ص ١٨٢، ١٨٤.

الأندلس وأنه حالياً وصل إلى " طرس " وأنه تحالف مع موالي بني أمية. وكتب حوله الكثير من الأتباع.<sup>(١)</sup>

ويذكر صاحب أخبار مجموعة أيضاً، أن السنة التي دخل فيها ابن معاوية الأندلس، دخل فيها أيضاً عبد الملك بن عمر بن مروان، ويقال له المرواني. وجزى بن عبد العزيز بن مروان ومعهما أولادهما وبناتهما. وصانع ناس كثيرون من بني أمية ومواليهم وكثروا. مما يؤكد ما ذكرناه حول دخول المرأة الأندلس مع أولى بدايات العصر الإسلامي في الأندلس.<sup>(٢)</sup>

ويذكر ابن القوطية أن ابن معاوية، عندما دخل قصر الإمارة استنجدت به زوجة يوسف الفهري وابنته وقلن له " يا ابن العم " أحسن كما أحسن الله إليك فأمر صاحب الصلاة بقرطبة، بضمهن إلى نساء داره، ومنع جنوده من الوثوب والاعتداء عليهن. ولكن حماته لزوجته وبنات يوسف أغضب جنده عليه، وقد أهدت له ابنة يوسف الفهري جارية تسمى " حبل " وهي أم هشام " الرضا " ولي عهده<sup>(٣)</sup> وكذلك نفهم من كلام ابن قتيبة: أن موسى بن نصير صاحب معه نسائه وبناته وذلك عند قوله: ولما زال موسى حصناً ثالثاً، فاشتد عليه القتال حتى مال المسلمون نحوه، فأمر موسى بسراده فكشطه عن نسائه وبناته، حتى برزت لحمي المسلمون وكسرت بين يديه أعظام السيوف، مما لا يحصى، واحتدم القتال وفتح الله عليه ونصره<sup>(٤)</sup> ونرى من خلال النص السابق الخيلة التي وصل إليها موسى عندما رأى تقاعس جنوده عن احتلال مدينة " ماردة " فلجأ إلى تعريض نسائه للأمر، كمظهر من مظاهر الاحتجاج، ونرى إلى أي حد وصلت حماية المسلمين وغيرهم على نساءهم<sup>(٥)</sup> وتولى بعد عبد الرحمن بن معاوية ابن هشام الرضا، ثم ابنه الحكم الرضا، وكان هؤلاء الأمراء الفضل في توطيد أركان الدولة الأموية بعد عبد الرحمن الداخل، وذلك من الناحية السياسية والحضارية.

ولكن أهم الأمراء بعد عبد الرحمن الداخل، كان حفيده عبد الرحمن بن الحكم " الأوسط " (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ / ٨٢١ - ٨٥٢ م) وكان رجلاً على مستوى كبير من العلم والثقافة<sup>(٦)</sup> وقد تألفت في عهده شخصيات كثيرة أبرزهن " طروب " جاريته وأم ولده عبد الله.<sup>(٧)</sup>

١- مجهول: المصدر السابق، ص ٧٣، ٨٤، p.274. R.Dozy: Historia de los Musulmanes, Tomo I.

٢- مجهول: نفس المصدر، ص ٨٧.

٣- ابن القوطية: وأبو بكر محمد القوطي، تاريخ الفتح الأندلس. القاهرة، بيروت. الطبعة الأولى ١٩٨٢، ص ٥١، ٥٠، الحاشية: فتاة قرطبة، ص ١٤، ١٥، عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص ١٩١.

٤- ابن قتيبة: الإمامة والسياسة، ص ٨.

٥- أحمد مختار العبادي: الإسلام في أرض الأندلس، أثر البيئة الأوربية. مقال بمجلة عالم الفكر، العدد الثاني، المجلد العاشر ١٩٨٤م، ص ٦٢.

٦- ابن خلدون، كتاب العمر وديوان المبدأ والخبر، سبعة أجزاء، دار الكتب العلمية- بيروت ١٩٩٢م، ج ١، ص ١٣٠.

٧- عبد العزيز سالم: دائرة معارف الشعب، العدد ١٦١، ص ٨.

وتولى بعد عبد الرحمن الأوسط عدة أمراء إلى أن جاء عصر الخلافة الأموية بتولى " عبد الرحمن بن محمد المعروف بالناصر لدين الله " والذي بدأ عصر الخلافة (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ - ٩١٢ - ٩٦٢ م) وتلقب باللقاب في أعلامه وطوره، وبلغت الخلافة من بعده في ذريته إلى انتهاء الدولة الأموية بقرطبة.<sup>(١)</sup>

وبدأ عبد الرحمن الناصر عهده بمواجهة كافة الأخطار الخارجية، حتى استطاعت له جميع الأندلس<sup>(٢)</sup> وخلف الناصر ابنه " الحكم المستنصر بالله " ثم خلفه ابنه " هشام المؤيد " وكان صغيراً تحت وصاية أمه " صبح البشكنسية " والحاجب ابن أبي عامر، الذي تلقب فيما بعد " بالمصور " وأبعد الخليفة هشام المؤيد، وبدأ دولته العامرية، وبأى من بعده ابنه عبد الملك المظفر، الذي يقتل بعد مدة قصيرة من ولايته، وبعد مقتله بتولى أخوه الأصغر عبد الرحمن شنجول.

وكانت ولاية شنجول للحجابة بعد أبيه وأخيه بداية النهاية للدولة العامرية والأموية معاً، وذلك عندما أعلن نفسه خليفة، فقد دخلت قرطبة في فترة وصراعات طويلة. تولى فيها عدد من الخلفاء الضعاف. إلى أن انتهت الخلافة الأموية نهائياً في قرطبة. وبدأ عصر آخر عرّف في التاريخ " بعصر ملوك الطوائف " وذلك عندما أعلن الوزير " أبو الحزم بن جهور " محو خلافة بني مروان من الأندلس.<sup>(٣)</sup>

وبعد هذا العرض السريع للتاريخ الأندلسي، وولائه وأمرائه وخلفائه، نرى أن الفتح العربي لإسبانيا، لم يكن مجرد احتلال عسكري، صعدت فيه الجيوش الإسلامية إلى أقصى الشمال، ثم هبطت إلى الجنوب مثل الرمومر أو ميزان الحرارة، بل كان حدثاً تاريخياً هاماً، أمتزجت فيه حضارات سابقة كالرومانية والقوطية، مع حضارة جديدة والفدة وهي الحضارة الإسلامية، ونتج عن هذا المزيج حضارة أندلسية مزدهرة، وصلت إلى الفكر الأوربي المجاور، وأثرت فيه. فقد تغلغل الفتح الإسلامي لإسبانيا في الحياة الإسبانية، وترك فيها أثراً عميقاً، مازالت تتراءى لنا مظاهرها بوضوح إلى اليوم، في اللغة والمجتمع، بل وبعض العادات والتقاليد، التي لم يستطع المجتمع الإسباني، رغم مرور تلك السنوات التخلص منها نهائياً. وسنرى من خلال البحث أن هذا المزيج، قد أخرج لنا مجتمعاً فريداً من نوعه في العالم الإسلامي كله.

١- Garcia Gomez: Una Cronica anonima de Abd al Rahman III, Al Nasir, Madrid, 1958 p.79.

٢- عبد العزيز سائر دائرة معارف الشعب، العدد (٦٦) ص ٨، ٩.

٣- عبد العزيز سائر نفس المرجع والمصاحفات

## الفصل الأول.

### دور المرأة الاجتماعي في الأندلس.

أولاً: الفاتحون المسلمون والزواج المختلط منذ الفتح الإسلامي حتى سقوط الدولة الأموية في الأندلس.

ثانياً: التسري بالإماء والجواري عن طريق السي.

ثالثاً: طبقة المولدين نتاج الزواج المختلط والتسري بالإماء.

رابعاً: أثر السراي والجواري في مجال الحياة الاجتماعية. من الغناء والتوسلي.

خامساً: العادات في الزي، واستخدام أدوات الترتيب. والتزين بالخلي والتطيب بالعلطور.

سادساً: الزواج والطلاق.

### أولاً: الفاتحون المسلمون والزواج المختلط ، من الفتح الإسلامي للأندلس حتى سقوط الدولة الأموية في الأندلس

دخل العرب الأندلس في جماعات محدودة، وعلى موجات متتابعة تعرف بالطوائع.<sup>(١)</sup> ولما كان الفاتحون العرب والبربر، قد دخلوا الأندلس كجنود عسكريين، ولم يصطحبوا معهم عائلاتهم، فقد أقبلوا على مصاهرة الإسبان أهل البلاد، ومضوا على هذا النحو يتزوجون من الإسبانيات ما شاءوا وعاشروا أهل البلاد وجاوروهم. وعن طريق هذه المجاورة أو المصاهرة، نشأت طبقة المولدين. وانتشر الإسلام في الأندلس، إنشائاً تجاوز كل تقدير في الحسبان، وهكذا أمتزجت دماء الفاتحين من العرب والبربر بدماء أهل البلاد الأصليين، بهذا الاختلاط البشري الواسع النطاق.<sup>(٢)</sup>

ولقد استحوذت عملية دخول العرب إسبانيا على اهتمام الكثير من المؤرخين العرب والمستشرقين، لصاغوا حوها الكثير من القصص والحكايات تذكر منها تلك القصة العربية الشهيرة. والتي تتصل بموضوعنا، والتي كانت بطلتها ابنة الكونت بوليان Julian حاكم مدينة

١- السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة. الإسكندرية. ١٩٦٦ م ، ص ١٩٩ حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص ٣٥٥ ، حتى عبد النعم حسين: مجتمع قرطبة في عصر الدولة الأموية في الأندلس. رسالة دكتوراه نشرت بآداب الإسكندرية سنة ١٩٨٤ م ، ص ٥٧٤.

٢- أحمد مختار العبادي: الإسلام في أرض الأندلس أثر لينة الأوروبية. عالم الفكر. المجلد العاشر. العدد الثاني. سنة ١٩٨٤ م. ص ٦٢.

سنة Cute وقت دخول العرب إسبانيا. وهي الفتاة التي أرسلها والدها إلى القصر الملكي القوطي بطليطلة Toledo لتأدب وتعلم فيه أسوة بغيرها من بنات الطبقة الراقية. ولكن حدث أن اهتمت عليها لوزيق Rodrigo ملك إسبانيا القوطي، كما ورد في الرواية العربية التي تحمّل هذا الملك مسئولة استناره، بينما تجعل من ابنة يوليان الضحية البرينة، مما جعل والدها يوازع الانتقام الشخصي، أن يقدم على تجرّيس موسى بن نصير على غزو إسبانيا<sup>(١)</sup> هذه هي الرواية العربية التي تجعل من هذه القصة سبباً مباشراً لدخول العرب إسبانيا، وبمرور الزمن دخلت هذه القصة في المصادر الإسبانية المعاصرة مثل الخولة القوطية Cronica Gothrum وبالتالي في القصص والأغاني الشعبية الإسبانية التي تُعرف في الأدب الإسباني باسم Romancero.

حيث نجد وصفاً لجمال هذه الفتاة، وكيف أنّها كانت لقوى السباحة في بحر الناحو Tajoo بطليطلة، وكيف رآها الملك وهي تستحم فأحبها وتسميها المصادر الإسبانية باسم فلورندا Florinda ثم تعنها بلقب المرأة الفاجرة "La cava" أي الفجاءة وتحملها وزر ما حدث.<sup>(٢)</sup>

#### ١- وردت قصة ابنة يوليان في:

- (١) ابن القوطية: تاريخ إفنصاح الأندلس، ص ٣٣، ٣٤.
- (٢) ابن عبد الحكم: (عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم) فتوح إفريقية والأندلس، حققه الأستاذ/ عبد الله أبي الطاع، بيروت، لبنان ١٩٦٤ م، ص ٧٢.
- (٣) عبد الواحد المراكشي: (معي الدين عبد الواحد المراكشي) تاريخ الأندلس المسمى بالمعجب في تلخيص أخبار المغرب، الطبعة الجمالية، الطبعة الأولى، ١٩١٤ م، ص ٦.
- (٤) ابن عسّار المراكشي: البيان للمغرب، ج ٢، ص ٧.
- (٥) ابن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج ٤، ص ١٤١.
- (٦) الحمصوي: الروح المعطار، ص ٧.
- (٧) عبد الحميد العبادي: المجلد في تاريخ الأندلس، جمع مادته الأستاذ/ أحمد إبراهيم الشريف، وراجعته الدكتور/ أحمد محمد العبادي، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الأولى ١٩٥٨، ص ٤٧.
- (٨) أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص ٥٥، ٥٤، تاريخ الأندلس لابن الكردوس، ص ٤٤، ٤٣.
- (٩) السيد عبد العزيز ساء: تاريخ المسلمين وأقاربهم، ص ٦٨.

دارة معارف الشعب عدد (٦٤). عن الحياة العلمية والأدبية في الأندلس، ١٩٥٩ م. ص ٢٣٤.

Pedro Aguado Bleye: Manual de La historia de España, Tomo I. Madrid, 1947. p. 357

Levé Provençal: Histoirle d' l' Espagne Musulman, vol. 11, pp. 180, 211, 212, 293.

٢- العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص ٥٤.

Saavedra: "Eduardo" Sobre La invasion de Los Arabes en España. Madrid, 1892 p. 60.

فالرواية العربية تضع المسئولية على الرجل، بينما تجعلها الرواية الإسبانية على الفتاة، وكيفما كان الأمر فإن القصة برمتها يبدو فيها الخيال بشكل واضح. ولعلها تكون من اختراع القصاص العرب، شأنها في ذلك شأن القصص العربية الأخرى. مثل قصة ابنة جرجير البيزنطي حاكم إفريقيا، والتي أوردتها ابن عذاري بأنها فتاة رائعة الجمال. وفي أثناء القتال مع القائد العربي عبد الله بن سعد بن أبي السرح، وعد أبوها بأن يزوجه من أي جندي من جنوده يستطيع أن يقتل القائد العربي عبد الله، وعندما وصل هذا الكلام إلى عبد الله وعد هو الآخر بدوره بأن يهبها لأي جندي يستطيع قتل جرجير.<sup>(١)</sup> ويقال إن عبد الله بن الزبير، هو الذي قتله، فأعطاه ابن أبي السرح ابنة الملك جرجير فأنقدها أم ولد.<sup>(٢)</sup>

وقد شغلت عملية زواج المسلمين الفاتحين بالإسبانيات. العديد من المؤرخين فمنهم من يؤيد الزواج وكثرت. باعتبار أن العرب دخلوا أفراداً، في حين أن البعض الآخر يقول أقم دخلوا مع نساءهم مثل أم حكيم زوجة طارق بن زياد التي تركها في الجزيرة الخضراء Algeciras، التي سميت باسمها، ومثل نساء موسى بن نصير اللاتي صحبنه في حملته على الأندلس. ومن المعروف أن عبد العزيز بن موسى، عندما وصل إلى إشبيلية Sevilla إرتضاها قاعدة للملك.<sup>(٣)</sup>

وكان أول من تزوج بإسبانية، إذ تزوج أرملة لزريق المعروفة بالاسم المسيحي Egilona ابنة وبالاسم العربي أم عاصم، وسكن معها إشبيلية<sup>(٤)</sup> وحذا حذوه كثير من رجال العرب، أمثال زياد بن النابغة التميمي، الذي تزوج هو الآخر من إحدى أميرات إسبانيا.<sup>(٥)</sup> وعبد الجبار بن نذير الذي تزوج من إحدى بنات تدمير.<sup>(٦)</sup> ومن أهم تلك الزيجات زواج عيسى بن مزاحم، من سارة القوطية Sara La Goda بنت الموند بن غيطشة Witiza وجاء من سلالتها المؤرخ المرطبي أبو بكر محمد بن القوطية.

وقد كان زوجها مولى هشام بن عبد الملك الخليفة الأموي، وذلك عندما سافرت إلى دمشق لتقابل الخليفة هشام، شاكية إليه عمها أوطاس بن غيطشة لاغتصابه ميراثها من أبيها. وهناك

١- ابن عذاري: البيان المغرب، جـ ١، ص ١٠.

٢- ابن عذاري: نفس المصدر، جـ ١، ص ١١-١٢.

٣- ابن عذاري: نفس المصدر جـ ١، ص ٢٣.

٤- عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم، ص ١٢٨: العبادي: الإسلام في أرض الأندلس، ص ٦٢.

٥- العبادي: نفس المرجع والصفحة أعيد العزيم سالم: نفس المرجع والصفحة.

٦- Ambrosio Huici "Miranda": Historia Musulmana de Valencia, Tomo I, 1969, p. 92.

تزوجت عيسى وعاد معها إلى الأندلس.<sup>(١)</sup> وقد رزقت سارة من عيسى بن مزاحم بولدين هما، إبراهيم وإسحاق، وقد أحرز ولداها مكانة ممتازة.<sup>(٢)</sup>

ويضيف ابن القوطية: أن عيسى بن مزاحم قبض ضياع سارة، وأنها سلمته أموالها كما كان متعارفاً عليه في الأندلس، إبان الحكم القوطي السابق على الفتح الإسلامي، ورغم أنها تعرف أن الإسلام يُسفر الذمة المالية المنفصلة للزوجة عن زوجها ويذكر الأستاذ الدكتور/ حسين مؤنس: أنها سلمته جميع أموالها وضياعها، بعد أن عاد معها إلى الأندلس. طبقاً للعادة القوطية المعروفة<sup>(٣)</sup>، والتي ماتزال متبعة إلى اليوم.

وتزوجها بعد عيسى بن مزاحم، عُمير بن سعيد، فولدت له حبيب بن عمير. جد بني سيد. وبني حجاج، وبني مسلمة، وبني حجر الجز، وهؤلاء أشراف ولد عُمير بإشبيلية.<sup>(٤)</sup> وقد ولد وابن القوطية بقرطبة وتوفي بها سنة ٣٦٧هـ / ٧٧٧م وكتب تاريخه المسمى " تاريخ افتتاح الأندلس" بالإضافة إلى كتاب آخر في اللغة باسم " كتاب الأفعال ".<sup>(٥)</sup> ولعل ما يروي من قصص حول زواج القادة المسلمين بالإسبانيات، وإن كان بعضه يتسم بالخيال، إلا أنه يعطينا فكرة عن هذه الظاهرة الاجتماعية الهامة.<sup>(٦)</sup> ولقد استمرت هذه المصاهرات بين حكام المسلمين وعامتهم والإسبان، في قصص وروايات لا تنتهي، حتى نهاية الحكم الإسلامي في إسبانيا.

وكان من عادة هؤلاء النساء الإسبانيات، أن يتخذن أسماء عربية كما سنرى عند عرض أسماء أمهات الأولاد.<sup>(٧)</sup> ولقد كان معظم أمراء بني أمية، إن لم نقل جميعهم، من أمهات إسبانيات وجلبقيات أو غالسيات، أطلق عليهن لقب أمهات أولاد.<sup>(٨)</sup> بداية من عبد الرحمن بن معاوية " الداخل " أول أمراء الأندلس، فقد كانت أمه يبربرية من سبي المغرب، وحُملت إلى الشرق،

١- ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٨، ٣١، ٣٢، العبادي: في تاريخ المغرب، ص ١٢٨، العبادي: الإسلام في أرض الأندلس، ص ٦٢، ٦٣، عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وأئامهم، ص ١٢٨.

٢- محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ج ١، ص ٦٠.

٣- حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص ١٢١، ١٢٢.

٤- حسين مؤنس: نفس المرجع والصفحة.

٥- نشر كتاب التاريخ المستشرق الإسباني جاييجوس P. De Gayangos، بينما نشر كتاب الأفعال المستشرق الإيطالي جويدي Guedi.

٦- أحمد مختار العبادي: الإسلام في أرض الأندلس، ص ٦٢.

٧- أحمد مختار العبادي: نفس المرجع، ص ٦٣، ٦٤.

٨- أم ولد: هي الحارية التي تنجب من سيدها غلاماً ذكراً، فصحت في أغلب الأحيان، ويطلق عليها لفظ أم ولد كثيرًا. ما كان يتزوجها سيدها ولا يجوز له بيعها. أو هبتها بعد ذلك.

وكانت تسمى راحاً أو رداحاً، وكانت نسب إلى قبيلة لغزة البربرية، وهم أحوال عبد الرحمن والعالمين على حمايته وإخفائه عن أعين العباسيين، في أثناء رحلة هروبه إلى المغرب.<sup>(١)</sup>

وقد أنجب عبد الرحمن بن معاوية، أحد عشر ذكراً وتسع إناث<sup>(٢)</sup> ويذكر ابن حزم في "جهرة أنساب العرب" أن عبد الرحمن بن معاوية "الداخل" بالأندلس والوالى عليها، هو وجميع ولده من بعده لأم ولد<sup>(٣)</sup> غير أنه يشير في نفس الوقت، إلى أن ابنه سليمان، من أم عربية خمية من ولد حاطب بن أبي بلعة.<sup>(٤)</sup>

ومن المعروف أن سليمان أكبر ولده، وألحبه في الشام، وكان أسن من هشام بنحو اثني عشر عاماً.<sup>(٥)</sup> والأمير هشام، هو الذي ولي بعد والده ولقب بالرضا، كانت أمه أم ولد إسبانية. بارعة الحسن تدعى "حلل" أهدتها إليه إحدى بنات يوسف الفهري أو زوجته عقب دخوله قرطبة. وهي أحب نساء عبد الرحمن إليه وأكثرهن نفوذاً لديه.<sup>(٦)</sup> وابن عذاري يذكر أن اسمها "جمال".<sup>(٧)</sup> أما الحكم بن هشام الملقب "بالرضي" فأمه أم ولد اسمها "زحرف".<sup>(٨)</sup> ويشير المصادر الأندلسية، إلى أن بني أمية، أكثروا في الإنجاب، فيذكر ابن حزم في "الجمهرة" أن عبد الرحمن الثاني "الأوسط" من الحكم الرضي كان له مائة ولد، منهم خمسون ذكراً، وخمسون أنثى.<sup>(٩)</sup> وفي رواية أخرى

١ - مجهول: أخبار مجموعة، ص ٥٦، ٥٧ ابن عذاري: البيان المغرب، ج ٢، ص ٤١، ٤٢، ابن الأثير: زهير عبد الله محمد القاضي، الحلة السواء، ج ١، ص ١٠٧، حقه الدكتور حسين مؤنس، القاهرة، ١٩٦٣ م، ج ١، ص ٣٥، القرني: فتح الطب، ج ١، ص ٣٣٣، العادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص ٩٦.

٢ - ابن عذاري: البيان المغرب، ج ٢، ص ٤٨.

٣ - ابن حزم: جهرة أنساب العرب. تحقيق عبد السلام هارون، الطبعة الرابعة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧١، ص ٩٣.

٤ - ابن حزم: نفس المصدر: ص ٨٦.

٥ - ابن حزم: نفس المصدر: ص ٩٤.

٦ - عبد الواحد التراكشي: تاريخ الأندلس المسمى المعجب، ص ١٠. ويسمى التراكشي "حوارة". القرني: فتح الطب، ج ١، ص ٣٤٠. أحمد مختار العادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص ١١٧، محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ج ١، ص ٢٢٤.

٧ - ابن عذاري: نفس المصدر، ج ٢، ص ٩٦.

٨ - ابن الخطيب: (شأن الدين أبو عبد الله محمد بن الخطيب) الإحاطة في أخبار غرناطة أربع مجلدات. حقه الأستاذ محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانكي، القاهرة ١٩٧٥. ج ١، ص ٤٧٩، عبد الواحد التراكشي: نفس المصدر. ص ١٠، ١١، القرني: نفس المصدر. ج ١، ص ٣٤١.

٩ - ابن حزم: جهرة أنساب العرب، ص ٩٨.



للمقري، مائة وخمسون من الذكور، وخمسون من الإناث.<sup>(١)</sup> وأن أمه أم ولد كانت تدعى "حلاوة".<sup>(٢)</sup> وكان عبد الرحمن الثاني كثير الليل للنساء، فكان يعقهن ويتزوجهن مثل مدثرة، وطروب، والشفاء، وفجر، وقلم، وغيرهن.<sup>(٣)</sup> وكان محمد بن عبد الرحمن بن الحكم. من أم ولد تدعى إسيهر.<sup>(٤)</sup> والمذر بن محمد بن عبد الرحمن، من أم ولد تدعى أنسل.<sup>(٥)</sup>

وقد أورد ابن عذاري، أسماء جميع أولاد الإمام عبد الله بن محمد، الذين ولدوا له قبل الإمارة، ومنهم محمد أبو أمير المؤمنين الخليفة عبد الرحمن الناصر، وكانت أمه أم ولد تدعى "ذُر".<sup>(٦)</sup> أما الخليفة عبد الرحمن الناصر نفسه فأمه جارية إسبانية نصرانية، تدعى مازيا أو "مُرْنة". حسبما تسميها الرواية العربية.<sup>(٧)</sup> أما ولده وولي عهده الحكم المستنصر بالله، فأمه أم ولد تدعى "مرجان".<sup>(٨)</sup> وقد أحب الحكم المستنصر بالله، هشاماً، الذي ولي بعده، وهو ابن إحدى عشر عاماً، وتلقب بالمؤيد بالله، وقد مات ولا عقب له.<sup>(٩)</sup>

وهشام بن الحكم، أمه أم ولد، وهي السيدة صبح البشكنسية Aurora، وكان سيدها الحكم يسميها بجعفر،<sup>(١٠)</sup> وكانت مغنية.<sup>(١١)</sup> أما عبد الرحمن شنجول Sanchuelo بن المنصور بن أبي عامر، فأمه أم ولد، أسلمت، وتسمت باسم "عبدة"، بينما أخوه عبد الملك المظفر بن المنصور بن أبي عامر، فأمه حرة تدعى "الزلفاء".<sup>(١٢)</sup> وهناك أيضاً سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد

١- المقري: فتح الطب، جـ ١، ص ٣٢٥.

٢- ابن عذاري: المصدر السابق، جـ ٢، ص ١٨٠ محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام، جـ ١، ص ٢٥٤.

٣- المقري: نفس المصدر، جـ ١، ص ٣٢٧، ٣٥٠.

٤- ابن عذاري: نفس المصدر، جـ ٢، ص ٩٣، محمد عبد الله عنان: نفس المرجع، جـ ١، ص ٢٨٩.

٥- ابن عذاري: نفس المصدر، جـ ٢، ص ١١٣.

٦- ابن عذاري: نفس المصدر، جـ ٢، ص ١٥١. وراجع أيضاً أسماء جميع أولاد الإمام عبد الله بن محمد في نفس المصدر.

٧- ابن عذاري: نفس المصدر، جـ ٢، ص ١٥١. عنان: نفس المرجع، جـ ٢، ص ٣٧٣.

٨- ابن عذاري: نفس المصدر، جـ ٢، ص ٢٣٣.

٩- ابن حزم: المصدر السابق، ص ١٠٠.

١٠- كلمة جعفر: معناها القوي الناقة الكثيرة الخلب، أو النهر، أو الجود والعطاء، ولعل ذلك راجع إلى ألفا أنيحت له ولياً للعهد، وابنه الوحيد هشام في آخر حياته.

١١- ابن عذاري: نفس المصدر، جـ ٢، ص ٢٥٢. عبد الواحد الأراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص ١٤.

١٢- محمد عبد الله عنان: نفس المرجع، جـ ١، ص ٦٠٨.

الرحمن الناصر الملقب بالمستعين بالله، فكانت أمه أم ولد تسمى " طيبة " <sup>(١)</sup> ويحيى بن علي المعنلي فأمه " ليونة " بنت محمد بن الحسن... إلخ. وقد اهتم عبد الواحد المراكشي بذكر نسبها، إلى أن أوصله لسيدنا علي بن أبي طالب عليه السلام ويبدو أنها كانت ذات شأن كبير، جعل المراكشي بهمهم بالإيراد نسبها كاملاً <sup>(٢)</sup> ونذكر أيضاً سليل الأدارسة، الشريف علي بن حمود الحسني، الذي كانت أمه بنت عم أبيه وأسمها " البيضاء " <sup>(٣)</sup>.

وإلى جانب ما أوردناه، من زيجات مختلطة بالإسبانيات، فقد كانت هناك عمليات زواج داخل نطاق الأسرة الحاكمة، مثال ذلك الأمر بالحكم " الربضي " بن هشام، الذي فرض على عمه عبد الله البقاء في بلنسية، عقب إخماد ثورته، إلا أنه استدعى ابناته إلى العاصمة، وزوجهم من بناته. ويبدو أن الهدف من هذا الزواج، هو الحفاظ على صلة الدم وروابط العائلة الحاكمة. <sup>(٤)</sup>

وتحدثنا أيضاً كتب التراجم الأندلسية عن زواج عدد كبير من العلماء والقضاة ورجال الدين، بنساء إسبانيات، نذكر منهم على سبيل المثال

زواج الوزير الشاعر ثمام بن علقمة (ت ٢٨٣هـ) من ابنة رومانوس لومس جنوب إسبانيا، على أيام القوط، وزواج المؤرخ ابن خلدون، حينما زار الأندلس سنة ٧٦٤هـ / ١٣٦٣م بقناة إسبانية تدعى " هند " <sup>(٥)</sup>.

أما عن المصاهرات، التي حدثت بين المسلمين وأميرات الفرنجة، نذكر ذلك الزواج، الذي تم بين مونية البربري، وكان أحد قواد المسلمين في حرومهم فيما وراء البربات، وبين ابنة دوق أودو Odo حاكم إقليم أكييتانيا Aquitaine، وكانت تدعى لامبيجة Lampégie. أو مين Minine، فأعجبه جمالها وتزوج منها. <sup>(٦)</sup> ثم رأي مونية بعد ذلك ابنة القائد بلاي Peloy فأخطبها وتزوجها، فغضب عليه فقتله عبد الرحمن الثعالفي، وطارده إلى أن سقط من قمة جبل ومات،

١- ابن عذاري: المصدر السابق، جـ ٣، ص ٩٦، المراكشي: المصدر السابق، ص ٢٤

٢- المراكشي: نفس المصدر، ص ٣٠.

٣- ابن عذاري: نفس المصدر، جـ ٣، ص ١١٩.

٤- أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص ١٢٨.

٥- العبادي: الإسلام في أرض الأندلس، ص ٦٤، ٦٥.

وقد أرسل ابن الخطيب الوزير الثعالفي، لصديقه ابن خلدون، قصيدة يهنت فيها بزواجه، بل إن الوزير الثعالفي نفسه، حينما كان مقيماً بالمغرب، فسيل هذا الوقت بطليل (٧٦٠هـ - ٧٦٣هـ) طلب من سلطان المغرب، أبي سالم المريني أن يهديه جارية إسبانية. العبادي: نفس المرجع، ص ٦٤، ٦٥.

٦- عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم، ص ١٤١، هامش (٢).

وأرسلت زوجاته إلى الخليفة الأموي بدمشق، فضمنهن إلى حريمه، وهذه القصة لم ترد في المصادر العربية، ولكنها من القصص والشعر الشعبي الإسباني المعروف بـ *Romancero*.<sup>(١)</sup>

ورغم أن مونوسة البربري، مات بعد حياته للقائد والحيش، إلا أن المؤرخ الفرنسي جيشار Guichard يُضيف عليه نوعاً من البطولة. إذ يذكر أنه مات وهو يحاول منع زوجته الشابه Lampégie من الوقوع في أسر المسلمين، بعد أن قام بثورة ضد نظام الحكم. وأن زوجته المذكورة، وقعت في أسر المسلمين، بعد وفاة زوجها دفاعاً عنها ونُقلت إلى الشام لتضم إلى حرم الخليفة، ونراه لا يذكر أي إضافة عن اختطاف ابنة القائد بلاي، ومخالفة تعاليم القائد.<sup>(٢)</sup> كذلك نذكر الأميرة " زائدة للسلمة " *Zaida La Mora* زوجة المأمون بن المعتز بن عباد، التي هربت إلى قشتالة، بعد مقتل زوجها على يد المرابطين، عند دخولهم قرطبة فنزوها ملك قشتالة وليون الفونسو السادس، وأُحب منها ابنه الوحيد سانتشو الذي قُتل في موقعة إلفيش Ucles أمام المرابطين سنة ٥٠٦ هـ / ١١٠٨ م. وتشير الرواية إلى وفاة أمه " زائدة " بعد ولادته، وإلى وفاة أبيه الفونسو بعد مقتله.<sup>(٣)</sup>

وكذلك نرى الثالث البربري الأصل محمود بن عبد الجبار المصمودي الذي أعلن الثورة في بلدة ماردة سنة ٢١٣ هـ - ٨٢٨ م ضد الأمير عبد الرحمن الأوسط، واضطر بعد أن هُزم إلى اللجوء إلى جليقية Galicia حيث مات وبقيت أسرته هناك حيث تزوجت أمته " جميلة " التي اشتهرت بمحاضا وفروسيها، بأحد قوامسة أي حكام جليقية وأُحب منها ولداً أصبح فيما بعد أسقفا (أو القديس يعقوب) على مدينة شتياق Santiago de Compostela كبرى كنائس إسبانيا النصرانية.<sup>(٤)</sup> ورغم هذه الزيجات المختلطة من كلا الجانبين، فقد كان بعض القادة المسلمين يفضلون المرأة العربية المعروفة النسب، وخاصة ذات الجذور الشرقية، وكان الأبناء نتاج هذا الزواج المشرقي، يهاجرون مفاخرة خاصة بالأندلس بأنهم من أصول معروفة.

ويذكر المقرئ أيضاً: أن زياد بن عبد الرحمن بن زياد اللخمي المعروف " بشيطون " في أثناء رحلته إلى المشرق. تزوج ابنة معاوية بن صالح.<sup>(٥)</sup> وقد كان شرفاً عظيماً للرجل أن يكون أبوه عربين. فيذكر ابن عذاري أن المنصور بن أبي عامر، لما كان أبوه عربين حاز الشرف من طرفيه. والتحف بطريقه.

١- العبادي: الإسلام في أرض الأندلس، ص ٦٢.

٢- Pierre Guichard: Structures Sociales Orientales et Occidentales dans L'Espagne Musulmane, paris, 1977, p106.

٣- أحمد مختار العبادي: نفس المرجع، ص ٦٣، ٦٤.

٤- أحمد مختار العبادي: نفس المرجع والصفحة.

٥- المقرئ: فتح الخبيب، ج ٢، ص ٤٥.

وقال الشاعر ابن دراج اللسلي (طويل) شعراً يوضح المعنى السابق جاء فيه:

تَلَّلت عليه من غيمٍ وعُربٍ  
شموسٌ تَلَّلتُ في العِلا ويُدَوِّرُ  
من الحميرين اللذين أكلهم

سحابٌ قمي بالندى ويُحَوِّرُ<sup>(١)</sup>

ونتقل بعد ذلك للحديث عن دخول العرب إسبانيا، وهل دخلوها على شكل جنود عسكريين فقط، أم على شكل جماعات وقبائل من الرجال والنساء؟

فقد ألبرت حوفا مناقشات عديدة، لانقسام المؤرخين وبخاصة المستشرقين إلى قسمين. ما بين مؤيد ومعارض. والقسم الأول يرى أن العرب دخلوا إسبانيا أفراداً دون أسرهم، ويتزعم هذا الرأي المستشرق الإسباني ريبيرا Ribera. ويقول: إن العرب كونوا أسرهم بعد نزولهم إسبانيا واستقرارهم فيها عن طريق الزواج والتسري بالإسبانيات.<sup>(٢)</sup>

ويؤيد ريبيرا في هذا الرأي الأستاذ الدكتور/ حسين مؤنس. فيقول: ينبغي أن نلاحظ أن جميع العرب، الذين دخلوا الجزيرة، دخلوها رجالاً بدون نسايتهم، ثم اتخذوا النساء من أهل البلاد، وقد توسعوا في ذلك فكتوت نساؤهم وكثر عياهم أيضاً.<sup>(٣)</sup> ويستمرسل الدكتور/ مؤنس في عرض وأيه فيقول: أن العرب سواء البعثة أو القيسية. عندما كانوا يولون بلدا ما في الأندلس، قائم يولون أفراداً دون أسرهم، ثم يقبلون بعد ذلك على الزواج أو التسري بنساء ذلك البلد من الإسبانيات، وبحرور الزمن يولفون أسرات، قد تترك أسماها على اسم البلد وعلى هذا النحو فإن الأجيال الناجية من هذه الزيجات، لا يمكن أن تكون عربية خالصة من حيث نقارة الدم.<sup>(٤)</sup>

١- ابن عذاري: البيان للعرب، ج ٢، ص ٢٧٤.

٢- Ribera y Tarrago (Julian): El Cancionero de Aben Cuzman, Madrid, 1928, pp. 34, 35.

٣- حسين مؤنس: فجر الأندلس، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٥٩، ص ٣٦٥.

وقد قامت الأستاذة الدكتورة/ سحر سالم بعمل دراسة شاملة حول ظاهرة الزواج المختلط في الأندلس وهي دراسة قيمة، أضاعت لي الكثرة من النقاط الفاصلة، وأعانتني على معرفة أعمال كثير من المستشرقين وآراءهم ممن تناولوا هذا الموضوع.

راجع سحر سالم: مظاهر الحضارة في بطليوس. رسالة دكتوراه، نوقشت بآداب الإسكندرية، سنة ١٩٨٧، ص ١٦٥ وما بعدها. وبخت عن الزواج المختلط في الأندلس، ص ٥، ٤ ... إلخ تحت الطبع.

٤- حسين مؤنس: المرجع السابق، ص ٣٧٦، ٣٧٧، القاهرة مكتبي: دراسات عن ابن حزم، ص ٣٠.

والحقيقة لا أعرف لماذا أقتصر الأستاذ الدكتور/ حسين مؤنس على ذكر العنصر العربي فقط، في حين أن المعروف بأن العنصر المغربي أو البربري، فاق العنصر العربي بأعداد كثيرة في عملية الفتح.

ولقد كان المستشرق الإسباني/ خوليان ريبيرا من أشد المحمسين لغربة الحضارة الإسبانية، وينفذ من المرأة وسيلة في المحافظة على هذه الغربة ضد الغزو العربي المشرقي. فيذكر ريبيرا أن الفاتحين المسلمين قد ذابوا في الوسط الإسباني بسرعة، بسبب كثرة زواجهم من الإسبانيات، مما حول الطبقة المؤيدة إلى طبقة إسبانية حقيقية.<sup>(١)</sup> وقد أصبح الزواج من الإسبانيات تقليداً شائعاً عند أهل الأندلس أمثالهم وعملاتهم خاصتهم وعامتهم، ومن أمثلة ذلك زواج امرأة بني أمية في الأندلس من نساء البشكنس والجلالقة، ممن يقعون في أيديهم سبياً بسبب الحروب المتواصلة والغزوات المتتابعة، إلى حد أن كثيراً من الباحثين المعاصرين يعتبرون البيت الأموي بيتاً مولداً، وأن هؤلاء الأمراء كثيراً ما يعتزون بأصولهم العربية ويتغاضون عن أصولهم الإسبانية.<sup>(٢)</sup>

ويبدو واضحاً تحيز ريبيرا للحضارة الإسبانية في الأندلس، حيث نراه يُستأخر بأن العرقية الإسبانية، أوضحت مجلاء في ذلك الوقت الصبغة الوطنية التي تجرّت بها دون سائر الأمم الغريبة.<sup>(٣)</sup>

ورغم هذا التحيز الواضح من ريبيرا، إلا أننا نقول بأن الحضارة الإسلامية في إسبانيا صُنعت في المقام الأول بأيدي عربية أندلسية، مع الأستراج والخلط الذي أخرج مزيجاً ومذاقاً جديداً من تلك الحضارة.

إلا أن ريبيرا ينفي دائماً وجود العنصر العربي، والتأثير الذي وضعه في إخراج هذا المزيج الفريد، ومن أنصار الرأي الأول أيضاً المستشرق الإسباني سانشيث البورتوت Sanchez Albornoz والذي يقول بدأت سلسلة الزواج المختلط عقب الفتح الإسباني مباشرة، فقد بدأها أمراء بني أمية، وأولهم الأمير عبد الرحمن بن معاوية، أول أمير أموي في قرطبة، إذ تزوج وتسرى ببيلات وجواري إسبانيات، جاء من ثم رفقهم الجدد الإسبان.

وأيضاً زواج سارة القوطية Sara La Goda حبيدة غيطشة Witiza فأصبح الانباء على حد تعبير البورتوت Hispano-arabe \* أسبان- عرب \* أي مختلطين، بل ويعتقد أنه بعد مرور قرنين على الفتح الإسباني، وكثرة السري والزواج بالإسبانيات، ضاع الدم العربي، وأصبح الانباء أسباناً،

١- Ribera : EL Cancionero . 10 Guichard :op cit . p142.

٢- سحر سالي: بحث عن الزواج المختلط، ص ١. تحت الطبع

Ribera y Tarrago( julian ): EL Cancionero de Abn Cuzman. Madrid 1928. p10, Guichard: op. cit. p 142.

Ribera y Tarrago: Disertaciones y Opusculos. Tomo I. p.350

ويضرب مثلاً بسارة القوطية، التي استطاعت أن تحافظ على استمرار الدم الإسباني في نسلها المولد، وسلالتها الممتدة.<sup>(١)</sup>

ومن أنصار الرأي الأول أيضاً هنري بيرس Heneri Pérès عندما تناول المرأة في الأندلس في فصل كتابه من كتابه " الشعر الأندلسي في القرن الحادي عشر الميلادي " والذي ترجمه الأستاذ الدكتور/ الطاهر مكي. تحت عنوان " الشعر الأندلسي في عصر الطوائف ".

والفصل جاء تحت عنوان " المرأة والحب " ويؤيد فيه بيرس دخول العرب الأندلس أفراداً دون أسرهم، واضطرتهم الحاجة إلى تكوين أسر من الإشبانية، واتخاذ عشيقات " يقصد سراري " من نساء إسبانيا وبعد عدة أجيال امتزجت الدماء العربية بدماء أصحاب البلاد الإسبان، وكانوا من الظاهر بحكم دينهم ولغتهم يظهرين كعرب، وإنما في الباطن والواقع كانوا إسباناً.<sup>(٢)</sup>

ويستعمل بيرس في عرض الصورة، بأنه إذا كان الجانب الأكبر من الشعب قد نسي أصوله العرقية، ولم يكن يهتم كثيراً بمعرفة الأنساب، فقد كان الأمراء على النقيض، يحاولون أن يرتفعوا بأنسابهم إلى جدودهم الأولين، ليبرهنوا على نقاء دمهم العربي، ونفوذهم السياسي، ولم يردد الشعراء الذين درسوا الأنساب العربية أيام طلبهم العلم، في استخدام معارفهم، والعرف على هذا الوتر الحساس.<sup>(٣)</sup>

أما الرأي الثاني والذي يتادي بدخول العرب أسرهم، فيمثل المستشرق الفرنسي جيسار Guichard. فيرى أن المسلمين دخلوا الأندلس بأسرهم وأن القول بدخول العرب والبربر الأندلس أفراداً، يعتبر خطأ كبيراً، إذ على أساسه لا يتم انصهار بين الغاليين والمغلوبين، وتذكر الأستاذة الدكتور/ سحر سالم أن جيسار بالغ في تصوره، بأن العرب استطاعوا أن يحافظوا على هياكل أنسابهم. عن طريق الزواج من بعضهم البعض، صحيح أن بعض العرب، صاهروا بعضهم البعض، حفاظاً على نقارة الدم، لكنهم صاهروا المغلوبين أيضاً من أهل البلاد.<sup>(٤)</sup>

ويؤكد ابن خلدون: هذا نفعي والاتجاه في الحفاظ على نقارة الدم يقول: أن الفصل بين البدو والرحل، وبين العالم الخارجي، هو الضامن الأكيد لعدم تلوث الدم، نتيجة هذا القسرة المفروض،

١- Sánchez Albornoz "Cludio": La España Musulmana, Buenos Aires, 1946. Tomo I, p 66. Guichard: op. cit., p142.

٢- Heneri pérès: La poésie Andalouse en arabe Classique au XI<sup>e</sup> siècle. Paris, 1953. pp 397, 399, 400.

هنري بيرس: الشعر الأندلسي في عصر الطوائف، ص ٢٣١.

٣- هنري بيرس: نفس المرجع. والصفحة.

٤- سحر سالم: مظاهر الحضارة في بطنوس. ج ٢، ص ٨٥. ١٦٥.

مع العصر الأجنبي عن العشرة<sup>(١)</sup> وأعتقد أن رأي ابن خلدون - وإن جابه الصواب - يمكن أن يطل على نطاق القبائل والعشائر البدوية المحددة المغلفة، وإغا في مجتمع مفتوح. كاجتماع الأندلسي، تأتيه الخواري والخصيان من شتى بقاع العالم المعروف حينذاك، فمن الصعب جداً الحفاظ على نقاوة الدم. ورغم هذا حاول الكثيرون، من أمراء بني أمية، إبراز هويتهم العربية دائماً بقدر ابتعادهم عن هويتهم الإسبانية، وحاول بعض المؤرخين البارزين أيضاً، إبراز تلك الهوية. ونأخذ هذه الانطباعات من خلال كتاباتهم ونذكر منهم.

"ابن القوطية" و"ابن حيان" و"ابن حزم" فهم لا يفخرون كثيراً بكونهم ينتمون إلى الإيبان عن طريق الأم.<sup>(٢)</sup> وقد توصلت الأستاذة الدكتور/ سحر سالم إلى نتائج هامة لتلك الظاهرة، وهي ظاهرة الزواج المختلط في الأندلس، وأعتقد أنها أنسب النتائج لتفسير تلك الظاهرة، وهي أن ظاهرة زواج الفاتحين العرب والبربر بالإسبانية، كانت تراكب في الوقت ذاته ظاهرة زواجهم من مسلمات عربيات أو بربريات "مغربيات" ومساعد على شيوع ذلك، تقبل المسلمين لبدا تعدد الزوجات، إيماناً إلى الشريعة الإسلامية التي تبيح الزواج والسري، وأن الفاتحين المسلمين دخلوا الأندلس أفراداً وجماعات في آن واحد، وخاصة كبار القادة منهم.<sup>(٣)</sup> فقد اصطحبوا أسراهم رغبة في الاستقرار، وأيضاً لعدم معرفتهم باللغة التي تأخذها عملية الفتح، ولحاجتهم إلى نسايتهم وذرائعهم.<sup>(٤)</sup> والأمثلة التي ذُكرت في المصادر الإسلامية حول هذا المعنى، وإن كانت ليست بالكثرة، فقد ذُكر بعض كبار القادة فقط "كطارق بن زياد" و"موسى بن نصير" هي ما جعلنا لمؤيد الرأي الذي يقول أن العرب نزلوا الأندلس أفراداً وجماعات في آن واحد. فلايد أن كثير من كبار القادة، قد اقتدوا بهم في اصطحاب أسراهم في أثناء عملية الفتح.

هذا ويقودنا الحديث عن زواج المرأة الأندلسية. إلى مناقشة الآراء التي أثرت حول حريتها. فقد تعددت الأقاويل حول حرية المرأة الأندلسية. وكالعادة انقسم الباحثون ما بين مؤيد ومعارض. والمؤيد يريد أن يوضح بجلاء مدى تأثير العرب الإيباني، على حرية المرأة الإيبانية المسلمة. والمعارض يريد أن يوضح، مدى محافظة إن لم يقصد تزم الإسلام والمسلمين في المحافظة عليها. وسنعرض كل رأي على حدة.

١ - ابن خلدون: "المقدمة" دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٢م. ص ١٣٨، ١٣٩.

٢ - Guichard: op. cit, p 142.

٣ - راجع المقدمة عن الدراسة التمهيدية، وكيف تواجد العصر النسائي على مسرح الأحداث في الأندلس، ص ١١ وما بعدها.

٤ - سحر سالم: مظاهرة الحصار في بطليوس، ص ١٧٦.

سحر سالم: وبعت عن الزواج المختلط، ص ٧.

أولاً: من أبرز المؤيدين لحرية المرأة الإسبانية المسلمة هنري بيرس Henari Pères. ففي القصة الخاصة بـ"المرأة والحب" في كتابه الشعر الأندلسي في القرن الحادي عشر، يرى بيرس أن المرأة قد نالت قدراً كبيراً من حرية الحركة والعمل والثقافة، ولعبت دوراً هاماً يفوق ما لعبته نظيراتها في المشرق، وأن المرأة الأندلسية، لم تكن سجناء بيتها، كما هو متبع في العادات الشرقية.<sup>(١)</sup> وينقل جيشار Guichard تلك الآراء أيضاً عن بيرس ويضيف أيضاً: بأن المسلمين في إسبانيا، يتركون للمرأة حرية غريبة للسفر في الطرقات، من الصعب التوفيق بينها وبين الآداب الإسلامية، وأن ما يُمنح لها من احترام، إنما ينبثق من المعتقدات الإسبانية بصورة واضحة.<sup>(٢)</sup> ويؤيد بيرس في هذا الاتجاه سانشيث البورنث Sanchez Albormoz، في أن حرية المرأة الأندلسية، مشبعة بمجذور وإيماءات غربية، بل ومسيحية أيضاً، ويتضح هذا في ظل الدور الذي تلعبه المرأة الإسبانية في تكوين العصر الأندلسي.<sup>(٣)</sup>

ويؤكد البورنث على تميز المشاعر العاطفية للمرأة الأندلسية، مستشهداً على ذلك بتدعيم فكرته، بمعظم شعراء الأندلس، الذين تربوا تربية إسبانية لأمهات أندلسيات، مثال ابن زيدون، وابن اللبانة، وابن حزم، وأن لديهم مفهوماً غريباً للحب، نابعاً من البيئة الأوربية الغربية، بل والمسيحية أحياناً، التي عاشوا فيها.<sup>(٤)</sup> أما الرأي الثاني والمناادي بتشدد البيئة الإسلامية على المرأة، بصرف النظر عن المكان شرقاً أو غرباً، فيزعمه المستشرق الإسباني ريبيرا Ribera وتشدهد تجاه المرأة جاء في التجهيز، أو نقطتين، وضعها أو مكانتها، ودورها، فهو يؤكد أنه لم توجد بارقة ضوء لانتشارها من الوضع المزري والفردي، الذي وجدت فيه، فهي تساوي الخدم في المرتبة لدى رب البيت، وانحصرت وظيفتها في إرضاع الأطفال. وكانت حياتها تخضع ببطء كتيبة، لدور كلها في تلك مزاج زوجها، وإرضائه. فقد كانت محبوسة ومعزولة، ولا ترى العالم الخارجي أبداً.<sup>(٥)</sup> ويرجع ريبيرا أسباب تدني وضع المرأة، إلى أن النساء كن ضعف عدد الرجال، وأن طبيعتهم لا تؤهلهم لممارسة الأعمال، التي يقوم بها الرجال، ويرضون دائماً بالنصاف الأعمال، والتي تكون غير ضرورية.<sup>(٦)</sup> وما ذكره ريبيرا فيه إجحاف كبير لدور المرأة بصفة عامة، والمرأة الأندلسية بصفة خاصة. فلو تصفح ريبيرا صفحات كتاب التاريخ الخاص بالمرأة الأندلسية جيداً، وخاصة صفحات الأدب النسائي الأندلسي، المعروف بما لا يدع مجالاً للشك، أن هذا الأدب الواقع، لا يمكن أن يخرج من نساء مضطهدات، ومكبوتات، بل يخرج من نساء هن عقول صافية عامة بكل ما يجري حولها، ومشاركة

Henari Pères: La Poésie, p 13.

Guichard: Structures Sociales, p 125.

Guichard: op. cit, p 165.

Guichard: op. cit. p. 165.

Ribera: Disertaciones y Opusculos. Tomo I, p 348.

Ibid: p 348.

-١-

-٢-

-٣-

-٤-

-٥-

-٦-



لهجرات الأمور ومن الآراء التي أخذت أيضاً مبدأ تأثير البيئة الأندلسية على حرية المرأة، ما ذكره تشارلز أوبرون Charles Aubrun الذي عصى للمرأة الأندلسية، فضلاً مستقلاً بذاته، عندما أرخ للمرأة في العالم الوسيط.

فيقول: إن دعاء المسلمين تصهت مع دعاء المسيحيين، فذابت المؤثرات الشرقية الضعيفة، أمام تيار التأثير الإسباني الغربي القوي.<sup>(٢٢)</sup> أما أكثر الآراء اعتدالاً في عرض هذا الموضوع، فهو رأي الفرنسي جينار: الذي يذكر أن التضارب كبير بين الدراسات التي تناولت وضع المرأة الإسبانية المسلمة، وآثر الغرب في وضعها وحربيتها، وإنما اكتسبت قدراً أكبر من الحرية في الأندلس، بالمقارنة بالشرق، مستمدة ذلك من البيئة المحلية، مع المحافظة على تقاليد الإسلام.

وعكسنا القول بصفة عامة، أن المرأة الأندلسية المسلمة، لم تنكسر لجنودها. وقد تمكنت من الإنصاع لأحكام وقوانين الإسلام، دون أن تتخلى عن عادات الحرية والاستقلالية المتوارثة من البيئة المحلية الأوربية.<sup>(٢٣)</sup> والواقع أن هذا الرأي هو أقرب الآراء للصواب، فالمرأة الأندلسية لم تفل الحرية المفرطة، والتي يشهدها بروس، واليورنت بالإغصالية، ولا الكبت المفرط، الذي يشهده ريبيرا بمرجة الحلم، وإنما في رأيي، أن المرأة الأندلسية كان عندها استعداداً فطرياً، لتقبل مبادئ الإسلام، والتي لم تدعوا مطلقاً إلى سجن المرأة، وعزلها عن الحياة، وإنما اغتافطة عليها، وعدم ظهورها بشكل غير لائق، يسي إلى سمعة الإسلام، والمسلمات.

وفي نهاية تلك النقطة أستعر تلك الكلمات التي وردت في رسالة الأستاذة الكتورة/ سحر سالم. التي تقول فيها: " لسنا هنا بصدد الدفاع عن المرأة، فلتك قضية محسومة، لأن الإسلام كرم المرأة، ورفع من شأنها، وعوضها عما كانت تعاني من ظلم واحتقار في الجاهلية، فإذا كان الإسلام قد ساوى بين الأجناس، فلا فرق بين أسود وأبيض، ولا عربي ولا عجمي، ولا عبد ولا سيد، إلا بالتقوى، فلا شك أن الإسلام قد أنصف المرأة على هذا النحو، وحفظ لها كرامتها واعتبارها."<sup>(٢٤)</sup>

## كتاب التمهيد لدراسة المرأة في الإسلام

١- سحر سالم. بحث عن الزواج المخطوط، ص ٢٢.

Charles Aubrun: La Femme au moyen âge en Espagne Vol. II, p 165 – 186.

Guichard: op. cit, p 683.

٢-

٣- سحر سالم. مظاهر الخطابة في بطيوس، ص ٢٤٢.

ثانياً: التسري بالإماء والجواري عن طريق السبي.

عُرف التسري بالإماء والجواري منذ صدر الإسلام، فقد تسرى رسول الله ﷺ بجارية بنت شمعون المبطية، وبجارية بنت سعد القرطبية، وهي من بني قريظة.<sup>(١)</sup>

ولقد ارتفع الإسلام باتباعه إلى دولة الإنصاف للرفيق، ووضع في مكانه لم تبلغها الإنصاف بآدابها وقوانينها ودساتيرها وأنظمتها، بعد أكثر من ألف سنة.<sup>(٢)</sup> وكانت غزوات المسلمين كثيرة، يجمعون فيها الكثير من السبايا، ومن أشهر ما ورد حول هذه الغزوات، غزوات المنصور بن أبي عامر، والتي كان يجمع فيها غنائم وسي كثير، ويذكر دوزي Dozy أنه في إحدى غزواته، عاد إلى قرطبة بجزء من غزواته والسبايا، فاستمال قلوب العامة والخاصة.<sup>(٣)</sup>

وقد كسب المنصور شعبية كبيرة لدى المسلمين، وذادت هيبة وسطوته في داخل البلاد وخارجها، وذاع صيته في كل مكان، ومن مظاهر ذلك قول عبد الواحد المراكشي: أن المنصور ملأ الأندلس غنائم وسبياً من بنات الروم، وأولادهم ونسائهم، وبلغني أنه نودي على ابنة عظيم من عظماء الروم بقرطبة، وكانت ذات جمال رائع، فلم تسأب أكثر من عشرين ديناراً عامرية. وفي هذا المعنى يروي ابن عذاري: أنه عقب وفاة المنصور، خرج الناس صائحين مات "الجلاب" أي الذي غمرهم بالسبايا والنعم.<sup>(٤)</sup>

وكان عدد الجواري كبيراً، ويتمين إلى جنسيات مختلفة، ومن مناطق متنوعة في الأندلس، فمنهن القادمات من قذالونية أو الياسك أو جليقية أو جنوب فرنسا، ويطلق عليهن في المصادر القديمة

١- الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٢١٦.

ويبدو من نص الطبري: أن الإسلام لم يجرم على رجائه التسري بالجواري، بصرف النظر عن ديانتهم، فكما هو واضح من هذا النص، كانت الأولى نصرانية، والثانية يهودية، ولم يصادفنا نص حول هذا الموضوع، نفهم منه تغير أي منهن لديانتها.

٢- ابن عبد ربه: طبائع النساء ص ٨٤.

٣- Dozy: Histoire des Musulmans d'Espagne, Vols II, p 213.

٤- ابن حزم: (أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي)، طوق الحمامة في الألف واللاف، ضبط نصه وحرر هوامشه. الأستاذ الدكتور / الطاهر أحمد مكي، دار المعارف ١٩٨٥، ص ٤٨. ابن عذاري: البيان المغرب، ج ٣، ص ١٩ أحمد مختار العادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص ٢٥٠. إميل غروسه غومت: " الشعر الأندلسي بحث في تطوره وخصائصه " ترجمة الأستاذ الدكتور / حسين مؤنس، القاهرة ١٩٥٢، ص ١٧.

اسم "الفرنج" وكن مرغويات ومحويات لياض بشرق وشقرة شعرهن، ويمثلن الأغلبية إلى جانب قلة من الصقليين.<sup>(١)</sup>

ويذكر: إميليو غرسيه غومت: أن أمراء بني أمية الأندلسيين، كانوا يقضون الشقراوات، ويصور لنا ذلك كله أبو عبد الملك مروان بن عبد الرحمن بن مروان بن الناصر الملقب "بالطليق" في مجموعة من أبيات الشعر، وتوضح تفصيله للشقراوات، ويمثلن "بالنير أي الذهب" ويعيب غومس على العصر العربي، إستعماله بالمرأة؛ بل كلنا صورتيها "حرة أم جارية" في أنه لم يهتم بالجانب النفسي من حياتها، وأنه لم يستشعر من جمالها إلا الجانب الحسي الملموس فقط، وأقم أسرفوا كثيراً في التغزل بالجانب الحسي، ووصف الجسم الجميل، وتشبيه بالدر والياقوت، التي عثروا عليها في كل رياض اللغة.<sup>(٢)</sup>

وقد أكثروا الحديث في المواصفات، التي كان يحبها الرجل في الجارية. أو المرأة بصفة عامة: فمن أشهر الأقوال حول هذا الموضوع، ما ذكره "عبد الملك بن مروان" من أراد أن يتخذ جارية للخدمة فليتخذها بربرية، ومن أرادها لتولد فليتخذها فارسية، ومن أرادها للخدمة فليتخذها رومية.<sup>(٣)</sup>

وفي هذا المعنى يقول الأصمعي: بنات العم أصبر، والقرائب أنجب، وما ضرب رؤوس الأبطال كابن الأعجمية.<sup>(٤)</sup>

ويبدو لنا بوضوح، من هذا النص الصريح الواضح، على براعة أبناء السراي والجوازي، وخاصة غير العجميات، أي المجلوبات من بلاد الفرنجة، والعلاقات التي لا يكون فيها صلة قرابة بين الرجل والمرأة، تؤدي إلى نتائج طيبة في تحسين مستوى النسل "أي الذرية" شكلاً وعدداً.<sup>(٥)</sup> وكثرت أعداد الجوازي بصورة كبيرة في قصور الأمراء والخلفاء، وقد نال الأمير عبد الرحمن الثاني "الأوسط" نصيب الأسد في القتالهن، والكثرة منهن.

١- الطاهر أحمد مكي: "دراسات عن ابن حزم وكتابه طرق الحمامة" الطبعة الثالثة ١٩٨١، ص ٣٠. والصقليين: جن من يأتى من المنطقة السلافية، وهم سكان المنطقة الممتدة من بحر قزوين شرقاً إلى البحر الأدرياتي غرباً. وكانت في العصور الوسطى تسمى بيلغاريا العظمى، ولقد ذابت بعض القبائل الجرمانية على سبيل تلك الشعوب السلافية، وبع رجلاً نسلها إلى عرب إسبانيا، ولذلك أطلق العرب عليهم اسم الصقلية. ثم توسعوا في استعمال اللفظ، فاطلقوه على سبي أي أمة مسيحية<sup>(١)</sup> أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص ٢١١.

٢- إميليو غرسيه غومت: الشعر الأندلسي، ص ٤٨، ٤٩.

٣- ابن قيم الجوزية: إخص الدين أبو عبد الله محمد الدمشقي أخبار النساء، تحقيق الدكتور نزار رضا، بيروت ١٩٨٥، ص ١١١ ابن عبد ربه: طبائع النساء، ص ٤٣.

٤- ابن عبد ربه: نفس المصدر، ص ٤٤.

٥- هنري بروس: الشعر الأندلسي، ص ٢٥٦.

ويظهر لنا ذلك من خلال كتابات المؤرخين، وذكرهم لبله إلى الجوّاري والاستكثار منهن. فيذكر ابن سعيد الأندلسي: أن عبد الرحمن كان مولعاً بالنساء ولا يتخذ منهن ثياباً<sup>(١)</sup> أبداً.<sup>(٢)</sup>

ومن شدة ولعه بهن، وقع على جارية في رمضان، ولم يصبر عنها وطلب "الثياب" من القاضي. فالتفت يحيى بن يحيى الليثي: بأن يصوم شهرين متتابعين كفارة هذا الخطأ، ولم يختار له الحل الثاني، وهو العتق حتى يُصعب عليه الحل، لكي لا يعود لثلاثها ثانية.<sup>(٣)</sup> وقد أسبق عبد الرحمن الأوسط القياني المدرّبات من المدينة، مثل قلم، وفضل، وعلم، وأنشأ هن داراً ملحقة بالقصر، عرفت بدار المدنيات، وفضل، وعلم، كانت كلأهما أسيرة لديه، لجودة غناتهما ورقة أدبهما، وقلم كانت أندلسية الأصل، سببت صغيرة، وراست إلى المشرق.

وتنقلت أصول الغناء في المدينة، وكانت تمتاز على ميلاتها، بطلاقة واسعة، وأدب ورواية للحديث.<sup>(٤)</sup> ومن جارياته أيضاً مؤمرة، وطروب.<sup>(٥)</sup> أم ولده عبد الله وضرها فجر، وعجب، جارية أبيه الحكم الربضي ومحظية، والشفاء، وفلة، وغزلان.<sup>(٦)</sup> وقد كانت جواريه هن شهرة كبيرة، ومعروفات للناس بأسمائهن.<sup>(٧)</sup> وقد حشّن هؤلاء الجوّاري في عاصمة إسبانيا الإسلامية جواً مهذباً. إن صح التعبير مطبوعاً بطابع المشرق.<sup>(٨)</sup>

فقد كن يحملن من ضروب العلم والتقى والحضارة الكثير، فقد نقلن شعر بغداد إلى الأندلس، وأنعام المشرق التي جاءت مع قمر والعجفاء، ولنا معهم وقفة في دور المرأة في الغناء والموسيقى.<sup>(٩)</sup> والمؤثرات المشرقية التي حملتها هؤلاء الجوّاري، لم تقتصر على جهة مشرقية بعينها، بل تنوعت، فكانت منهن الشاميات، والحجازيات، والعراقيات والفارسيات، بل ومن مصر أيضاً، وكل واحدة منهن تأتي بعبادات وتقاليد مشرقية، تختلف عن الأخرى، فتعطي إضافة جديدة للمجتمع الأندلسي.<sup>(١٠)</sup>

١- ثياباً: وهي المرأة التي سبق لها الزواج.

٢- ابن سعيد: المغرب في حشّي المغرب، ج ١، ص ٤٧.

٣- عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم، ص ٢٣٣.

٤- مصطفى الشكعة: الأدب الأندلسي، ص ٤٣، ٤٤، ٨٧.

٥- عن طروب أنظر: ص ١٢٤ وما بعدها.

٦- عبد العزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، ج ٢، ص ٩٢، ٩٣.

٧- ابن الأثير: الحلة السواء، ج ١، ص ١١٤، هامش رقم (١).

٨- ليلى بروفنسال: سلسلة محاضرات عامة، ص ١٧ عبد الحميد العبادي: العمل في تاريخ الأندلس، ص ٩٨.

٩- غرسة عومت: الشعر الأندلسي، ص ١٠.

ويبدو أن الجاريات الصغيرات، واللاتي لم يبلغن بعد حد الأنوثة المكتملة كن يقمن بالخدمة في بيوت أسبادهن. إلى أن يكبرن، ويصرن إما جاريات خدمة، أو جاريات متعة. وهذا ما نفهمه من نص أورده المقرئ. حول جارية صغيرة السن، كانت في حوزة المظفر بن المنصور بن أبي عامر.

وقد حضر عنده، أبو عامر بن شهيد، وسهرت على خدمتهم ليلة كاملة، فأنشدتها شعراً، استحساناً منه لصغر سنهما، وتكديدها وتحملها معاناة الخدمة والسهر على راحتهم.<sup>(١)</sup>

وقد كثر عدد الجوارى في منازل العامة أيضاً. ويورد ابن حزم نصاً، نعرف منه أن رجلاً، كان له أكثر من ستين جارية، ولكنه مع ذلك كان يقصد منازل البغايا.<sup>(٢)</sup> وعودة مرة ثانية مع أخبار الجوارى مع أسبادهن، وقد نالت أحدهن شهرة عظيمة، وكانت تسمى "أنس القلوب." وكانت جارية للمنصور بن أبي عامر. وكان ذا غرام بها، إلا أنها كانت تميل للوزير أبي المغيرة بن حزم، فحدث ذات مرة، أن كان المنصور في رياض الزاهرة، وفي صحبته أبو المغيرة فغنت الجارية:-

قَسَدِمَ اللَّيْلُ عِنْدَ سِرِّ النَّهَارِ      وَبَدَأَ الْبَدْرُ مِثْلَ نَصْفِ سَوَارِ

إلى أن قالت:-

لَيْتَ لَوْ كَانَ بِي إِلَهِي سَيْلٌ      فَأَقْضِي مِنْ حَبِّ أَوْطَارِي.<sup>(٣)</sup>

قال أبو المغيرة بن حزم: فلما أكملت الأبيات، أحسست بأني المقصود بالمعنى فقلت:-

كَيْفَ الْوَصُولُ لِلْأَقْصَارِ      بَيْنَ مَحَرِّ الْقَنَا وَبَحْرِ الشَّغَارِ

لَوْ عَلِمْنَا بِأَنْ حَبْلُكَ حَقٌّ      لَطَلَبْنَا الْحَيَاةَ مِنْكَ بِشَارِ

وعند ذلك، بادر المنصور إلى حسامه، وغلظ في كلامه، وقال لها أصدقني، إلى من تشيرين بهذا الشوق والحنين. فقالت الجارية: إن كان الكذب أنجى، فالصدق أحرى وأولى. والله ما كانت إلا نظرة، ولدت في القلب فكرة، فتكلم الحب على

لساني، وصرح الشوق بكنمائي، والعفو مضمون لديك عند المقدرة، ثم بكيت وأنشدت:

أَذْنَيْتُ ذَنْباً عَظِماً      فَكَيْفَ مِنْهُ اعْتِذَارِي

وَاللَّهِ قَسِيرٌ هَذَا      وَلَمْ يَكُنْ بِأَعْصَارِي

وَالْعَفْوُ أَحْسَنُ شَيْءٍ      يَكُونُ عِنْدَ إِقْصَارِي

١- المقرئ: فتح الطيب، جـ ٣، ص ٢٤٤.

٢- صلاح عالجس: إشيلية في القرن الخامس الهجري. دار الثقافة الجامعية، بيروت، لبنان ١٩٨١ م، ص ٩٨.

٣- راجع الأبيات كاملة في المقرئ: فتح الطيب، جـ ١، ص ١١٦، ١١٧، ١١٨ وجونالت بالشتيا: تاريخ الفكر، ص ٦٩، ٧٠.

فعفا المصور عنها وعنه، ووهبها له<sup>(١)</sup> وقد أورد المقرئ قصة أخرى تدور حول نفس المعنى، ومع اختلاف الزمان والمكان، ونقلها المقرئ من نواهد أبي علي الفاي البغدادي، ومخلصها أن الرشيد كانت له جارية غلامية، يحيل إليها ابنه المأمون، فحدث أن غازها في حضرة أبيه، وكادت الجارية تملك على يد الرشيد، من جراء ما حدث من تبادل النظرات والغمز بينها وبين المأمون، ولكنها بعد أن صدقت في شرح ما حدث بينهما، عفا عنها ووهبها له<sup>(٢)</sup>.

وقد كانت الجارية إذا ما وقعت من سيدها مولعةً حسناً، واستحسنها لا يقض ولا يخل عليها بأي أموال في شرائها. فيذكر المقرئ: أن الأمير المنذر بن عبد الرحمن الأوسط عرضت عليه جارية اسمها "طرب" وعندما أعجبته ضاعف ثمنها مرة أخرى أكثر مما طلب بائعها<sup>(٣)</sup>. وقد هام شعراء الأندلس بحب الجوازي فيورد لنا ابن سعيد "في المغرب" أن ابن السراج الملقب بحب جارية تسمى "حسن الورد" وقال فيها شعراء منه:

يا من ألقب طربي في محاسنه فلا أرى مثله في الناس إنسان

لو كنت تعلم ما لقيت بعدك ما شربت كأساً ولا استحسنت بستان<sup>(٤)</sup>

وقصص "سعيد بن جودي" وتعلقه بالجوازي كثيرة، فقد حُملت إليه جارية من قرطبة، فلما خلا بها أعرضت عنه فأنشدتها شعراً، ورأى أخرى في غسالة حمراء فأعجبته فأنشدتها شعراً أيضاً<sup>(٥)</sup>.

ويوما هام حباً بجارية الأمير محمد بن عبد الرحمن وأسمها "جيجان" إلى الحد الذي اضمرى جارية أخرى، وأطلق عليها نفس الاسم، تذكراً منه بغيره التي لم يستطع الوصول إليها<sup>(٦)</sup>. ويبدو أيضاً أن إرسال الجوازي والسيابا كهدايا، وخاصة بعد الغزوات، كان شيئاً مألوفاً وشائعاً في الأندلس، فقد أورد المقرئ نصاً يفيد أن النصور بن أبي عامر، عندما عاد من إحدى غزواته التي سبى

١- المقرئ: فتح الطب، جـ ١، ص ٦١٦، ٦١٧، ٦١٨، جوتال بالنيابا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص ١٧٠، ١٦٩، مصطفى الشكعة: الأدب الأندلسي، ص ١٤٤

Nykl "B.A. R": Hispano Arabic Poetry, Baltimore, 1946, pp 54-55.

٢- راجع تفاصيل تلك القصة كاملة في المقرئ: فتح الطب، جـ ١، ص ٦١٨، ٦١٩.

٣- المقرئ: نفس النص، جـ ٣، ص ٥٧٧، ٥٧٨.

٤- ابن سعيد: (علي بن موسى بن سعيد المغربي)، المغرب في حلى المغرب، حقه الدكتور / شوقي حيف، القاهرة، ١٩٥٥ م، جـ ١، ص ٤٣٥، ٤٣٦، كمال أبو مصطفى: مائة الإسلامية في عصر دولات الطوائف، مؤسسة شباب الجامعة ١٩٩٣ م، ص ١٠٠.

٥- ابن الأثير: الحلة السيرة، جـ ١، ص ١٥٧، ١٥٨، ١٥٩.

٦- الطاهر مكي: دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة، دار المعارف، ١٩٨٠، ص ١٠٠.

فيها سياً كثيراً. أرسل بثلاث جوارى من السبي. إلى عبد الملك بن شهيد، وكانت فيهن واحدة أجمل من تابعيتها وكتب معهن:-

قد بعنا بما كشمس النهار في ثلاث من الملهأ أبكار... أخ.<sup>(١)</sup>  
وخدم بن الأمير اللور في جاريته الأراكسة شعراً منه:-

قل للأراكسة قد زاد بالذللو اشياقي... أخ.<sup>(٢)</sup>

وقد كان غاية ما تصبو إليه الجارية أن تصبح حرة. وقد نظرت شريعة الإسلام إلى الفارق بين الرجل والمرأة. في أمر العتق، فصملت على نقل النساء المملوكات من رابطة العبودية، إلى رابطة الزوجية، وأمرت للمسلمين بتزوجهن، والبرهن قال تعالى في كتابه الكريم: "وأتكنحوا إليهن منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله".<sup>(٣)</sup> وقد كان اختيار الأمة أو الجارية، يتم بتأني شديد، وخاصة إذا كانت محتارة للذة، نظراً لأنها قد تلد أولاداً، وفي هذا المعنى يقول الشاعر:

لا تشمن امرأة في أن تكون له

أم من الروم أو سوداء عجماء

فلما أمهات القوم أوعية

مسودعات وللأصحاب آباء"<sup>(٤)</sup>

وكانت الجارية عندما تنجب غلاماً، يطلق عليها لقب "أم ولد"، وفي كثير من الأحيان تعق وتزوجها مائلكها.<sup>(٥)</sup> وقد كان هذا يحسن من وضعها، ويغلت إليها الأنتظار، فلا يجوز بيعها أو هبتها، بعد أن صارت أم ولد.<sup>(٦)</sup> وقد اهتمت كتب الفتاوى والنوازل كثيراً بأحكام بيع وشراء الجوارى والإماء. فيذكر الوثنيسي:- "حكم من اشترى خادمة رومية، وأعطها لابه فأتخذها

١- وأبيات الشعر القابلة بين التصور، وعبد الملك بن شهيد، من الأدب المكشوف، ولا يسمح المجال هنا بذكرها.  
راجع المقرئ: فتح الطيب، ج ١، ص ٤٠٠، ٤٠١.

٢- راجع باقي الأبيات في المقرئ: نفس المصدر، ج ٣، ص ٥٨٦.

٣- ابن عبد ربه: طبائع النساء، ص ٨٣، ٨٤. وسورة "النور" الآية (٣٢).

٤- ابن عبد ربه: المصدر السابق: ص ٨٨.

٥- Leve Provençal: L'Espagne Musulmane au Xème Siècle. Paris 1932. p 59.

٦- Ibid: p59.

الابن أم ولد، ثم أعتقها. وتزوجها. فأجاب الوثنيسي: بأنه لا يجوز بيعها أو هبتها.<sup>(١)</sup> وفتياً أخرى فمن يعتق جارية ويتزوجها، ويعطيها صداقها " جُلس " ماله فهل يجوز لها هذا المال بعد موت زوجها " فأجاب " هو لها حلالاً بقول الله عز وجل: " وأنتم إحداهن قهراً " <sup>(٢)</sup> وتلحق الجارية بسيدتها رغماً عنه إذا رزقت منه غلاماً، حتى لو أنكروا ذلك النسب إليه. أما إذا أراد الرجل أن يدعي على إحدى الجاريات، بأنه قد أسولدها " أي أنجب منها غلاماً " فينظر إن كان معها ولد سُمع منه، وردت إليه، وإن لم يكن معها ولد، فلا تُرد إليه. خوفاً من أن يكون أراد إمساكها رغماً عنها.<sup>(٣)</sup>

ولم تكن الجوارى متركات لأي فرد من أفراد الأسرة بحيث من كيف يشاء، ويسوق لنا المقري حول هذا المعنى، ما حكاه عن الفقيه الأديب النحوي أبي عبد الله محمد بن ميمون، وغراره بإحدى الجوارى ممن كن في منزل أبيه ولوم أبيه له، لأنها تشغله عن طلب العلم والبحث وكان يزيده عرها إغراء بها.<sup>(٤)</sup>

وفصص الحب التي وردت في المصادر العربية، حول حب الإمام والجوارى والتغزل من كثرة جداً، سنذكر مجموعة منها. فقد بلغ من حب الأمير عبد الرحمن الأوسط لجاريته " منعة " أن سمح لها بإقامة مسجد عسرف باسمها وعندما توفيت دفنت في مقبرة خاصة بها شمال مقبرة عامر القرني. وعرفت تلك المقبرة باسمها أيضاً.<sup>(٥)</sup> ويذكر ابن حزم أن سبب جنون يحيى بن محمد بن أحمد بن عباس، أنه كانت له جارية يهيم بها حباً، ويجد بها وجداً شديداً، فباعها أمه رغماً عنه، بهدف التكاثر من إحدى العامريات.<sup>(٦)</sup>

وينتضح من هذا النص الذي أورده ابن حزم: أن الرجل فضل الجارية على الحرية سليمة الميولات العربية ذات الأنساب. ويذكر ابن حزم قصة أخرى في " الطوق " عن اختلال مروان بن يحيى بن حدير، وذهاب عقله، لصلقه بجارية أخيه، التي منعها منه، وباعها لغیره، ويحكي أنه قبل هذه الحادثة، لم يكن هناك من هو أتم عقلاً وأدباً منه.<sup>(٧)</sup> ويحكي ابن حزم عن " الرماذي " قصة حب شاعرة غابة

١- الوثنيسي: (أحمد بن يحيى الوثنيسي) المعيار المغرب و الجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨١ م، ج ٣، ص ١٥٧.

٢- الوثنيسي: نفس المصدر، ج ٣، ص ١٢٥. وسورة " النساء " الآية (٢٠).

٣- الوثنيسي: نفس المصدر، ج ٦، ص ١٢٣.

٤- المقري: تلح الطيب، ج ٤، ص ١١٥.

٥-

Lévi Provençal: op. cit. p.209

٦- ابن حزم: طوق الحمامة في الإلهة والالاف، ص ١٣٩.

٧- ابن حزم: نفس المصدر، ص ١٣٩.



في الرقة والجمال، فيقول: إن الشاعر كان يوماً محتاراً عند باب العطارين في قرطبة، وهذا الموضع كان مجتمع النساء، فرأى جارية مليحة أخذت بمجامع قلبه، فتبعها حتى عبرت عن طريق الجامع، ودار بينهما حرار طويل سألها حرة أم مملوكة، فقالت: مملوكة فقال لها: ما اسمك؟ قالت: "خلوة" وحاول أن يعرف هي مملوكة لمن، ولكن دون جدوى. ويبدو أن الجارية سارته لإخاذه عليها. إلى أن أحدثت منه وعداً بعدم تتبعها، واحتفت ولم يعثر لها من يومها على أثر، وأصبحت بعد ذلك بظلة كل أشعاره التي يتغزل فيها، وعُرف بخبرها بعد أن رحل إلى سرقسطة Zaragoza بسببها.<sup>(١)</sup>

وبدرونا ابن حزم أيضاً عن قصة رقيقة أخرى. ولكن بطلاها هذه المرة من الخرائر وهي قصة حب أخيه أبي بكر وزواجه "بعاتكة بنت قسند" صاحب الثغر الأعلى، وكيف كان مخلصاً لها، فلم يتسرى عليها أبداً، ولا كان له تجارب قبلها ولا معها لأنه مات قبلها.

هذا عنه هو، أما هي، فيعدد ابن حزم فضائل كثيرة لها، وكيف أن الدنيا لا تأتي كثيراً بمثلها. وقد كانت تحب أمها حباً شديداً، إلى أن مات في الطاعون الذي وقع بقرطبة في شهر ذي القعدة، فحزنت عليه حزناً شديداً، حتى تمكن منها الذبول والمرض، ومات بعده بعام، وبلغ من شدة حباها له، أن أبلغت المقربين منها.

وكما يروي ابن حزم: أنها أبلغت بعض المقربين إليها، بأن ما يقوي صبرها في الدنيا بعده. أنها تعلم أنه لا يضمه وامرأة غيرها مضجع، وأن أعظم آملها في الحياة اللحاق به، إلى هذا الحد بلغت درجة الحب النادرة، لزوجين في هذا العصر السحيق.<sup>(٢)</sup>

ويروي ابن حزم أيضاً عن نفسه تلك القصة الرقيقة. عن حبه لجاريته "نسُعم". ويروي ابن حزم القصة بإسهاب طويل، للتحظات القرب والفراق. وكيف أنها كانت أعظم وأصدق حب في حياته، لأنه مر بها في مرحلة الصبا، وهي من وجهة نظره، أصدق مراحل الحب في حياة الإنسان، على حد تعبيره.<sup>(٣)</sup>

وكما أوردنا قصص حب من جانب الرجل تجاه المرأة سواء جارية أو حرة، فكذلك لورد بعض القصص العكسية. أي حب الجوارى لأسبادهن أو لرجال لا يمتون إليهن بصلة، وعابرون في حياتهن، ومن خلال طوق الحمامة "أيضاً" يورد لنا ابن حزم قصة لجارية رائعة الجمال كانت في دار ابن الركيزة محمد بن أحمد بن وهب "وكان قد سبق لها موئى. وجاءته النية، وبيعت جاريته، فأبت أن ترضى بالرجال بعده "وما جامعها رجل إلى أن لاقته وبها. وكانت تحسن الغناء، فأنكرت عليها به. ورضيت بالخدمة والخروج من جملة الجاريات المتخذات للذة، والنسل، والخال الرقيقة

١- ابن حزم: المصدر السابق ص ٤٦، ٤٧. بالتبليغ: تاريخ الفكر الأندلسي. ص ٦٨، ٩٦.

٢- ابن حزم. نفس المصدر. ص ١٥٣، ١٥٤.

٣- راجع القصة كاملة بتفاصيلها في ابن حزم: طوق الحمامة. ص ١٤٤ وما بعدها.

الخشنة، وفاء منها لم ذهب ووزنه التراب، وترك فيها شيئاً، ولقد رغبها سيدها المذكور في أن يضمها إلى فراشه، مع سائر جواريه، وبخرجها مما هي فيه فأبت. فطرحها وأوقع عليها الأدب، فصورت وتحملت ذلك كله، وأقامت على امتاعها.<sup>(١)</sup>

وهناك أيضاً قصة الجارية التي كانت لبعض الرؤساء، فرهد فيها سيدها وباعها لشئ بلغه عنها، فجزعت لذلك جرماً شديداً، وما فارقها التحول والأسف عليه، إلى أن سئلت، وكان ذلك سبب موتها.<sup>(٢)</sup>

ويذكر ابن حزم أن هذه القصة أخبرته بها امرأة يثق فيها، كانت تعرف المرأة، ونلاحظ أن ابن حزم عادة كان لا يذكر الأسماء صراحة إلا فيما ندر، وذلك حفاظاً منه على حرمة الأنساب وحرية الأشخاص، الذين أتمنوه على أسرارهم، أو نقلها هو على لسان بعض النسقات، وذكر بعض الأسماء يمكن أن يلحق ضرر بأصحابها.

وكما عرفت إسبانيا الإسلامية التسري بالإماء والجواري، عرفت كذلك التسري بالعلماء، ويظهر ذلك بوضوح من خلال نص أورده المقرئ نقلاً عن ابن بسام: عن إتخاذ بعض الأندلسيين العلماء للتسري بهم، فقد ذكر أن أبا عامر بن شهيد الوزير. أهدى إليه غلام من النصارى لم تفع العيون على مثله جمالاً، فلمحه " الخليفة الناصر " فقال لابن شهيد "أني لك هذا ؟ " قال هو من عند الله. فقال الناصر: تتحولونا بالنجوم، وتستأثرون بالقصر، فأعتمر وأرسل الغلام للخليفة ومعه هدية وقال له: كن مع جملة ما أرسلت، ولولا الضرورة ما صبحت بك نفسي، فحسّن ذلك التصرف عند الناصر. وأحزله له مال وفير بدلاً منه.<sup>(٣)</sup> وقصة أخرى حول هذا المعنى: وذلك عندما أراد أبو بكر بن سعيد أن يسترضي المخزومي الشاعر الأعشى، ويوقف المشادة الحادة واضعاً المباديل بينه وبين " نزهون الغرناطية " فقال المخزومي للوزير أبو بكر أسكت عنها ولا أهجوها بشرط، أن تعطيني العبد أو الغلام الذي رافقتني من مولى، فإنه لئن القدر، رقيق الملمس. فقال له أبو بكر: ولكنه ما زال صغيراً ولولا أنه صغير كنت أبلغك، مرادك فيه، فأصبر عليه حتى يكبر، فأصر على أخذ الغلام، فانصاع الوزير وقال لا تبديل خلق الله، والفصل المخزومي بالغلام.<sup>(٤)</sup>

١- ابن حزم: المصدر السابق: ص ١١١، ١١٢ الطاهر مكّي: دراسات عن ابن حزم وكهانة طوق الحمامة، ص ٢٧١، ٢٧٢.

٢- ابن حزم: نفس المصدر، ص ١٥٣.

٣- المقرئ: نفع الطيب، ج ١. ص ٢٦١، ٢٦٢.

٤- ابن الخطيب: (لسان الدين أبو عبد الله محمد بن الخطيب) الإحاطة في أخبار غرناطة. تحقيق الأستاذ محمد عبد الله عتات. القاهرة ١٩٧٤. ج ١. ص ١٠٩، ١٠٨، ١٠٧، ١٠٦، ١٠٥، ١٠٤، ١٠٣، ١٠٢، ١٠١، ١٠٠، ٩٩، ٩٨، ٩٧، ٩٦، ٩٥، ٩٤، ٩٣، ٩٢، ٩١، ٩٠، ٨٩، ٨٨، ٨٧، ٨٦، ٨٥، ٨٤، ٨٣، ٨٢، ٨١، ٨٠، ٧٩، ٧٨، ٧٧، ٧٦، ٧٥، ٧٤، ٧٣، ٧٢، ٧١، ٧٠، ٦٩، ٦٨، ٦٧، ٦٦، ٦٥، ٦٤، ٦٣، ٦٢، ٦١، ٦٠، ٥٩، ٥٨، ٥٧، ٥٦، ٥٥، ٥٤، ٥٣، ٥٢، ٥١، ٥٠، ٤٩، ٤٨، ٤٧، ٤٦، ٤٥، ٤٤، ٤٣، ٤٢، ٤١، ٤٠، ٣٩، ٣٨، ٣٧، ٣٦، ٣٥، ٣٤، ٣٣، ٣٢، ٣١، ٣٠، ٢٩، ٢٨، ٢٧، ٢٦، ٢٥، ٢٤، ٢٣، ٢٢، ٢١، ٢٠، ١٩، ١٨، ١٧، ١٦، ١٥، ١٤، ١٣، ١٢، ١١، ١٠، ٩، ٨، ٧، ٦، ٥، ٤، ٣، ٢، ١.

والمرأة في المجتمع الأندلسي كانت قتل عنصرين فقط إما جارية وإما حرة، ونجد للنوهلة الأولى أن هناك تناقضاً كبيراً في التكوين الاجتماعي لدى العرب في إسبانيا، وخاصة بالنسبة للمرأة، ومكانتها من الرجل. فقد كان الرجل الذي يشاطر معتقه واهتماماته الحسية مع طائفة من النساء، والمقصود من هنا الجوارى. نرى طريقته تلك مختلفة كل الاختلاف عن تلك التي يشاطرها حياته العائلية. والمقصود هنا الزوجة.<sup>(١)</sup>

ولم يكن الحديث عن المرأة الحرة بالسهولة التي يمكن أن يُستأول بها الحديث عن الجوارى. فكما ذكر ابن حزم: بأن البيت المالك كان ينأى بفتياته أن يصحح حديثاً يدور على السنة العامة والشعراء تغزلوا وإعجاباً، مثل الجوارى اللاتي لم يكن هناك أي حرج من تناوُلهن بالغزل والوصف، وحين تجرأ أحمد بن مغيث، وتغزل بإحدى بنات الخلفاء، ورغم مكانة أسرته العريقة في قرطبة، وكعادته لم يقصح لنا صراحة عن اسم الفتاة. قتل ابن مغيث. وأبعدت أسرته عن المناصب العامة، وكان ذلك سبباً شائعهم، وانقراض بيتهم.<sup>(٢)</sup>

وجارية أخرى دفعت حياتها ثمناً لشعر، دفع به إليها شاعر تغزل في السيدة "صبح" أثناء علاقتها بالنصور بن أبي عامر، فغنت بالشعر، وعندما علم النصور أمر بقتلها.<sup>(٣)</sup>

ومن خلال ما سبق يتضح لنا مدى محافظة المجتمع الإسلامي الأندلسي على المرأة، وخاصة المرأة الحرة، ولهذا كانت معلوماتنا عن المرأة الحرة وخاصة في الأوساط الأرستقراطية قليلة جداً. فكل ما نعرفه أنها لم تكن سهلة الحجاب، أما في الأوساط الاجتماعية الأقل انخفاضاً، فكانت هذه المشكلة لا تأخذ هذا البعد الكبير، وإن كان هذا لا يمنع أن المرأة الحرة، أخذت قدراً وافراً من الثقافة الأدبية والفنية.

ويعلق جيسار قائلا: أن المرأة الحرة هي وحدها القادرة على غرس روح الشرف والنبيل في ابنائها، كما أنها تزرع فيهم الانتماء الشام للأُسرة أو الطبقة التي تنتمي إليها.<sup>(٤)</sup> والمرأة الحرة لم تكن غالبية تماماً عن المجتمع الأندلسي، وإنما كانت تظهر بحذر شديد. وهذا يبرز ندرة الأعمال التي نتحدث عنها من قريب أو من بعيد، وعكس هذا الجوارى اللاتي لم توضع عليهن القيود، التي وضعت على الحررات، وخاصة في التحرك والخروج.<sup>(٥)</sup>

١- Guichard: Structures Sociales, pp. 79 - 166.

٢- الطاهر مكي: دراسات عن ابن حزم، ص ٢٧٢.

٣- الطاهر مكي: نفس المرجع: ص ٢٧١.

٤- Guichard: op. cit., p 80.

٥- ابن حزم: طوق الحمامة، ص ١٤٨. حدي عبد الممنع: مجتمع قرطبة، ص ٢٩٨.

لقد كانت الجارية تتمتع نسبياً ببعض الحرية، التي لا تتمتع بها الحرائر ولا سيما إذا كانت الجارية ليست موضع عناية سيدها، أو ليست من اللاتي أخذن في الدرجة الأولى للمتعة.

ومن هذا يتضح لنا أن الحياة العاطفية للجارية، كانت تأخذ شكلاً أكثر نشاطاً مما لدى غيرها. نظراً لمركزهن الاجتماعي المنخفض، والذي لا يؤثر على سمعة الأساد مهما آتين من أفعال، بعكس الحرائر، اللاتي تتأثر سمعتهن، وسمعة من يتبعوهن لأكل شيء.<sup>(١)</sup>

وما تقدم، لا شك أنه كان هناك فصل بين هذين العالمين، عالم المرأة الحرة وعالم الأمة أو الجارية.

وفي النهاية نقول: أن المجتمع الأندلسي، عرف ظاهرة التسري، وكانت شائعة في بيوت العامة، والخاصة، وكبار الموظفين، وكبار رجال الدولة.

ولا شك، أن هؤلاء الجوارى، أعطين المجتمع الأندلسي مذاقاً خاصاً، ولعبن دوراً كبيراً، في تحسين مكانة المرأة الأندلسية، يفوق الدور الذي لعبته الحرائر، أضعافاً لسهولة حجابهن، وكثرة تحركهن، ونظراً لظهور تلك الظاهرة العامة، والتي صبح طائفة الرقيق، وما زال هناك شارع في قرطبة، إلى اليوم يحمل اسم شارع الرقيق أو الجوارى.<sup>(٢)</sup>

### ثالثاً: طبقة المولدين نتاج الزواج المختلط والتسري بالإماء.

كان من نتاج هذا الزواج المختلط، والتسري بالإماء، ظهور طبقة المولدين.<sup>(٣)</sup> "ولولدون" هم الذين ولدوا من أبناء مسلمين وأمهات إسبانيات، ونشأوا على الإسلام. وكانوا على عهد أمراء بني أمية يكونون الكثيرة الغالية من السكان.<sup>(٤)</sup> وكان لهذا الجيل الجديد طابعه الخاص وشخصيته الفريدة.<sup>(٥)</sup> ولا يطلق هنرى بروس لفظ "مولدين" على هذا العنصر الجديد، وإنما يذكر أن هذا الجنس، لا يمكن أن تدعوه عرباً ولا بربرياً ولا صقلياً ولا يهودياً، وإنما الصفة الأكثر ملاءمة له هي أن تدعوه أندلسياً، أو إسبانياً، وإن أمهاتهم المسيحيات قد غيرن طريقة حياتهم، وأهم تلقوا

١ - صلاح خالص: إسبيلية في القرن الخامس الهجري، ص ٩٨.

٢ - الظاهر مكى: المرجع السابق، ص ١٩.

٣ - أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص ٥٢٤ عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين، ص ١١٩.

٤ - العبادي: في تاريخ المغرب، ص ١١٧ هامش رقم (١)، العبادي: الإسلام في أرض الأندلس، عالم الفكر، العدد العاشر، العدد الثاني، ص ٦٠، عمر رضا كحالة: المرأة في عالمي العرب والإسلام. مؤسسة الرسالة ١٩٨١ م، ص ٥٧.

٥ - عبد الحميد العبادي: الحمل في تاريخ الأندلس، ص ١١٩.

تربية مسيحية على الأقل في الأعوام الأولى من حياتهم.<sup>(١)</sup> وكانت لها نتائج أخرى ستعرضها في حينها.

وقد كثرت أعداد هؤلاء المولدين كثرة كبيرة. فقد أحصى ابن حيان للأمويين والرحمن الأوسط، أسماء بناته الإناث فقط ثلاثة وأربعين، أوردهن جميعاً في كتابه "المقتبس".<sup>(٢)</sup>

وقد اعتبر كثير من الباحثين المعاصرين، البيت الأموي كله بيتاً مولداً نتيجة لإقبال أمراء بني أمية، وعملقاتهم على الزوج بنساء إسمائيات، وأن هؤلاء الأمراء كانوا يعدون أنفسهم عرباً من حيث النسب والدين والشعور والميول واللسان والهوية.<sup>(٣)</sup>

وإن كان ريباً ينبغي الهوية العربية نقياً تماماً عن أمراء بني أمية، وذلك عن طريق عملية حسابية قام بها، باعتبار أن الولد يأخذ نصف صفاته الوراثية من أمه والنصف الآخر من أبيه، وظل يحذف ٥٠% من الصفات الوراثية الخاصة بكل أمير أموي، والتي توارثها عن أمه الإسبانية. إلى أن توصل في النهاية إلى أن الخليفة هشام المؤيد، صارت نسبة الدم العربي فيه لا تتعدى نسبة (٠,٠٩%)<sup>(٤)</sup>. وهذه بطبيعة الحال عملية خاطئة، بل ومضحكة، فمن يستطيع أن يجزم بالقول الحاسم والعملية، بأن المولود يأخذ نصف صفاته الوراثية من أبيه، والنصف الآخر من أمه، فتلك عملية وإن كانت معروفة علمياً بتفاوتها، إلا أنها أيضاً خارج نطاق دراستنا ولكن العقل الواعي لا يؤيد تلك الحسبة الخاطئة.

وقد ذكر الأستاذ الدكتور/ عبادة كحيلة. في كتابه "تاريخ نصارى الأندلس" بأن لفظة مولدين انتقلت إلى إسبانيا في العصور الوسطى، وصارت Muladies... إلخ.<sup>(٥)</sup> ولقد جانب البعض الصواب حين اعتبر المولدين، من كانت أمهاتهم إسمائيات، وآبائهم عرباً، وأن لفظة مولدين أطلقها العرب على من أسلم من أهل الأندلس.<sup>(٦)</sup> والصحيح أن من سارع إلى اعتناق الإسلام من الإسبان

١- هنري بروس: الشعر الأندلسي في عصر الطوائف ملاحظه العامة وموضوعاته الرئيسية وقيته التراثية. ترجمة الدكتور/ الطاهر أحمد مكي. دار المعارف. ١٩٨٨م. ص ٢٥٥.

٢- ابن حيان: (أبو مروان خلف بن حيان القرطبي) المقتبس من الماء أهل الأندلس نشر وتحقيق الدكتور/ محمود علي مكي ١٩٧١م، ص ١٦٤.

٣- Lévi Provençal: Hist, Vol I. P. 76.

٤- حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص ٣٧٦، ٣٧٧.

٥- Ribera: El Concionero. p 10, 11.

٦- Guichard: Structures Sociales, p. 124.

٥- للمزيد راجع، عبادة كحيلة: تاريخ النصارى في الأندلس، الطبعة الأولى، ١٩٩٣ م ص ٣٩.

٦- عبادة كحيلة، نفس المرجع: ص ٣٩، حاشية (٣).

وقت الفتح. العربي، أطلق عليهم اسم *Musalima*، ومع مرور الوقت وبعد احتلالهم وترواحهم بالعرب والبربر وغيرهم من كافة المسلمين، أطلق على ابنائهم اسم المولدين، وبالإسبانية *Muladies*. وهم مسلمون بطبيعة الحال.<sup>(١)</sup>

ولقد ذهب البعض من المولدين، إلى ادعاء نسب عربي. ودفعوا في تليفقه مالاََ كثيرًا، لكي يسمح لهم بالزهر والفاخر، بأنهم من أصول عربية.<sup>(٢)</sup>

ومن الشخصيات المعروفة التي قامت بهذا العمل الفقيه المعروف أبو محمد بن حزم القرطبي (ت ٤٥٦هـ). وكان من أصل إسباني من عجم لبلبة *Nieble*. وهي بلدة غرب الأندلس، وادعى لنفسه نسباََ شرفياََ، لكي يرفع من شأنه على حد قول معاصرة ابن حيان.

وكذلك نذكر الكاتب الوزير عيسى بن فطيس، في عصر الخليفة عبد الرحمن الناصر. إذ كان من نسل أم الوليد بنت خلف بن رومان النصرانية.<sup>(٣)</sup> وقد برزت شخصيات كثيرة في هذه الطبقة، لعل أشهرهم على الإطلاق أبو بكر محمد بن عبد العزيز بن ابنهم بن عيسى بن مزاحم، صاحب كتاب "تاريخ الفتاح الأندلس" ت (٣٦٧هـ - ٩٧٧م) والمعروف "بأن القوطية". والقوطية هنا هي الأميرة "سارة" حفيدة غبطشة *Witiza* ملك إسبانيا القوطي. وهو بذلك يكون مولداً من طبقة المولدين. فقد تزوج القائد العربي عيسى بن مزاحم، مولى الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك من سارة. وتم ذلك عندما التحلت إلى دمشق باحثة عن ميراث والدها، فانلقى بها ابن مزاحم وتزوجها، وعاد معها إلى الأندلس، وجاء من سلالتها أبو بكر.<sup>(٤)</sup>

ويبدو أن اسم "سارة" قد غلب على جميع ذريتها إلى أيام أبي عمر بن عفيف التاريخي الموالي سنة (٤٣٠هـ)، فذكر ذلك في كتابه "الاحفال في أعلام الرجال في أخبار الفقهاء والعلماء المتأخرين من أهل قرطبة" وعنه نقل ابن الأثير في كتابه التكملة.<sup>(٥)</sup> ورغم تمسك هؤلاء المولدين بدينهم الإسلامي وحرصهم عليه،<sup>(٦)</sup> إلا أنهم كانوا شديدي التعصب ضد الجنس العربي والسيادة العربية. وقد اعتبر الدكتور أحمد مختار العادي أن ابن القوطية هو الذي وضع البنية الأولى لحركة الشعوبية في الأندلس.

١- Isidro de las Cagigas: Los Mozárabes. Madrid. 1947. Tomo I, pp 55, 56.

٢- حسين مؤنس: نفس المراجع، ص ٤٣٠.

٣- العادي: الإسلام في أرض الأندلس، ص ٦٦.

٤- ابن القوطية: نفس المصدر، ص ٨، ٣١، ٣٢، أحمد مختار العادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص ٣١٤، سحر سام: مظاهر الحضارة في بطليوس، ص ١٣.

٥- ابن القوطية: نفس المصدر، ص ٩.

٦- العادي: نفس المراجع، ص ٣١٤.

وإن كانت هذه الحركة لم تظهر بوضوح، وتأخذ أشكالاً خطيرة، إلا في عصر ملوك الطوائف في القرن الخامس الهجري.<sup>(١)</sup> على يد ابن غرسية الشعوبي في رسالته المعروفة، التي يهجو فيها العصر العربي، بل ويفضل عليه العصر الإسباني الأندلسي.<sup>(٢)</sup>

والمعروف أن الشعوبية، لم تقاوم الإسلام كدين، وإنما هاجمت السيادة العربية على البلاد. وسخطوا على العرب كطبقة حاكمة، استأثرت بكل خيرات البلاد ومنافعها، وسيطروا على مرافق البلاد، وحرموا منها طبقة المولدين، التي ينتمي إليها ابن القوطية وغيره.<sup>(٣)</sup>

وكان بعض المولدين يتخذون أسماء عربية، وهو شئ طبيعي، إذا أخذنا في الحسبان أن المسيحيين الذين احتفظوا بدينهم. وظلوا يعيشون بين المسلمين وأطلق عليهم المستعربين Los Mozarabes.<sup>(٤)</sup> وكانوا في حالات كثيرة يتخذون أسماء عربية. وكان من الممكن أن يحتفظ المسألة والمولدون بأسمائهم غير العربية دون أن يحدث هذا أي قلق للمسلمين، حتى في سنوات الفتح الأولى. والمسلمين الذين كانوا يحملون أسماء إسبانية، هم أصلاً من طبقة الوقيق، قبل الفتح، فلما اعتنقوا الإسلام أصبحوا أحراراً أو موالى.<sup>(٥)</sup>

ومن أمثلة استخدام المستعربين للأسماء العربية، نجدنا عند قاضي نصارى قرطبة. وكان يحمل اسم وليد بن عيزرائة. وأسقف طليطلة.

وقد كان أسقف طليطلة، يعرف باسم "عبد الله بن قاسم" وبعض نصارى ليون المستعربين، والذين عاشوا في الأراضي الإسلامية، دون أن يهاجروا إلى الأرض النصرانية.<sup>(٦)</sup>

١- عن الشعوبية راجع مقال الأستاذ الدكتور/ أحمد محمد العبادي في مجلة عالم الفكر، المجلد الثامن، العدد الأول، ص ٤٢، وما يليها.

٢- Lévi Provençal: La Civilización Árabe en España, Buenos Aires, 1953. p. 47.

٣- العبادي: في تاريخ العرب والأندلس، ص ٣٣٨، ٣٣٩. العبادي: الإسلام في أرض الأندلس، عالم الفكر، ص ٤٢. سحر سالم: مظاهر الحضارة في بطليوس، ص ١٣.

٤- Dozy: Historia de Los Musulmanes d'Espana. T1. p. 391

Lévi Provençal: Esp. Mus. Au Xème siècle. p. 24.

Provençal: Hist T1. p. 77.

٥- كلمة مولى تعني السيد أو العبد أو الخليف، وهي تعني هنا من كانت أمهاتهم جاريات زنجيات أو سودانيات (Mulato).

Dozy: Diccionario de Historia de España. Madrid. 1952. Tomo II. p. 589.

٦- هنري بروس: الشعر الأندلسي في عصر الطوائف، ص ٢٣٢.

وقد احتفظ كثير من المولدين حتى بعد اعتناقهم الإسلام بأسمائهم القديمة مثل بنو الجرج Banu Jarge،<sup>(١)</sup> وبنو النجلين Banu Angelion، وبنو شريق Banu Sabtico في إشبيلية،<sup>(٢)</sup> وبنو القبطنة Kabturno، وبنو مرديش Martinez، وبنو غربية Garica، وبنو رولف Rodlf، وبنو لتي Longo.<sup>(٣)</sup>

هذا فيما يخص أسماء العائلات، أما لو تصفحنا كتب التراجم الأندلسية ستجد العديد والعديد من أسماء الفقهاء والأمراء، وتدل على ألفا من أصل إسباني مثل ابن قرمان Cuzman. وابن بشكوال Pascual، وابن فرتون Fortun، وابن القوطي La Goda، وشنجول Sanchuelo، وابن مارتين Martin وغيرهم كثيرين.<sup>(٤)</sup>

والبعض الآخر لجأ إلى تعريب اسمه اللاتيني فأصبح Felix يدعى سعيداً، و Victor يدعى الظاهر. وأخذت الأسماء اللاتينية المستمدة من التوراة الشكل العربي فاسم Moisés، أصبح موسى و Jesus أصبح عيسى. وهكذا.<sup>(٥)</sup> ولقد تألفت من هؤلاء المولدين جماعات كبيرة في مدن إسبانيا الهامة مثل طليطلة Toledo التي كانت مركزاً من أهم مراكزهم، وإشبيلية Sivlla كانت معقلاً من معقلهم.

وكانوا يتمتعون بعطف الأمير عبد الرحمن بن معاوية، لأنهم من نسل سارة القوطية، التي شاهدها طفلاً في الشرق، وكان يكن لها مكانة خاصة.<sup>(٦)</sup>

أما عن الحياة الاقتصادية لهذه الفئة، والمهن التي اشتهروا، فيذهب ليفي بروفنسال إلى أنهم كانوا يربون الناشية، ويحارسون الزراعة، وخاصة في المناطق الريفية، وكذلك صيد الأسماك، والأعمال البحرية في المناطق الساحلية وبعضهم عمل في النواحي الإدارية. ويذكر دوزي أنهم حققوا أرباحاً طائلة من تلك الأعمال.<sup>(٧)</sup>

ويذكر الأستاذ الدكتور/ أحمد مختار العبادي، أنه بمضي الوقت شعرت هذه الطبقة بنقص في حقوقها، رغم كونهم أصحاب البلاد الأصليين. فقد كانوا يتحملون عبء المأرم (الضرائب) دون

Dozy: op. cit., T II, p 40.

-١-

Lévi Provençal: Hist, T I, p 47.

-٢-

٣- عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين، ص ١٢٨، ١٢٩.

٤- العبادي: الإسلام في الأندلس، ص ٦٤، ٦٥.

٥- الظاهر مكّي: دراسات عن ابن حزم، ص ١٧، ١٨.

٦- عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم، ص ١٢٩.

Simonet: Historia de Los mozarabes de Espana, Madrid, 1897, p. 248.

Lévi Provençal: Hist. Vol I. pp. 161. 162.

-٧-

Dozy: Hist. Vol. II, p. 40

عبد العزيز سالم: نفس المرجع، ص ١٢٩.



أن يكون هم نصب كبير في ثروات البلاد. ومناصبها الرئيسية التي كانت حكراً على الأرستقراطية العربية الحاكمة، ويبدو أن هذا ما جعلهم يتقبلون الثورة ضد أمراء قرطبة في عصر الحكم " الرئضي" وفي أواخر عصر الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط.<sup>(١)</sup>

وقد كان لظهور هذه الطبقة الكثير من التأثيرات على المجتمع الإسباني: انصبت في نقطتين هامتين: اللغة، والثروات. أما عن اللغة فيبدو أن طبقة المولدين أثرت عليها كما سنرى. وإن كانت اللغة العربية الفصحى هي اللغة الرسمية للأندلس فهي لغة القرآن الكريم، وهي اللسان الحضاري في الأندلس على مدى تاريخها الإسلامي، وهي لغة الشعر الرفيع، والنثر، وهي لغة الوثائق الرسمية في الدولة، ولغة التعليم، ولغة التفاهم في العلاقات الدولية، وخاصة في بلاد الشرق الإسلامي، كان التمكن من اللغة العربية وإجادتها الشرط الأساسي في تولي أي منصب من مناصب الدولة.<sup>(٢)</sup>

أما الأجيال المولدة الجديدة، فهي التي روجت لاستخدام اللغة " العجيبة" وهي اللغة المشتركة التي كان يتخاطب بها أهل الأندلس، ويسمونها ابن حزم القرطبي " اللطينية" وذلك في سياق حديثه عن قبيلة " بسلي" التي تمسكت باللسان العربي، ولم يحسن أفرادها التخاطب باللطينية.

وفي ذلك يقول ابن حزم " دار بلى بشمال قرطبة، وهم هناك إلى اليوم على أنسابهم، ولا يحسنون الكلام باللطينية نساءهم ورجالهم".<sup>(٣)</sup>

وكان يُطلق على هذه اللغة أيضاً لفظ الرومانسية Romance، واستثناء ابن حزم هنا لقبيلة تلى في عدم معرفتهم بهذه اللغة، يدل على أن هذه اللغة كانت شائعة ومعروفة في الأندلس. بل وبين القبائل ذات الأصل العربي. ويذكر الدكتور العبادي أيضاً أن لفظ لا يحسنون هنا يدل على أنهم يعرفون اللغة ولكنهم لا يجيدون الكلام بها مثل غيرهم.<sup>(٤)</sup>

ويذكر الأستاذ الدكتور مؤنس: أن ما حدث شيء طبيعي وبديهي في أن العرب لم يعودوا يتكلمون العربية في حياتهم العادية بعد الجيل الثاني. فقد غلبت عليهم في المخاطبة والمعاملات لغة أهل البلاد واحتلّطت بها.<sup>(٥)</sup> وهنا اختلف مع رأي الدكتور مؤنس. فلو كان قد حدث ما ذكره من تجاهل للغة. وعدم معرفتها والحديث بها، لانتهد اللغة العربية، بعد مرور عدة أجيال. ولكننا

١- العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص ١٢٨.

٢- حدي عبد شمع: مجتمع قرطبة في عصر الدولة الأموية. ص ٥٣٥.

٣- ابن حزم: جبهة أنساب العرب، ص ٤٤٣. سحر سام: مظاهر الحضارة ج ١، ص ١٩٥.

٤- العبادي: الإسلام في أرض الأندلس، ص ٦٦. مصطفى الشكعة: الأدب الأندلسي موضوعاته وقوله. بيروت. الطبعة الثالثة ١٩٧٥ م. ص ٤٥. واللغة الرومانسية هي لغة عالية مشتقة من اللاتينية ومنها تكونت اللغة الإسبانية بعد ذلك. انظر:-

Leve provençal: op. cit, voll, p 76.

٥- حسين مؤنس: فجر الأندلس. ص ٣٧٧.

نجد فطاحل الشعراء مثل ابن زيدون وابن اللبابة وغيرهم قد جاءوا بعد أكثر من الجيل الثاني الذي ذكره الأستاذ الدكتور/ مؤنس. ومع ذلك كانت لغتهم العربية سليمة وجزلة، لم تشوها شائبة، مع أنهم كانوا من المولدين، ويتكلمون اللغة الرومانسية والأرجم أن اللغتين، سارتا جنباً إلى جنب، بدون أن تلغى إحداها الأخرى أو ما يسمى "لزوجاتجة اللغة" "Bilingue".

أما النقطة الأخرى، والتي تدور حول تأثير طبقة المولدين على المجتمع الأندلسي، وهي الخاصة بالثورات. وبدون أن نخوض فيها طويلاً لأنها ليست موضوعنا في الأساس، إلا أننا يمكن أن نقول بأن هذه الثورات، قد شكلت عبئاً كبيراً على أمراء وحلفاء بني أمية.<sup>(١)</sup>

وبسوقنا هذا للحديث عن ثورات المستعربين، وهي تلك الثورات التي حدثت من فتيان وفتيات مسلمين ومسلمات، بحكم الولد فأبائهم مسلمون وأمهاتهم نصارى. والأحداث في هذا الموضوع كثيرة، نسوق منها على سبيل المثال لا الحصر " قصة الفتاة فلورا Flora وصديقها إيولوجو Eulogio. وكانت تلك الثورة الشرارة التي اندلعت منها هذه الأحداث الدامية، في أيام الأمير عبد الرحمن الأوسط، وقد أظهرت تلك الأحداث أن كثيراً من المولدين لم يتأصل الإسلام في نفوسهم، ويصل إلى أعماقهم. وقد أورد سيمونيت Simonet أحداث القصة كاملة وبالتفصيل، وإن كانت أحياناً تخلو من المنطق، ويغلب عليها الطابع الإنشائي وملخصها. أن الفتاة " فلورا " Flora كانت ابنة رجل مسلم من زوجة نصرانية، توفي أبوها وهي طفلة، وربها أمها على مبادئ المسيحية، وكره الإسلام والدين الإسلامي. وكان لها أخ أكبر شديد التعصب لإسلامه. عندما كبرت الفتاة فرت من دار أبيها، والقت مع القس إيولوجو، وفتاة أخرى تدعى مارييا Maria. وفي النهاية وبعد عدة أحداث طويلة حكم عليهن بالحرق في سنة ٢٣٦هـ، نتيجة تجرأهن على الدين الإسلامي، والرسول ﷺ.<sup>(٢)</sup>

#### ١- للمزيد من التفاصيل عن ثورات المولدين راجع:-

ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب، جـ ١، ص ١٧٣، ١٧٥ الهادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص ١٧٠، ١٧١. عن عمر بن حفصون أمير زعماء المولدين، من ص ١٢٨ إلى ١٣٢، عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم، ص ١٢٩، ١٣٠.

R. Dozy: Spanish Islam. History of the Moslems in Spain, London, 1912, p. 312.

عن ثورة موسى بن موسى القسوي الذي أطلق على نفسه ثالث ملوك إسبانيا.

Lévi Provençal: Hist., Vol. I, p.226, 327, 228.

#### ٢- وراجع القصة كاملة بكل تفاصيلها في

Simonet: Historia de Los Mozarabes. pp. 413, 422.

الهادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص ١٥٧، عبد الحميد الهادي: العمل في تاريخ الأندلس، ص ١١٢، ١١٣.

Dozy: Hist. T1, pp 318: 399. 400. 401.

والخطر هنا أن كثيرات حاولن تقليدهن. لظهور مزاعم تقول بأنهن أصبحن بعد حرقهن (أي فلورنوماريا) في سلك القديسين والشهداء. وحاول كثير من الحمقى أن ينال هذا الشرف مثلهن. ومن خلال القصة السابقة يتضح لنا إلى أي مدى أثرت بعض النساء الأندلسيات، وخاصة المظرفات منهن من لم يتغلغل الإسلام في أعماقهن، فربن أولادهن تربية خاصة معادية للدين الإسلامي. وهذا لا يعنى أنهن كن السائدات، بل هن أقلية بجانب الغالية العظمى التي ساهمت وعن اقتناع في بناء هذا المجتمع الجديد.

أما عن أسباب تلك الثورات، وخاصة ثورات المولدين، فيرجع بروفنسال السبب الرئيسى إلى ضغط الضرائب الكثيرة، التي فرضت على الشعب من الحكام، الذين لم يكن جُلهم أن يزينوا خزائهم بما استطاعوا جمعه من أموال. ولتحت وطأة هذا الطغيان الجامع الضرائب، ظهر هذا السخط وخاصة في طبقة المزارعين الذين كانوا مكلّين بالعديد من الواجبات.<sup>(١)</sup> وإن كنا لا ننفي هذا الرأي، إلا أن الرأي الأقرب للصواب، هو ما ذكره الفرنسي جيتار: من أن المرأة الإسبانية كانت تهيئ للطفل من الرجل العربي، وسطاً إسبانياً صرفاً، حيث تتم تربية أطفال العائلة وخاصة في السنوات الأولى من أعمارهم، على مبادئ الأم وعقائدها، بعيداً عن الزوج المشغول دائماً بأعباء العائلة.<sup>(٢)</sup> والواقع أن هذا الرأي يبدو أقرب إلى الصواب، وعامل أساسى في ظهور تلك الثورات وغرأ المولدين ضد العصر العربي. وكانت نهاية المولدين الفعلية، كعامل مؤثر في الدولة الأموية في أوائل القرن الرابع الهجرى، مع وفاة عمر بن حفصون سنة ٣٠٥ هـ - ٩١٨ م. وكان موته بداية النهاية للمولدين كطبقة، فقد اندمجوا وذابوا بعد ذلك في المجتمع الأندلسي، بحيث أضحت من الصعب تمييزهم عن غيرهم.<sup>(٣)</sup>

#### رابعاً: أثر السراى والجوارى في مجال الحياة الاجتماعية في الأندلس

##### " فن الغناء والموسيقى "

كان فن الغناء مقصوراً عند العرب في جاهليتهم على حدائهم للإبل، وكانوا يسمون الترم غناءً. إذا كان بالشعر، فلما ظهر الإسلام فتح المسلمون بلاد فارس والشام ومصر. غلبت عليهم حياة الترف والرفقة، وتفرغوا لملاذ الحياة ونعيمها، واستلهموا موسيقى الفرس والروم، واشتهروا بشون الغناء والموسيقى الموالى دون العرب.

١- Lévi Provençal: Hist., Vol. I, pp 227, 228.

٢- Guichard: Op, cit, p 123.

٣- لعادة كُحيلة: تاريخ النصارى في الأندلس- ص ٤٣.

وقدم المغنون القرس والروم إلى الحجاز، وغنوا بالعبدان والطنابير والمعازف والمزامير. وفي الشرق ازدهر فن الغناء والموسيقى في عصر الدولة العباسية. وبلغ ذروته في عهد الرشيد.<sup>(١)</sup> وكان لهذا الازدهار في المشرق تأثير كبير على فن الغناء والموسيقى في الأندلس، سنعرفه في سياق الأحداث القادمة. وفي مكة والمدينة ظهرت المدارس الموسيقية الأولى في الإسلام، وهي عبارة عن الموسيقى العربية الأصلية، ومختلطة ببعض المؤثرات البيزنطية والفارسية نتيجة للتوسع العربي في تلك البلاد. وكان هناك تنافس بين مكة والمدينة في هذا اللون من الموسيقى والغناء. مما ساعد على ازدهاره. وسرعان ما انتقل هذا الفن إلى الأندلس عن طريق الجوارى. والمغنين، والغنيات الذين كانوا رسل الفن آنذاك.

ولا شك أن هؤلاء الفنانين نقلوا معهم إلى جانب الفن والموسيقى. الكثير من مظاهر الحضارة الاجتماعية، والثقافية، التي كانت مزدهرة بالحجاز في ذلك الوقت.<sup>(٢)</sup>

وما كاد العرب الغاربون في إسبانيا يتنمون فتح هذه البلاد، حتى أخذوا يلمسون الراحة بعد المعركة، ويمنون غمار انتصارهم على دولة القوط الغربيين. وكان طبعاً أن يؤلفوا العصر الحضري التقدمي المتلف. كما كانوا يؤلفون العصر العامل المتشح عصب الحياة الاجتماعية، فلم يكن هناك فن إسلامي بمعنى الكلمة في الفترة التي تبعت الفتح.<sup>(٣)</sup>

وأهل الأندلس بطبيعتهم يحبون اللهو، ويعرمون بالغناء. وقد وصفهم ابن غالب الأندلسي صاحب كتاب "فرحة الأنفس" قائلاً: "أهل الأندلس عرب في الأنساب والعزة والأنفة وعلو المم. وفصاحة الألسن، وطيب النفوس، وإباء الضيم، وقلة احتمال الذل، والسماحة بما في أيديهم، والراحة عن الخضوع، وإتيان الدنيا، ثم عدد من فضائلهم، واختراعهم للموشحات، التي استحسناها أهل المشرق وصاروا يوعون مزوعها. وقد ازدهر عندهم فن الغناء والموسيقى، وألفوا فيه التوايف الكبرى".<sup>(٤)</sup>

ويعتبر عصر دولة بني أمية في الأندلس، العصر الذهبي لفنون الغناء والموسيقى، وما يتبعهما من فوق اللهو والرقص، والتبريج، والألعاب، والقكاهة.<sup>(٥)</sup> فقد شهد قيام الدولة الأموية دفعا متواصلًا بتشجيع أمراء بني أمية لهذه الحركة العلمية، والفنية، في قرطبة الحاضرة. ولقد اعتبر فن الغناء والموسيقى والرقص في الأندلس، منذ طليعة القرن الثالث الهجري، أكثر وسائل اللهو شيوعاً

١- السيد عبد العزيز سالم: دائرة معارف الشعب، العدد (٦١) ص ٩٩.

٢- العيادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص ١٢٠.

٣- عبد العزيز سالم: نفس المرجع، العدد (٦١)، ص ٩٩، ٩٨.

٤- عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص ١٠٠.

٥- عبد العزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، ج ٢، ص ٨٣.

وتنشأ في المجتمع الأندلسي. ولم تكن مجالس الأُنس التي يقصدها الكُراء والأعيان في قرطبة. مجالس حقيقية، ما لم يصحبها غناء على نغم عود أو مزمار، وما يتبع ذلك من حركات إيقاعية والمصاة بطبيعة الحال.<sup>(١)</sup>

ولم تكن مسألة إعداد الفتيات والجواري لاتقان الغناء والموسيقى متروكة للصدقة، وإنما كانت تربية الفتيات، تتضمن تعليمهن الموسيقى، وتدريبهن عملياً العزف على العود والرباب، وأدوات موسيقية أخرى. وكان من عادة بعض الأسر القرطبية، أن يجعلن الفتيات يغنين بالتناوب في حفلاتهم الخاصة.<sup>(٢)</sup>

ولم يكن حب الغناء والموسيقى وفقاً على الرجال النبلاء، وإنما كان القاسم المشترك بين الناس جميعاً. فالحكام شأن القواد. والحرفيين. والشعراء كانوا مفتونين بها صبا، وبعضهم لم يفلح عند حد الاستمتاع، وإنما كانوا موسيقيين فعلاً.<sup>(٣)</sup>

وكان العود أكثر الآلات الموسيقية انتشاراً، واستخداماً.<sup>(٤)</sup> ويذكر لنا ابن بسام: عن إحدى المغنيات، اللاتي تم إعدادهن، وتربيتهن، ثم بيعت إلى أمير "السهلة" بثلاثة آلاف دينار. وكانت شيئاً رائعاً في عصرها. ويضيف ابن بسام: كانت واحدة القيان في وقتها، لا نظير لها في معناها، لم ير أخف منها روحاً ولا أملح حركة، ولا ألين إشارة، ولا طيب غناء. ولا أجود كتابة، ولا أملح عطاء. ولا أبرع أدباً، ولا أحضر شاهداً، على سائر ما تحسنه وتدعيه، مع السلامة من اللحن فيما تكتبه وتغنيه، إلى الشروع في علم صاخ من الطب، ينسبط بها القول في المدخل إلى علم الطبيعة، وهينة تشريح الأعضاء الباطنة، وغير ذلك، مما يقصر عنه كثير من مستحلي الصناعة، إلى حركة بدية في معالجة صناعة الثقاف.<sup>(٥)</sup> والمجادلة بالحجة، واللعب بالسيف والأسنة والخناجر المرفهة، وغير ذلك من أنواع اللعب، لم يسمع لها بنظير، ولا مثل ولا عديل.

ومن هذا النص الذي أورده ابن بسام. نعرف كيف كان يتم إعداد هؤلاء الجواري، بثقافة كبيرة. ومهارات عالية، في جوانب متعددة ويذكر: أيضاً أن الموسيقات والمغنيات. كن يتجمعن في

١- عبد العزيز سام: قرطبة، ص ٧٨.

لنقل جنطاليث بالنيابة: تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة الدكتور/ حسين مؤنس. الطبعة الأولى، مكتبة النهضة المصرية، مايو ١٩٥٥، ص ٥٥.

٢- هنري بوم: الشعر الأندلسي في عصر الطوائف، ص ٢٣٢.

٣- هنري بوم: نفس المرجع، ص ٢٣٢.

٤- هنري بوم: نفس المرجع، ص ٢٣٣.

٥- الثقاف: أي الفروسية وهي لعبة راقصة. كانت الرافعات يقلدن فيها الفرسان في ساحة القتال وتحليل للتحفة في تلك الرقصات من الحلب.

فرقة حملت اسم " الستارة " أخذت من كلمة الستارة. وكانت تستخدم كما في المشرق، لتسترهن عن نظرات المدعوين.<sup>(١)</sup>

واشتهر أيضاً في هذا المجال. مجال إعداد المغنيات، " ابن الكنانى " وهو طيب ثلثان، وجد في القرن " الخامس الهجرى " الحادى عشر الميلادى. وكان يعنى عناية خاصة بتلميذاته، ويحسن إعدادهن. فجهداً لبيعهن بأثمان غالية، مبالغ فيها.

ويذكر ابن الكنانى عن نفسه، كيف كان يعد هؤلاء الجوارى. لكي يصبحن نجيدات فيقول " أنا مُسبب الخجالة، فضلاً عن أهل الغرامة، والجهالة. واعتبر ذلك بأن في ملكي الآن أربع روميات، كن بالأمس جاهلات، وهن الآن عاقلات، حكيماً منطقيات، فلسفيات، هندسيات، موسيقيات، أسطرلابيات، معدلات، نجوميات. نجوميات، نجوميات، نجوميات، عروضيات، أدبيات. خطاطات... إلخ.<sup>(٢)</sup>

ولكن يمكن أن نعتبر، أن أكبر مدرسة لتخريج هؤلاء الجوارى المعدات إعداداً جيداً في صناعة الغناء والموسيقى، حدثت على يد عبقرى الموسيقى والغناء الأندلسي زريباب.<sup>(٣)</sup>

ويبالغ Dozy قليلاً حين يصرح، بأن رابع الأمراء الأمويين في قرطبة Corduba قد ترك حياته، وترك ذاته كامرئ تحت تحكم فقيه، وهو يحيى بن يحيى الليثي، وعازف موسيقى، هو زريباب، وإمرأة هي طروب، ورجل ليس ذو مكانة عالية، هو نصر " الخصى "، غير أن قراءة مؤرخات ابن حيان تبعد كل البعد عن تأييد مثل هذا الانطباع، الذي ذكره Dozy، لأن عصر عبد الرحمن

١- هنرى بروس: المرجع السابق، ص ٣٣٧.

٢- ابن بسام: الذخيرة في بحران أهل الجزيرة، ج ٣، ص ٣٢٠، ٣٩١. هنرى بروس: نفس المرجع، ص ٣٣٦، ٣٣٧.

٣- زريباب: معناه الطائر الأسود الجميل الصوت أنظر:-

Palencia: Historia de la Literatura Árabe Española, Barcelona, 1945, p.23.

و " زريباب " هو أبو الحسن علي بن نافع. جاء إلى إسبانيا سنة ٢٠٦هـ - ٨٢٢م. ومات في نفس السنة التي مات فيها عبد الرحمن الثاني " الأوسط ". ويذكر / ليبي بروفسال، أنه مات في سنة ٢٣٨هـ - ٨٥٢ م. وقد جدد الكثير في الموسيقى الأندلسية وفن الغناء. وكان له السبق فيما عرف بالأغاني القصيرة أو " الطفاطيق ". وللمزيد عن زريباب، حياته، وشعره، وأخلاقه، وموسيقاه، وتلاميذه، أنظر:-

(1) Lévi Provençal: La Civilisation Arabe en España, Buenos Aires, 1953, pp. 67, 68, 69.

(2) Nykl: Hispano Arabic Poetry, p. 27.

عبد العزيز سامح: دائرة معارف الشعب، العدد (٦١) ص ١٠٢، ١٠٥ عبد العزيز سامح: قرطبة حاضرة الخلافة، ج ٢ ص ٩٤، العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص ١٤١. ويضيف الدكتور / العبادي. أن زريباب، انتقل إلى الأندلس، ونقل معه الحياة الغرائبية. بمظاهرها الفنية والاجتماعية، ولبيت مدرسته الموسيقية المشتهرة في شخصه، وفي أبنائه وبناته وجواربه. نجاحاً كبيراً، بالنسبة: تاريخ الفكر الأندلسي، ص ٥٤.

الأرسط. معروف بأنه " ذروة عصر الإمارة في قرطبة في كل مناحي الحياة ". فهو الذي نقل الأندلس من البداوة إلى الحضارة، كما قيل وذكر من المؤرخين.<sup>(١)</sup>

ونستخرج من النص السابق، إلى أي مدى وصل زرياب بموسيقاه، وجواريه، إلى الحد الذي وضعه بجوار أعلى قمة في الأندلس، حاكمها، بل يُشبهه بأنه كان له دور كبير، في التأثير على أميرها.

ولقد صور المؤرخون، الذين تناولوا حياة زرياب، وموهبته، في مهنته الأصلية، ألا وهي الموسيقى والغناء. على أنه مبدع عبقرى، جاء إلى أرض إسبانيا، التي استقبلته بالترحاب الشديد. وقد أنشأ زرياب فرقة موسيقية متكاملة كانت فيها الموسيقى الأندلسية، التي تقترب كثيراً من المدرسة الشرقية المتشعبة في طريقة غناء " إسحاق الموصلي " والقادرة على أن تكتسب المسحة الشمية التي تضيء حيوية على التراث في الغرب الإسلامي كله، كما يرجع إلى " زرياب " الفضل أيضاً في العديد من الاختراعات الفنية من أهمها العود ذو الخمسة أوتار، الذي حل محل العود ذو الثلاثة أوتار، الذي كان مستخدماً فقط حتى ذلك الوقت. والعديد من الاختراعات الأخرى.<sup>(٢)</sup>

وكان لزرياب عشرة أبناء يمارسون الغناء.<sup>(٣)</sup> ونبع أولاده الثمانية الذكور في الغناء، وبناته غُسلية وحدونة، وهما أيضاً مارسا الغناء.<sup>(٤)</sup>

ويذكر المقرئ: أن حدونة تقدمت في صناعة الغناء على أهل بيتها، فأحسنت الصناعة، وتقدمت على أختها غُسلية، وتزوجت حدونة من الوزير هشام بن عبد العزيز، وماتت قبل أختها غُسلية، التي طال عمرها، ولم يسبق من أهل بيت زرياب غيرها، فافتقر الناس إليها، وحملوا عنها.<sup>(٥)</sup>

ويوضح لنا من النص السابق مدى حاجة الناس إلى الصنعة الأصلية في الغناء، والتي تعودوها من زرياب. وعندما مات لم يجدوا أمامهم سوى ابنته والتي ورثت الفن الأصلي عن أبيها، حتى صارت مقصداً لمن يريد الجودة في تلك الصنعة.

كما يوضح لنا النص أيضاً، عدم تخرج الوزير من الزواج من ابنة زرياب حدونة، وهي مغنية في المقام الأول. بل يمكن أن يكون اتفاقاً لتلك الصنعة هو ما جعلها تصل للزواج. برجل وصل إلى

١- E. Lévi Provençal: Hist. T.I, pp. 270, 271, 275.

٢- Lévi Provençal: op. cit., T.I, pp. 270, 271.

العادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص ١٣٢.

٣- Provençal: La Civilisation, p. 69.

Nykl: Hispano Arabic, p.27.

٤- مائل: دائرة معارف الشعب. العدد (٦١) ص ١٠٢.

٥- المقرئ: غلق العُقب، جـ ٣، ص ١٢٩، ١٣٠، ١٣١.

رتبة الوزارة. حول هذا المعنى أيضاً يضيف الأستاذ الدكتور/ عبد العزيز سالم قائلا: إن إجابة جدونة بنت زرياب وتفوقها في الغناء، والشهرة الكبيرة التي وصلت إليها، ولعل ذلك كان من الأسباب التي دعت الوزير هشام بن عبد العزيز، وزير الأمير محمد بن عبد الرحمن، أن يتزوجها.<sup>(١)</sup> ومن تلميذات زرياب التابعات أيضاً " مصابيح " جارية الكاتب أبي حفص عمر بن قهليل، التي أخذت عن أساتذها زرياب فن الغناء، وكانت في غاية الإحسان والنبيل، وطيب الصوت. وفيها يقول: ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد وكتب به إلى مولاه:

يا من يطن بصوت الطائر الغرد

ما كنت أحسب هذا الضن من أحد

لو أن أسمع أهل الأرض قاطبة

أصغت إلى الصوت لم ينقص ولم يزد

فخرج مولاه حافياً، لما وقف على تلك الأبيات، وأدخله إلى مجلسه وفتح بسماعها.<sup>(٢)</sup> وكان لزرياب جارية أخرى اسمها " متعة " وكانت تلميذته الأثيرة لديه، أدها، وعلمها أحسن أغانيه \* وكانت بارعة الجمال \*.

وقد كان جماعها، وحسن صوتها، سبباً في حظوظها عند الأمير عبد الرحمن بن الحكم الأوسط. فلقد جلست يوماً بين يديه تغنيه مرة، وتسقيه أخرى. حتى نالت إعجابه، وفطنت هي إلى ذلك، رغم محاولات الأمير. إخفاء ما بنفسه فغنت هذه الأبيات:-

يا من يغطي هواً      من ذا يغطي التهاراً؟

قد كنت أملك قلبي      حتى علقت قطارا.

يا ويلنا أترأ      لي كان أو مستعارا.

يا بساي قرشي      خلعت فيه العبدلارا.

فلما انكشف أمرها لزرياب، وعرف أنها راقت الأمير، وراقها، أهداها له فحظيت عنده.<sup>(٣)</sup>

١- السيد عبد العزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، جـ ٢، ص ٩١، ٩٢.

٢- المقرئ: نقح الطيب: جـ ٣، ص ١٣١ عبد العزيز سالم، نفس المرجع، جـ ٢، ص ٩٣ بالتحية: تاريخ الفكر الأندلسي، ص ٥٤.

٣- المقرئ: نفس المرجع، جـ ٣، ص ١٣١. بالتحية: نفس المرجع، ص ٥٤: عبد العزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة، جـ ٢، ص ٩٢ عبد العزيز سالم: دائرة معارف الشعب، العدد (٦١) ص ٩٠٢.



وكان زرياب يلحن أشعاره بنفسه، وذكروا بأنه أدعى بأن الجن كانت تعلمه كل ليلة ما بين نوبة أي " دور " إلى صوت واحد، وأنه كان يهب من نومه سريعاً، فيدعو حارثته غسراً، وهسيده قباخذان عودهما. ويتناول عوده ويطارحهما ليلته، ثم يكسب الشعر، ويعود عجلًا إلى مضجعه. ومع ذلك فقد كان زرياب في بعض الأحيان، يغني أشعار غيره، وخاصة المشاركة، أمثال "أي العذائية".<sup>(١)</sup>

ويأخذنا الحديث بعد ذلك، إلى ذكر القيان، الواقعات من المشرق، وما أكثرهن، وقد أخذن في الوفود على الأندلس، منذ قيام الدولة الأموية. وحتى نهايتها بدون انقطاع.

وكان أول هؤلاء القيان، المغنية المدنية، أي التي وفدت من المدينة المنورة " عصفاء " والتي أتارت إعجاب الأندلسيين بفنائها.<sup>(٢)</sup>

وبعدنا المقرئ عن قصة طريفة، حدثت حول هذه الجارية. فقد كانت في دار مسلم بن يحيى الزهرى. وكان شكلها ليس جميلاً، وكانت غيفة جداً إلى درجة اهزال، فهزئ منها الأرقمي، الذي كان قد جاء خصيصاً لسماعها، بناء على دعوة من مولايها، ولم يعجبه شكلها، فقال له صاحب الدار، لا تصجل في حكمك عليها، وأخذت عودها وغنت:-

بيد الذي شغف الفؤاد بكم      تفريح ما لقي من اثم  
فاستيقني إن قد كلقت بكم      ثم الفعل ما شئت... الخ

فحسنت في عينه، ثم زادت في الغناء، فزادت حسناً، إلى أن جعلت الأرقمي من فرط إعجابه بها، يخرج عن وقاره، ويخلع طيلسانه، ويلقي به ويأخذ شاذكونة (وهو غطاء السرير) ويضعها فوق رأسه، ويتناول قواير الدخن ويضعها فوق رأسه، راقصاً لها فتكسر، ويسيل الدهن عليه، دون أن يدري من شدة إعجابه بحسن غائلاها، وصوتها.<sup>(٣)</sup>

وقد جعلت العجفاء إعجاب الناس بصوتها، يصل إلى الأمير عبد الرحمن بن معاوية " الداخل " فيشتريها.<sup>(٤)</sup> وأحب عبد الرحمن بن معاوية جارية أخرى اسمها " دعجاء " واشتراها أيضاً،<sup>(٥)</sup> ولكن

١- المقرئ: المصدر السابق، جـ ٣، من ١٢٦-١٢٥، عبد العزيز سالم: قرطبة، جـ ٢، ص ٨٩، عبد العزيز سالم: دهر معارف الشعب، العدد (٦٦) ص ١٠٢.

Dozy: Historia de Los Musulmanes, T.I, pp. 384, 385

٢- العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص ١٢٠.

٣- المقرئ: نفس المصدر، جـ ٣، من ١٤١، ١٤٢، إميليو غرسية غوث: الشعر الأندلسي، ص ١٠، ١١.

٤- مصطفى الشكعة: الأدب الأندلسي، ص ٤٤، ٤٥.

٥- سالم: نفس المرجع، جـ ٢، ص ٨٦.

عصر الخناء الذهبي في الأندلس بصفة عامة، وفي قرطبة بصفة خاصة، كان في عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط (٨٢٢-٨٥٢ م). فقد كان شاعراً، وأديباً بعيد الهمة والغايات. وهو أول من اتخذ رسوم الإمارة، وأتمها واستقدم المغنين، والمغنيات، إلى الأندلس. وأجزل لهم العطاء، وأجرى عليهم الرواتب، فنظم فن الخناء والموسيقى بالأندلس بالتقاليد البيزنطية المحلية الموجودة أصلاً في إسبانيا، بالإضافة إلى التقاليد الشرقية التي أخذت تغد في موجات متتابعة من الشرق العباسي، منذ عهد الأمير عبد الرحمن بن معاوية الدخول ٧٥٥ - ٧٨٩ م.<sup>(١)</sup> حتى نهاية الدولة الأموية في الأندلس، وما بعدها. ويقال أن " الرصاة " ليست إلا قصصاً في المزاج غالباً وتلك الصفة لا توجد في الأندلسيين، فالجانب الأكبر من حياتهم، أوقفوه على وصف مغامراتهم القرامية " البهجة صحة وكأس لا تفرغ وموسيقى، لا تتوقف " وكلها شواهد كافية على ميلهم إلى إرتشاف الحياة حتى آخر قطرة.<sup>(٢)</sup>

ومن كثرة شغف الأمير عبد الرحمن بن الحكم الأوسط، وحيه للغناء والموسيقى، بنى قصراً لمغنياته الوافدات من المشرق، عرفت بدار المدينيات.<sup>(٣)</sup> والمدنيات كن ثلاث جوارى، هن قلم، وفصل، وعلم.<sup>(٤)</sup>

وأطلق عليهن المدينيات، لكونهن من بلد الرسول ﷺ، وتربين في المدينة المنورة، وتعلمن فيها فن الغناء.<sup>(٥)</sup> وقلم هذه رغم أنها نشأت في المدينة، ليست مشرقية الأصل وإنما بشكنسية، أسرت صغيرة، في حلة على نيرة Navarra شمال شرقي الأندلس، ثم حُملت إلى المدينة، وفيها مرت بكل مراحل التعليم التي يجب أن يجتازها كل من تعد نفسها لتكون مغنية، حتى إذا مهرت في الغناء، والأدب، والحظ. وفي حفظ الشعر بخاصة، ليل الأمراء وعامة الشعب إلى تذوق الشعر الجيد. واشتهر الأمير عبد الرحمن الثاني الأوسط. وكان دون أدنى شك يقدرها كثيراً؛ لأنها حتى مع إقامتها الطويلة في المشرق، ظلت محفظة بلوغها الأشقر صافياً جميلاً. ونحن نعرف أن الأمويين، كانوا مغرمين بالشقراوات.<sup>(٦)</sup>

١- سالي: دائرة معارف، العدد (٦٦) ص ١١٠٠ سالي: نفس المرجع، ج ٢. ص ٨٧.

٢- هنري يورم: الشعر الأندلسي، ص ٣١٧.

٣- العبادي: في تاريخ لغزب والأندلس، ص ١٢٠.

٤- بالنسبة: تاريخ الفكر الأندلسي، ص ٥٤.

٥-

Lévi Provençal: Histoire. T.I. p. 268.

٦- هنري يورم: نفس المرجع، ص ٤٥، ٤٦: عبد العزيز سالي: قرطبة حاضرة الخلافة، ج ٢. ص ٨٦.

وكانت قلم مع صديقتها علم. وفضل. تدير أوركسترا غنائي في ندبة في قصر الإمارة.<sup>(١)</sup> ويذكر "المصري" أن فضل كانت حاذقة الغناء. كاملة الحفص، وأصلها لإحدى بنات هارون الرشيد، ونشأت وتعلمت ببغداد. ودرجت

من هناك إلى المدينة المنورة، فازدادت في معرفتها. واشترت من هناك للأمير عبد الرحمن الأوسط. مع صاحبها علم. وقلم.<sup>(٢)</sup>

ومن هؤلاء الجوّاري، جارية ظهرت في عهد الأمير محمد بن المنذر، اسمها "طرب" أهداها أحد التجار إلى الأمير المنذر. وكانت على درجة كبيرة من الجمال، مع حظ كبير في الإتقان في صفة الغناء. وحسن الأداء. فما كاد يسمعها الأمير المنذر، حتى أخذت بمجامع قلبه، وقبل الهدية، بعد أن وهب التاجر الذي أهداها له ألف دينار. وأيضاً "جيجان" جارية الأمير عبد الله بن المنذر. كانت مغنية حاذقة.<sup>(٣)</sup> كذلك بعث الخليفة عبد الرحمن الناصر في سنة ٣٣٤هـ، ورغم أعباءه الثقيلة في الداخل والخارج بسفينة إلى المشرق. لشراء عدد من الفتيات من الاسكندرية. وعادت السفينة مشحونة بعدد من الجوّاري والمغنيات.<sup>(٤)</sup>

وفي عهد الحجاب المنصور بن أبي عامر، ذاعت شهرة المغنية أنس القلوب.<sup>(٥)</sup> ويورد ابن الخطيب: إن كان هذا في فترة متأخرة عن موضوعنا، ولكنها تظهر شعف الأندلسيين بالغناء والموسيقى ويقول: إن الغناء كان قابلاً حتى بدكاكين الحرفيين، والاحتفالات كانت تستغرق شطراً كبيراً من الليل. وشوارع غرناطة كانت مكتظة بمجهور غفير، فالرجال والنساء كانوا يمشون بعضهم بالماء المعطر. ويترامون بالبرتقال. والليمون، وباقات الأزهار، وتجدد الإشارة هنا إلى تطور وضع المرأة، التي أصبحت حسب ما يبدو تمتع بالحرية الاجتماعية، التي تسمح لها بالمشاركة في الحياة العمومية.<sup>(٦)</sup>

ومن النساء الداعيات إلى الأندلس من المشرق "قمر" جارية ابنهيم ابن حجاج اللخمي أمير إشبيلية. وقد بعث بأموال عظيمة لشراؤها، بعدما سمع بها في بغداد. وكان قد بلغه ما وصلت إليه

١- Lévi Provençal Hist., t.I, p. 268.

٢- مصري. فتح الطيب، ج ٣، ص ١٤٠، سالم: قرطبة حاضرة الخلافة، ج ٢، ص ٨٥، ٨٦، سالم: دائرة معارف الشعب، عدد (٦١)، ص ١٠٠.

٣- سالم: نفس المرجع، ج ٢، ص ٩٤، ٩٣.

٤- سالم: نفس المرجع، ج ٢، ص ٩٤.

٥- مصطفى الشكعة: الأدب الأندلسي، ص ٨٩، وراجع قصة أنس القلوب مع المنصور بن أبي عامر، ص ٥٨.

٦- تميزد من التفاصيل: حول الاختلاط بين النساء والرجال. في غرناطة في الأماكن العامة. وراجع حداد حجاجي: حياة بن زمر، ص ١٥، ١٦.

من شهرة في الغناء والفصاحة والمعرفة بصوغ الألقان. فقدمت قبر، واستقرت في بلاطه بإشبيلية، ومن أغانيها في مدحه:-

ما في المغارب من كريم يرنجسي      إلا حليف الجود إبراهيم  
إلى حلت لديه منزل نعمة      كل المنازل ما عداه ذمهم

ويذكر بروس أن معاملتها الراقية، قد تركت تأثيراً طيباً في نفس وأخلاق سيدها، والرجال الذين حوله. وقد كان بهم شيء من جفاف وعشونة، أسهمت بفصاحتها اللطيفة، واستعدادها الطبيعي، لقول الشعر في إشاعة تذوق الأدب العراقي. وكانت تحفظ كل روائعه عن ظهر قلب.<sup>(١)</sup> ولم يكن فن الغناء والموسيقى حكراً على القيان والجواري فقط، وإنما شاركت الحرائر، ونساء الأمراء، والخلفاء، وباقهم في هذا الفن أيضاً. فيذكر لنا ابن حزم أن "ضنا" العامرية كريمة المظفر عبد الملك بن المنصور بن أبي عامر، اقترحت عليه أن يصنع لها أبياتاً من الشعر، واقرحت عليه أفكار تلك الأبيات لتصنع لها حناً، وتغنى به.<sup>(٢)</sup>

ويدل هذا على مدى معرفتها بالموسيقى، وصياغة الألقان، إلى الحد الذي تستطيع به أن تصنع الألقان لنفسها، فلا بد أنها كانت ذات موهبة، ودراسة متعمقة في الموسيقى. ومن برع أيضاً في فن الغناء من أبناء وبنات الأمراء والخلفاء، الأميرة ولادة بنت الخليفة المستنقي، وكان لها صعة في الغناء، ومن مغناها أيضاً مغنية اسمها عبة.<sup>(٣)</sup>

ونرى من خلال ما ذكرناه مدى الدور الكبير الذي لعبته التاليفات الشرقية، التي وفدت على الأندلس. ووضحت بصفة خاصة في مجال الغناء والموسيقى. وهذه التاليفات تركت بصمتها على كل نواحي الحياة الأندلسية، ولكنها برزت بشكل أكثر وضوحاً، في تلك القطعة بالذات. ويبدو أنها ظهرت نتيجة شغف الأمراء، وخاصة الأوائل منهم، وحبهم إلى معرفة كل ما هو جديد على الساحة الشرقية. التي كانت متقدمة كثيراً في هذا المجال، وأيضاً لقرب عهد الفتح بهم، وحبهم الدائم إلى معرفة كل ما يجري على الشاطئ الآخر في الشرق، الذي تركوا فيه جذورهم. قبل يأتوا إلى تلك المناطق الجديدة.

١- عن قبر راجع:

ابن عذاري: البيان المغرب، جـ ٢، ص ١٢٩، ١٩٤ المقري: لفتح القليب، جـ ٣، ص ١٤٠، ١٤٦  
عبد العزيز سائق: تاريخ المسلمين وآثارهم، ص ٢٥٨؛ قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، جـ ١، ص ٥٨، جـ ٢، ص ٩٤، الشكعة: نفس المرجع. ص ١٤٤ هنري بروس: "الشعر الأندلسي"، ص ٤٦.

٢- المظاهر مكي: دراسات عن ابن حزم، ص ٧٩، ٢٦٤.

٣- عبد العزيز سائق: قرطبة حاضرة الخلافة، جـ ٢، ص ٨٢، ٩٥.

وللمزيد عن ولادة انظر الفصل الثالث، ص ١٦٦.

ولم يقف الأندلسيون عند حد استقطاب تلك التأثيرات المشرقية، ولكنهم أخذوا واقتبسوا، وتوسعوا مشرقياً. ثم نراه بعد ذلك أنتجوا منتجاً جديداً، وهو ما سُمي " بالوشحات " التي غلبوا بها لُسب الشرق فيما بعد.

وتنحلي التأثيرات المشرقية أيضاً، علاوة على ما ذكرناه، في استخدام هذا الكم الخائل من الجواني والقيان، المدرجات تدريباً جيداً، هذه الفنون في الشرق الإسلامي.<sup>(١)</sup> هذا إلى جانب معاهد الموسيقى والغناء، التي أقامها زرياب في العاصمة قرطبة، لأعداد المغنيات والموسيقيات،<sup>(٢)</sup> وتعليمهن المعارف الموسيقية الأشد تنوعاً ورقياً.<sup>(٣)</sup> وتحتل أيضاً التأثيرات المشرقية في الموسيقى العراقية، التي أخذت تغزو الأندلس في أوائل عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط، وتحل محل الموسيقى المدنية السابقة عليها،<sup>(٤)</sup> والتي دخلت مع فييات المدينة الثلاث، ولقد شُغل الكثير من المؤرخين العرب بتلك الصناعة، وعلى رأسهم العلامة العربي " ابن خلدون " والذي أفرد في مقدمته التاريخية صفحات كثيرة، في التعريف بهذا اللون من الفنون:— مثال ذلك قوله أن فن الغناء صناعة تقوم على تلحين الأشعار الموزونة، بتقطيع الأصوات على نسب منتظمة معروفة... إلخ.

يضيف ابن خلدون أيضاً: أن الغناء يحدث في العمران، إذا تجاوز حد الضرورة، فإنه لا يرغب في هذه الصناعة، إلا من فرغ من جميع حاجاته الضرورية ولا يطلبها إلا الفارغون عن سائر أحوالهم، فتنشأ في مذاهب اللذة.<sup>(٥)</sup>

أما أدوات الطرب وآلاته بالأندلس، فكثيرة، ويذكر ابن خلدون: أن منها ما يسمونه الشبابة. وهي قصبة جوفاء، مزودة بأنجاش " فتحات " في جوانبها معدودة، وينفخ فيها فصوص. ويخرج الصوت من جوانبها، والمزار من نوع هذه الآلة، يسمى أحياناً الزلامي، ومزود بقصبة صغيرة ينفخ فيها،<sup>(٦)</sup> والآلات المنحذة إما آلات فرع أو نفخ،<sup>(٧)</sup> أو آلات وترية مزودة بالأوتار المشدودة، وهي كثيرة، منها ما كان مستدير الشكل مثل الكريج الإسبانية Carrizo، والعود بالإسبانية Aloud، والروطة بالإسبانية Rota، والجيتار بالإسبانية Guitarra، والكثيرة بالإسبانية Citara،

١- عبد العزيز سالم: المرجع السابق، جـ ١، ص ٥٨، ٨١، ٨٥، ٥٩.

٢- الطاهر مكّي: المرجع السابق، ص ٤٠، ٤١.

٣- بيرس: الشعر الأندلسي، ص ٣٣٦.

٤- العادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص ١٤٠.

٥- راجع ابن خلدون: المقدمة، ص ٤٥٣، ٤٥٤ وما بعدها.

٦- ابن خلدون: نفس المصدر، ص ٤٥٧.

٧- سائر: دائرة معارف الشعب، عن فن الغناء والموسيقى، العدد (٦١)، ص ٩٩.

والرهاب بالإسبانية Rabel، والدلف بالإسبانية Adulfe.<sup>(١)</sup> وتلاحظ من هذه الأسماء، مدى تأثير اللغة الإسبانية بالكلمات العربية، التي مازالت تحفظ بها إلى هذا اليوم.

أما آلات الرقص، المستخدمة فكانت مختلفة، ويذكر ابن خلدون: أن آلات الرقص تسمى "الكرج"، وهي تماثيل خيل مُسرجة من الخشب، معلقة بأطراف أقيية بلبسها النساء وبهاكين بها امتطاء الخيل. فيكروون وبغرون ويتناقصون. وأمثال ذلك من اللعب المعدة للولائم والأعراس، وأيام الأعياد ومجالس الفراغ واللهو.<sup>(٢)</sup> وكانت هناك حركات والقصص، تنم عن طريق استخدام التماثيل أو السيوف أو بدونهما.<sup>(٣)</sup> والغناء والموسيقى والرقص أكثر وسائل اللهو شيوعاً في الأندلس، ولم تكن تخلو منها مجالس الأُنس، التي يعقدها علماء الفقه بقرطبة وغيرها.<sup>(٤)</sup>

ولستد على ازدهار فن الغناء والموسيقى والرقص في عصر الخلافة الأموية، من خلال النقوش الغفורה في العلب، والصناديق العاجية التي كانت تستجها دار الصناعة بقرطبة، وهي نقوش تمثل في بعض الأحيان مجالس أُنس وشراب.<sup>(٥)</sup>

ويؤكد بيرس على أن قرطبة، كانت تحكر الجوّاري والمغنيات، على عكس الشائع والمعروف، بأن إشبيلية هي مركز الغناء والموسيقى، على حد قول ابن رشد بأنه "إذا مات عالم بإشبيلية، فأريد بيع كتبه، حملت إلى قرطبة، حتى تباع فيها، وإذا مات مطرب بقرطبة، فأريد بيع آلاته، حملت إلى إشبيلية". ويؤكد بيرس على ازدهار قرطبة، ولكنها كانت تعمل في الخفاء، نظراً لأنها مركز الخلافة والشدد الديني. بعكس إشبيلية التي لم يكن عليها رقابة مثل قرطبة. فكل شيء فيها علانية، نظراً لمساحة الحرية فيها. بعكس قرطبة، المراقبة دائماً من قِبل رجال الدين، وتشديدهم عليها.<sup>(٦)</sup>

ويذكر بيرس كلامه هذا بتلقي أبو الوليد بن جهور "أمير المدينة" ثلاث رسائل في يوم واحد، واحدة من ابن صمداح، ويطلب جارية عوادة، والثانية من ابن عباد، ويطلب جارية زامرة، والثالثة من سفوت البرغواطيين، صاحب مدينة سبنة، يطلب قارناً للقرآن.<sup>(٧)</sup> ويذكر ابن بسام: أن مسيحي الشمال اتخذوا بعضاً من العادات الإسلامية، من بينها أن تكون لهم فرقة من الموسيقىات

١- سائل: المرجع السابق، ص ١٠٥.

٢- ابن خلدون: نفس المصدر، ص ٤٥٨.

٣- بيرس: الشعر الأندلسي، ص ٣٤٠، ٣٤١.

٤- Lévi Provençal: Histoire de L'Espagne Musulmana, T.III, Paris, 1953, p 448.

٥- عبد العزيز سائل: قرطبة حاضرة الخلافة، ج ٢، ص ٩٦.

٦- بيرس: الشعر الأندلسي، ص ٤٣٠.

٧- بيرس: نفس المرجع، ص ٤٣٠. وتعجب ابن جهور من هذا وقال: جاهل يطلب قارناً للقرآن، وعلماء يطلبون الأناطيل.

والمغنيات. ويؤكد ابن الكنايني هذا الواقع الذي تحدثنا عنه، عندما أشرنا إلى أكاديميات الموسيقى في قرطبة بقوله: «شهدت يوماً مجلساً مسيحية إسبانية» وهي بنت شالعة ملك البشكنس، زوج الناطقة شالعة بن غرمية، وترددوا عليه في الفترة عام (١١٣٢م) وكان في المجلس عدة فتيات مسلمات، من الألباني وهبهن له سليمان بن الحكم، أيام إمارته بقرطبة، فأومنت بنت شالعة إلى جارية منهن، فأخذت العود، وغنت. فأحسنت.<sup>(١)</sup>

ويدل هذا على تأثر المجالس المسيحية، وتقليدها مجالس جيرانهم المسلمين، وذلك لإعجابهم بملك المجالس الزامرة Zambras، فقلقوها لبلاطهم لتسليةهم.

ويبقى لنا الحديث عن فن الموشحات الأندلسية، ذلك الفن الذي أُنشج وأبدع في جميع مراحلها أندلسياً صرفاً؛ بدون أي تأثيرات خارجية، ولن أطيل في الحديث عنه، وكل ما يهم موضوعنا منه، أن المرأة كانت عاملاً مؤثراً في إخراج هذا الفن الجديد. فقد كانت الخرجة، وهي مركز الموشحة وبداية الغناء، لا بد أن تكون على لسان فتاة، تنغزل في الفتى، بعكس القصيدة العربية الشائعة والمعروفة، والتي تُمد فيها الرجل دائماً، هو البادئ والخب، والمرأة قاسية متكبرة معرصة.

وما يلي يوضح بداية الخرجة في الموشحة الأندلسية:-

ليل طويل

ولا معين

يا قلب بعض الناس

لا تلين

أنا أقول قوقو

ليس بالله تدوقو

والخرجة هنا إسبانية قوقو Cucco، ومعناها "الماكر"، فالوشاح سمع من محبوبته هذه العبارة. أنا أقول أنت مكار، ولن تنزوق طعم قليل. فاهزنت لها نفسه وجعلها مركزاً أو عرجه لموشحته.<sup>(٢)</sup>

١- ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، جـ ٣، ص ١٣١٨؛ يومس: المرجع السابق، ص ٣٣٨، ٣٣٩.

٢- العبادي: الإسلام في أرض الأندلس، ص ٦٩، ٧٠؛ العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص ١٧٣؛ عبدالعزيز الأحرار: الأغنية الشعبية أصل التوشيح "مجلة" العدد الثاني فبراير ١٩٥٧م.

ويقال أن مبتدع فن الموشحة شاعر من بلدة قبرة Cobre، جنوب شرق قرطبة. واسمه مقدم بن معالي القفري في أواخر القرن الثالث الهجري، الفاسح الهلالي. للمزيد انظر: العبادي: الإسلام في أرض الأندلس، ص ٦٩. العبادي: في تاريخ المغرب، ص ١٧٢؛ إميليو غرمية غوث: الشعر الأندلسي، ص ١٢؛ بروفيسال: سلسلة محاضرات عامة، ص ٢٣؛ سالم: دائرة معارف الشعب، عدد (٦٤) ص ٢٠٣.

ويعتبر هذا الفن الجديد ثورة في الشعر العربي وحركة من حركات التجديد فيه. وإذا كان المشرق قد أعطى المغرب القصيدة الشعرية، فإن المغرب وبالتحديد الأندلس قد أعطى المشرق الموشحة.<sup>(١)</sup> ويجمع مؤرخو الأدب على أن فن التوشيح نشأ في الأندلس، وازدهر في عصر ملوك الطوائف.<sup>(٢)</sup>

خامساً: العادات في الزى، واستخدام أدوات الزينة، والتزين بالخلّي والتطيب بالعطور.

#### أ- العادات في الزى .

أحدث عن الزى الأندلسي يكون عاماً على كافة المدن الأندلسية، لأن المصادر لم ترونا بأي إشارات عن أزياء أهل كل مدينة أو كورة (ولاية) على حدة. ولذلك يكون الحديث عن الأزياء عاماً، أي ينطبق على مدن وكور الأندلس ككل.<sup>(٣)</sup> ويروي ابن سعيد الغرناطي نصاً في غاية الأهمية يوضح مدى اعتناء أهل الأندلس بنظافة أجسادهم وملابسهم، ويقول: وأهل الأندلس أشد خلق الله اعتناء بنظافة ما يلبسون، وما يفرشون، وغير ذلك مما يتعلق بهم. وفيهم من لا يكون عنده إلا ما يقوته يومه، فيطويه صائماً، ويتنازع صابوناً، يغسل به ثيابه. ولا يظهر فيه ساعة على حالة تنبوع العين.<sup>(٤)</sup> كذلك ساهم " المغني العراقي أبو الحسن علي بن نافع الملقب " بزرياب " في نقل نزعة التجديد " المودة " البغدادية إلى الأندلسيين، في ثيابهم، وأزيائهم، وطريقة ارتدائها، واختيار ألوانها، وأنواعها. حسب فصول السنة، إلى جانب تعليمهم، طريقة تصفيف شعورهم، ورفعة علف الأذان، بدلاً من تركه مسلولاً على جباههم وأعينهم، وتعليمهم أيضاً طريقة الطهي العراقي، وضرورة الترتيب في تقديم الأطعمة بدلاً من وضعها دفعة واحدة، واستعمال الألوان الزجاجية، بدلاً من الألوان المعدنية، كما يسهل تنظيفها، إلى غير ذلك من الإصلاحات، التي عرفت باسم مراسم زرياب.<sup>(٥)</sup>

وإذا كانت الأندلس قد استفادت من نزعة التجديد والأناقة " المودة " والملابس المشرقية في عصر الأمير عبد الرحمن الأوسط، إلا أن ذلك فيما يبدو كان قاصراً في معظمه على الطبقة الأرستقراطية القرطبية بوجه خاص، ولم يمتد ذلك مطلقاً، أن يكون للأندلس مصانعها ومنسوجاتها

١- العبادي : في تاريخ المغرب والأندلس، ص ١٧٢.

٢- عبد العزيز سامي: قرطبة حاضرة الخلافة، ج ٢، ص ١٩٩ دائرة معارف الشعب العدد (٦٤) ص ١٠٢، ١٠٣، ٢٠٣، ٢٠٤، جودة الركابي: في الأدب الأندلسي، ص ٢٨٥ وما بعدها.

٣- سحر سامي: مظاهر الحضارة في بطليموس، ص ٢٨٤.

٤- المشككة: الأدب الأندلسي، ص ٨٢.

٥- العبادي: نفس المرجع، ص ١٤١، ١٤٢ وما بعدها. لقي بروفسال- سلسلة محاضرات عامة، ص ٧، بالنتيجة: تاريخ الفكر الأندلسي، ص ٥٤.



الخاصة بها، ومثال ذلك " مصانع المروة " Almeria التي كانت تنتج أقمشة شبيهة بالأقمشة الشرقية، وبنفس أسمائها مثل:- " الأصهبان (نسبة إلى أصهبان)، والجرجاني (نسبة إلى جرجان)، والعنابي (نسبة إلى محلة العنابة بغرب بغداد)، والسقلاطون Eskerlat الحربية الوردية (نسبة إلى بلاد اليونان في الأصل)، ثم انتشرت في المدن الإسلامية شرقاً وغرباً، أما الأقمشة ذات الريق الذهبي اللون، وتسمى أبو قلمون، ومعناه الحربية باليونانية. فكانت تصنع من صوف البحر، أو بالدقة من نبات بحري يلتقط من على شواطئ الأطلنطي، مثل شترين Santaren، وتنتجه مصانع أندلسية.<sup>(١)</sup>

واختصت مدينة المروة، بصناعة الخلل النفيسة، وقرطبة Granada بصناعة الملبى ذي الألوان العجيبة، ومرسية Murcia بالوشى، والبسط الصنعية، نسبة إلى تنطلة Tentela.<sup>(٢)</sup>

وكان الأمير عبد الرحمن الأوسط، أول من أنشأ من أمراء بني أمية الطراز بالأندلس، فأنشأ داراً للطراز في قرطبة، وفي هذه الدار كانت تسج لياب الأمراء والخلفاء، من الحرير المختم والمرقوم بالذهب، المختلف الألوان، وإن كانت هذه الصناعة، أضمحلت بعد سقوط الخلافة بقرطبة، فقلت عليها مدينة المروة.<sup>(٣)</sup>

وقد شغفت أوروبا المسيحية أيضاً بتلك الملابس الأندلسية، شغفاً شديداً، حتى إن عظماء وملوك المسيحيين، مثل الأمير دون فيليب، وزوجته، والمؤرخ دون رودريجو خيمينث دى رادا، قد وضعوا بعد موته، في أكفان نفيسة، من صناعة الأندلس، ومن نسج المروة.<sup>(٤)</sup>

ويذكر ابن خلدون: أن صناعة الملابس من أعمال الحضر والعمران، وأن أهل البداوة لا يحتاجون هذه الصناعة، لأنهم يشتملون الملابس اشتمالاً، أي يلقونها حول أجسادهم، وأن حياطة الملابس من مذهب الحضارة.<sup>(٥)</sup> وكان اللون الأبيض شعار الحزن عند بني أمية، فلما اتخذ ملبساً للصف، وتراجعت الناس إلى السواد.<sup>(٦)</sup> وهناك شواهد كثيرة خلفها لنا الأدب الأندلسي، تبرز

١- بروس: الشعر الأندلسي. ص ٢٨٣، عبد العزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة. ج ٢، ص ١٥١.

٢- سالم: دائرة معارف الشعب. العدد (٦٤)، ص ١٨٩.

٣- سالم: قرطبة، ج ٢، ص ١٥٤، ١٥٥ سالم: دائرة معارف الشعب. العدد (٦٤) ص ١٩٠.

٤- الشكعة: نفس الرجوع، ص ٨٣، ٨٤.

٥- ابن خلدون: المقدمة، ص ٤٣٨، ٤٣٩.

Dozy: Nomes Des Vetements chez les Arabes. Amsterdam, 1845, pp. 1, 2.

٦- بروس: الشعر الأندلسي ص ٢٦٦. غرسة غومس: الشعر الأندلسي، ص ١١. الطاهر أحمد مكي: دراسات عن ابن حزم، ص ٤٧.

فيها تلك العادة الأندلسية، في ارتداء اللون الأبيض للحداد.<sup>(٦)</sup> وقد اختلفت أزياء أهل البادية عن أهل الحضر، فمن الملاحظ أن أزياء أهل البوادي، اتسمت بالبساطة، فكانوا يرتدون الحبة المصنوعة من السج السميك، كذلك القمصان المعروفة بالدراعة، أو الجلاب المصنوع من الصوف الفتح في جزء منه.<sup>(٧)</sup> وكان زي المسلمين يختلف عن زي أهل الذمة. فقد كانت المرأة الذمية ترتدي الجلجل<sup>(٨)</sup> تفرقة لها عن نساء المسلمين.<sup>(٩)</sup>

أما أزياء النساء، فكان طابعها الأناقة، والنفاسة، والإسراف.<sup>(١٠)</sup> فقد عمدت النساء إلى الضن في لبس المصفات، والمذهبات، والدياجات من الملابس والتماجن في أشكال الحلي، إلى درجة الغلو، مما جعل المؤرخ الأديب ابن الخطيب يقول " نسأل الله أن يعضن عنهن فيها عين الدهر".<sup>(١١)</sup> وقد تنوعت ملابس النساء تنوعاً كبيراً، وتعددت أمتاؤها، إلى الحد الذي لم استطع معه ذكر جميع الأسماء. وقد اعتمدت اعتماداً كبيراً، في نقل هذه الأسماء " على كتاب معجم الملابس العربية " للمستشرق الهولندي " رينهاردت دوزي" Dozy، والذي خصص المعجم كله، لذكر تلك الملابس وأمتاؤها، بكثير من التفصيلات الدقيقة:

وبدا بأغطية الرأس، وأهمها " الطرحة ". وهي غطاء يوضع على الرأس، وينسدل إلى الخلف قليلاً، وطرحة النساء، أطول قليلاً من طرحة الرجال، وكانت الطرحة رقيقة، ومصنوعة من الكتان، أو القطن.<sup>(١٢)</sup>

ومن أغطية الرأس أيضاً العصاية، وهي قطعة من الصوف مربعة وسوداء ذات حواف حمراء وصغراء اللون، يتم ثباتها على هيئة مثلث، ثم تربط بها الرأس من الخلف. وتعد عقدة واحدة، وتستخدمها النساء.<sup>(١٣)</sup> ومن أغطية الرأس أيضاً " الغفارة ". وهي قطعة قماش تضعها المرأة بين رأسها والحمار، حتى لا يتسخ حمارها من الزيت، الذي تعطر به. وتضعه على شعرها، وغفارة "

١ - حول تلك الشواهد، راجع: بيوس: نفس المرجع، ص ٢٦٧، ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧٠.

٢ - كمال أبو مصطفى: مالقة الإسلامية، ص ٩٤ هامش (٤).

٣ - الجلجل: هو عبارة عن خلخال يحدث صوتاً مميزاً عند المشي تميزاً لها عن نساء المسلمين

٤ - الجرسيفي: رسالة في الحسبة. الرسالة الثالثة، ص ١٢٢.

٥ - الشكعة: المرجع السابق، ص ٨٥.

٦ - ابن الخطيب: للمحة البديرة في الدولة النصرية، القاهرة ١٩٢٨، ص ٢٧، الشكعة: نفس المرجع، ص ٤٧

٧ - Dozy: op. cit., pp. 257 - 262.

ويضيف دوزي: في معرض حديثه عن الطرحة، متى بدأ استخدامها في مصر. وخاصة في عهد مصر ولي حلب الشام. والمادة أو الحامة التي كانت تصنع منها. في كل من مصر والشام والأندلس

٨ - Dozy: op. cit., pp. 300, 303.

جمعها غفائر "، والفشطور أيضاً من أغطية الرأس للمرأة.<sup>(١)</sup> والتقاب نوع من الحجاب للمرأة. ولكنه مزود بفتحين صغيرين أمام العينين، حتى تتمكن المرأة من السير. وكان هذا التقاب يرتدى في الأندلس ومصر بين البدو.<sup>(٢)</sup> والعنابي نوع من "الخُسر"، تغطي بها النساء رؤوسهن. وعرفت هذه الثياب في أوروبا باسم تاي Tabis، هو تحريف واضح من كلمة عنابي.<sup>(٣)</sup> وكان يقصد بها الأقمشة الحريرية المموجة.<sup>(٤)</sup>

وكان يصنع الحمار من الكتان أو الحرير.<sup>(٥)</sup> وأما الدرع فهو قميص المرأة الكبيرة، واثبول قميص المرأة الصغيرة، وهو ثوب تجول فيه الجارية، أي تتجول به،<sup>(٦)</sup> واشتر أو الإزار، وهو ما يغطي الجزء الأعلى من الجسم.<sup>(٧)</sup> وكان إزار النصرانية أزرق، واليهودية أصفر، وذلك تمييزاً لمن عن نساء المسلمين.<sup>(٨)</sup>

ويوجد شيء آخر يشبه الإزار وهو الملحفة، وهو رداء كبير، تغطي به النساء عند خروجهن.<sup>(٩)</sup>

ومن ألبسة النساء أيضاً اللباس والسراويل. وهي ما تشبه البطلونات إلى حد كبير في عصرنا الحديث، ولكنها كانت فضفاضة<sup>(١٠)</sup> نوعاً ما. وقد كان كثير من الملابس، مشركاً بين الرجال والنساء، فكلهم يرتدى فوق البدن من أعلى قميصاً من الصوف، أو القطن، ومن أسفل السراويل، والكلمتان دخلتا في اللغة الإسبانية في صورة Zaraguelles, Camisa، وملابس الشتاء قليلة ومحشاة، بينما ملابس الصيف، كانت في العادة بيضاء خفيفة.<sup>(١١)</sup> ومن ألبسة المرأة أيضاً الخنسب.

١-

Dozy: op. cit. pp. 312 - 317, 337.

٢-

Dozy: op. cit. pp. 404 - 441.

ويطلق عليها دوزي أيضاً لفظ الجئة، بالجيم المضمومة، وهي تؤدي نفس وظيفة التقاب.

٣- العنابي: نسبة إلى همة العناية بغرب بغداد، واشتهرت بصناعة الحرير العنابي، التي لم تلبث أن انتقلت إلى مصر والأندلس.

٤- السيد عبد العزيز سالم: دائرة معارف الشعب، العدد (٦٤) ص ١٩٠، ١٩١.

٥- كمال أبو مصطفى: مאלقة الإسلامية، ص ٩٥.

٦-

Dozy: op. cit. pp. 132, 133

٧- هنري بروس: الشعر الأندلسي، ص ٣٥١.

٨-

Dozy: op. cit. p88

٩-

Dozy: op. cit. pp 401, 403.

١٠- عمر رضا كحالة: المرأة في عالمي العرب والإسلام، جـ ٧، ص ١٥٨، ١٥٩.

١١- الطاهر مكي: دراسات ابن حزم ص ٤٦.

وهو ثوب أو بُرد يشق في وسطه، فلفه المرأة في عنقها من غير كم ولا حجب، وجميع "أثواب" والـبقيرة ودرع المرأة ما قصر من الثياب، فصف الساق، أو سراويل، بلا رجلين، أو قميص بلا أكمام.<sup>(١)</sup> والوشاح هو نوع من الأحزمة العريضة المصنوعة من الجلد، والمزينة بالأحجار الكريمة وبعضها النساء في وسطهن، وكان الرجال يضعون الوشاح أحياناً، ولكن بدون زخارف.<sup>(٢)</sup>

وقد اختلف معنى الوشاح، ما بين المشرق والأندلس، ففي المشرق يعني "العصابة" وفي الأندلس يعني الخزام.<sup>(٣)</sup> والبريم هو الحبل المقتول. وتلفه المرأة حول وسطها، مثل الخزام، ويكون عادة من لونين مختلفين، وأحياناً يزين بالجواهر مثل الوشاح.<sup>(٤)</sup>

وعرفت نساء الأندلس استعمال القراء والجلود في ملابسهن، وخاصة أن قسوة المناخ في إسبانيا. توضح اهتمام أهلها بمثل هذه الملابس. ولهذا استخرجوا قراء السمور ( حيوان مثل ابن عرس) كما استخدموا قراء القنبل Conejo

( الأرنب الجبلي ) والمرعزي المصنوع من شعر الماعز، وحيوان آخر يدعى الفنسك (وهو ضرب من الثعالب، فروته أجود أنواع القراء) إلى جانب الملابس الصوفية.<sup>(٥)</sup>

أما أفخر أنواع الثياب للنساء، ما عرف باسم الديباج، أي الحرير المطرز الذي كانت تزين به ملوك الأعاجم. ويذكر أنه كان مضرب المثل في الفخامة والرقي.<sup>(٦)</sup> واشتهر بين أوساط نساء الأندلس اسم تسريحة للشعر تعرف بالعمرونة، وجمعها "عمارن" وانتشرت بين نساء الأندلس، وتنسب إلى مدينة شاطبة Jativa في شرق الأندلس "عمرونة شاطبية".<sup>(٧)</sup>

١- Dozy: op. cit. p 21.

٢- Dozy: op. cit. pp 447, 448.

عمر رضا كحالة: نفس المرجع. جـ ٧ ص ١٥٩.

٣- بروس: المرجع السابق. ص ٣٥١.

٤- Dozy: op. cit. p 71.

٥- راجع أحمد مختار العبادي: الحياة الاقتصادية في المدينة الإسلامية ( الصناعة والأصناف) عالم الفكر، المجلد الحادي عشر، العدد الأول، سنة ١٩٧٩، عمر رضا كحالة: المثل، جـ ٧، ص ١٥٩. الطاهر مكي: دراسات عن ابن حزم، ص ٤٦.

٦- ابن عبدون: نفس المصدر. ص ٥٤، ٥٥.

ويذكر دوزي: أن الحرير أحل للنساء من دون الرجال، إلا قدر أربع أصابع كالعلم.

Dozy: op., cit., p. 5.

Dozy: op., cit., pp. 311, 312.

٧-

هذا فيما يتصل باليسة النساء عامة. أما زي النساء المنقرقات، فكان الغلاليل، والقصب الملونة والحرير. وكانت الجواربي والراقصات والعازفات، يلبسن ملابس شقافة سهلة الخلع. وكان اللون الأحمر هو المفضل لديهن.<sup>(١)</sup>

أما ألبسة القدم، فقد كانت النساء تتعلن النعال الجلدية، أو الخفاف، والنعال هي أحذية ذات كعوب، أما الخفاف فهي بدون كعوب، وكانت توجد سوق مخصصة لذلك، تسمى سوق الأخفافين، يباع فيها أخفاف ونعال النساء. وكانت نساء أهل الذمة، يلبسن أحد الخفاف أسود، والآخر أبيض، حتى يتميزن عن نساء المسلمين، وكان أيضاً يلبسن الجوارب الصوفية الطويلة.<sup>(٢)</sup>

يذكر الوثريسي: أن النساء كن يعشن بنوع من النعال، يحدث صوتاً عند المشي، لجذب الأنظار، ويسمى الخفاف الصرارة، وكان المصنوب ينهي الخزازون- أي صانعي الأحذية- عن صنع تلك النعال، فإن عملوها بعد النهي، وقع عليهم العقاب.<sup>(٣)</sup>

وكانت العروس الأندلسية، تحرص على أن يتكون جهازها من الأقمشة، التي يكون معظمها من الحرير، والقطيفة، والمخمل، وهي أوفر أنواع الأقمشة في ذلك الوقت.<sup>(٤)</sup> ومن أقمشة جهاز العرائس أيضاً العقارة،<sup>(٥)</sup> والخرزة، والنياب والرازي.<sup>(٦)</sup> ويذكر ابن حزم: نص غاية في الأهمية عن العروس " المسقلة " أي الفقيرة، وكيف كانت تساعد النساء، وخاصة المسنات " أي الكيرات منهن " في إعارتها بعض الثياب والخلي.<sup>(٧)</sup>

وبدل هذا على أن المرأة الأندلسية العجوز، التي انقطع عنها الرجاء، لم تجلس قعيدة البيت، بل كانت تحاول أن تشارك في مجالات، إن صح التعبير " الخدمة الاجتماعية ". وقد أدت العلاقات المستمرة بين المسلمين والمسيحيين، بحكم الجوار والتداخل الحضاري، أن يستخدم كلا الجانبين الأشياء نفسها من الأقمشة والأثاث وأدوات الزينة والخلي. ولقد قام المستعربون واليهود بدور

١- يوس: الشعر الأندلسي. ص ٣٤٢، ٣٥٤.

٢- ابن عبدون: المرجع السابق، ص ٥١. كحالة نفس المرجع، ج ٧، ص ١٦٠.

Dozy: op., cit. pp. 155, 157.

Lévi Provençal: Hist. T.III, p. 324.

٣- الوثريسي: المعيار المغرب، ج ٦ ص ٤٢٠.

Lévi Provençal: op. cit., T.III, p. 434.

٤-

٥- والمِسْفَارَة (بكسر الميم) غطاء للرأس يلففها مع تشديد الماء، عبارة تعني عباءة

٦- إبراهيم القادري: دراسات أندلسية، ص ١٧.

Dozy: op. cit. pp. 312, 318.

٧- ابن حزم: طرق الجماعة، ص ٧٨، ٧٩.

الوسيط بين شمال إسبانيا والأندلس في الجنوب.<sup>(١)</sup> ولهذا النقل الكثير من أسماء الملابس العربية، إلى اللغة الإسبانية، وما تزال تستعمل حتى يومنا هذا ومنها كلمة جلابة Chilaba، وقميص Camisa، وسروال Zaraguelle وغيرها.<sup>(٢)</sup>

### ب- أدوات الزينة.

حدث رسول الله ﷺ نساء المسلمين جميعاً على التحمل، فقال للسيدة عائشة رضي الله عنها " مالي أراك شعناء، مرهءاء، سلتاء."<sup>(٣)</sup>

وفي قول آخر للرسول ﷺ قال إياكم والشعث، حتى لو لم يجد أحدكم إلا زيتونة فليعصرها ويدهن بها.<sup>(٤)</sup> وكانت نساء الأندلس تحرصن حرصاً كبيراً على زينتهن، بتكحيل العيون، والتخضب بالحناء، وارتداء أفضل الملابس، والتحلل بالذهب، والخلل، وخاصة في الأعياد.<sup>(٥)</sup>

ويدور أن هناك بعض النساء، كن يفرطن في عمله الزين المفرطاً كبيراً، إلى الحد الذي وصفه ابن حزم: بأن إفراطهن في التزين، كان يفحشهن، ولا يجملهن وفي هذا المعنى يقول:-

تزين إذا قلت، ويفحش أمرها

إذا أفرطت يوماً وهل يُحسمد المفرط<sup>(٦)</sup>

أما عن أدوات الزينة، التي تستخدمها النساء، فقد ذكر الونشريسي: بعضاً منها مثل المكاحل، والمراد الغالية، والأمشاط، والأمريّة، والأنعلة، والقباقب وخرز الأمتعة، بخيوط الذهب والفضة. وكانت المراد تصنع من الفضة للإكسحال. ويحكى أن " الشيخ العوفي " صاغ لابنته مكحلة من فضة، وقال " شلبنى على ذلك أمها ".<sup>(٧)</sup> ويدور أن بعض شيوخ وفقهاء الإسلام قد حرم استخدام تلك الأدوات، وخاصة من معدني الذهب والفضة، ورغم هذا يذكر الونشريسي: أنها كانت

١- بروس: الشعر الأندلسي في عصر الطوائف، ص ٢٩١.

٢- Valentin Beneitez Cantero: Vocabularia Español Árabe Marroqui, 1949, pp. 130.

٣- ابن عبد ربه: طالع النساء، ص ١٢٣، ١٢٤. والشعثاء التي لا تدهن. والمرهءاء التي لا تكحيل، والسلطاء التي لا تخضب، أي تصبغ شعرها بالحناء.

٤- ابن عبد ربه: نفس المصدر، ص ١٢٣.

٥- هنري بروس: الشعر الأندلسي، ص ٢٧٧؛ كمال أبو مصطفى: مائقة الإسلامية، ص ٨٠.

٦- بروس: نفس المرجع، ص ٢٧٧.

٧- الونشريسي: يتحدث بن يحيى الونشريسي المعيار المغرب والجامع المغرب عن فناني علماء إفريقية والأندلس والمغرب، دار المغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ - ١٩٨١م، ج ٢ ص ٥٠٢.

منتشرة كثيراً. بين طبقات النساء، وكلا على حسب مقدرقن. واستخدمت النساء أيضاً السواك. للمحافظة على صحة أسنانن. وكان يصنع من خشب عطري، للعناية بالثقم والأسنان. ويذكر بروس أن هذه العادة، لم تكن تعرفها المجتمعات الأوروبية الغربية في ذلك الوقت.<sup>(١)</sup>

خلاصة القول: أن العطور والمراهم كانت تستخدم على نحو شائع في كل طبقات المجتمع. ويستخدمها بكثرة الرجال والنساء على حد سواء.<sup>(٢)</sup> ويذكر أويلى ميرندا Huici Miranda: أن المرأة الأندلسية كانت تهتم اهتماماً كبيراً بنظافتها، فكانت تخرج إلى الحمامات العامة بانتظام، وكانت قرطبة وحدها تضم عدداً كبيراً من حمامات النساء، الخاصة بمن فقط. وقد كان الخروج إلى الحمامات فرصة للتسلية والسرية، والخروج عن روتين الحياة اليومية ولقاء الصديقات، والتمتع بقدر من الحرية، بعيداً عن مناعب الحياة اليومية داخل الدور.<sup>(٣)</sup>

وكانت أدوات الزينة والمراهم تباع في أسواق خاصة بالنساء. ويذكر ابن حزم: أن باب العطارين. أحد أبواب مدينة قرطبة السبعة، ويقع في الجانب الغربي منها، وكانت تقوم حوله تجارة العطور والمراهم وأدوات الزينة الخاصة بالنساء، ولذلك أصبح ملتقى النساء من كل أنحاء المدينة.<sup>(٤)</sup> وكانت هذه الأسواق بصفة خاصة تخضع لرقابة المحتسب دائماً لسهولة الغش والتدليس في صناعة العطور والمراهم، وصعوبة اكتشاف هذا الغش لأنه يحتاج إلى خبرة بالأعمال الكيميائية. ويذكر أحمد بن عبد الرؤوف في رسالته للحسبة: بأن المحتسب كان يجمع خلط الحناء قديمها بجديدها، لأن القديم يضعف لونه وصعبه إذا حُسِّنَ مدة طويلة، وكذلك يجمع خلط المسك والزعفران والعطور البلدية بالعطور الهندية الجيدة، وإذا ضبط شئ من هذا القبيل، يصادر المضبوط، ويتصدق به.<sup>(٥)</sup>

وهناك أيضاً بعض العطارين الذين يستعملون ورق " الحُلْب " ( وهو نبات عشبي من فصيلة القرنيات ويؤكل ويعالج به ) في تحضير الحناء، فعطى الحناء رونقا وحضرة جميلة ولكنها تضعف صبغتها وهذا تدليس أيضاً.<sup>(٦)</sup>

١- بروس: نفس المرجع، ص ٢٧٧.

٢- بروس: المرجع السابق، ص ٢٧٨.

٣- Huici Miranda "Ambrosio": Historia Musulmana de Valencia Y Su Region, Valencia, 1969 Tomo.I, pp.65.

٤- ابن حزم: طرق الخبائفة، ص ٤١ هامش، رقم (٤).

٥- أحمد بن عبد الرؤوف: ثلاث رسائل أندلسية في الحسبة والمحتسب (الرسالة الثالثة) نشر وتحليل ليفي بروفسال ١٩٥٥، القاهرة، ص ٧٨.

٦- ابن عبدون نفس المصدر: الرسالة الأولى، ص ٥٠، وراجع ابن عبدون: نفس المصدر. حول تحايل العطارين وغشهم. والمواد المستخدمة في غش المراهم، والكريمات، و الدهانات وغيرها، ص ٤٢ وما بعدها.

وكانت أدوات الزينة في المغرب والأندلس تعرف باسم "الطلاء". ومن أشهر من قام بالدراسة والتعمق في تلك الصناعة " إسماعيل بن يوسف الطلاء المنجم " ولقب بشيخ الطالين أو الكيميائيين، وهو رجل ألقى عمره في العلم والصناعة. أما العلم فهو الكيمياء. وأما الصناعة فهي مساحيق التجميل للنساء، وأسأل هل كان يظن أحد: بأن لمساحيق التجميل الخاصة بالنساء، صناعة واثجة في القرن الثالث الهجري.<sup>(١)</sup>

وقد تخصص إسماعيل الطلاء بصفة خاصة في مستحضرات تجميل النساء ، أي ما يخص بوسائل تجميل وجوه النساء، وتطريتها بالدهانات والعقاقير المناسبة، وهو ما يسمى في عصرنا الحديث، بالماكياج Make up.<sup>(٢)</sup>

وقد قام الطلاء المنجم بعدة جولات في المشرق، قبل أن يقر إلى الأندلس. بعد قيام الدولة الفاطمية في المغرب " مسقط رأسه "، حيث قصد قرطبة، واستقر بها في حلافة عبد الرحمن الناصر، ومنذ ذلك الوقت. انقطعت أخباره. ويذكر الأستاذ الدكتور / محمود حسين: أن إسماعيل الطلاء ابتعد برغبته عن بلاط الحكام، نظراً لما عاناه في المغرب من إقامته ظلماً بسك عملة مزيفة وهروبه إلى الأندلس. من جراء هذا الحادث، ويرجع د/ محمود حسين: أن الطلاء قنع بعمل مستحضرات التجميل والارتفاق من بيعها، بعيداً عن الاتصال بالأمراء، لأن الأضواء لم تكن مسلطة عليه. لعدم اتصاله بالطبقة الحاكمة، وإن كان هذا لم يمنع الكثيرين من كتاب التراجم. والطبقات. مثل الحميدي، والزبيدي وغيرهم. في الترجمة له.<sup>(٣)</sup>

ويذكر الوثنيري: بأن أشد اهتمام للمرأة بأدوات الزينة، يكون يوم عرسها فيُظلى وجهها وجسدها بأنواع معينة من الدهانات، خاصة لتلك المناسبة.<sup>(٤)</sup>

## جـ- الخُلي.

تأثرت صناعة الخلي في الأندلس تأثراً كبيراً بالخلي الشرقية، وخاصة في عهد الأمير الأموي عبد الرحمن الثاني " الأوسط "، الذي فتح أبواب الأندلس أمام التجار العراقيين. وبضائعهم المختلفة التي منها الخلي وأدوات الزينة، والتي سرعان ما انتشرت بين الأندلسيين المسلمين

١- محمود حسين: مقال بمجلة العربي عن فن الطلاء المكياج والطلاؤون. صامع الطلاء، ونقل عن إسماعيل بن يوسف الطلاء المنجم. حياته والمناصب التي وصل إليها، وبراعته في صناعة مستحضرات التجميل.

أنظر: محمود حسين: مجلة العربي. العدد (٣٢٨) السنة الخامسة والعشرون مارس ١٩٨٦ ص ١٠٦، ١٠٧ وما بعدها.

٢- محمود حسين: نفس المرجع. ص ١٠٧.

٣- محمود حسين: نفس المرجع. ص ١١٠.

٤- الوثنيري: المعيار للمغرب، جـ ٣، ص ٢٥٢.



والمتعربين. ويروي المؤرخون في هذا الصدد: إن الأمير عبد الرحمن الأوسط. أشرى من أحد التجار، عقداً للسيدة " زبدة " زوجة هارون الرشيد، بمبلغ عشرة آلاف دينار، وأهداه لزوجة من زوجاته تسمى "الشفاء"، فعرف " بعقد الشفا " أو " بعقد الشبا " أي الثلث مثل الثعبان. وكان هذا العقد قد سُرق ضمن الأشياء الثمينة الأخرى، التي غُبت في بغداد، إبان الفتنة والحروب التي قامت بين الأُميين والمأمون.<sup>(١)</sup>

ومن الطريف: إن أسطورة هذا العقد، استمرت في إسبانيا مدة طويلة، إلى ما بعد خروج المسلمين من الأندلس، عندما وضعته إحدى ملكات إسبانيا المسيحية في جيبها.<sup>(٢)</sup>

ويذكر ابن عذاري: أيضاً عن الحلبي القادمة من الشرق، أن تاجراً من عدن، قدم إلى قرطبة، زمن المنصور بن أبي عامر، ومعه جواهر كثيرة وأحجار كريمة، فاشترها منه المنصور.<sup>(٣)</sup> ويورد صاحب أخبار مجموعة: قصة تدل على مدى ما شغلت به جاريات أمراء بني أمية، من التزين بالحلي الثمينة، فيقول: إن " هشام الرضا " جلس يوماً مع جارية له، ودخل عليه رجل يدعى " الكنانى " من كورة جيان Jaen، وقد وقع عليه ظلم من أبي أيوب عامل جيان وأخاه، وذلك بأن طُلب منه بأن يشارك بدفع الدية، في قتل رجل من قبيلة أخرى، وتحمل هو ورجال قبيلته تلك الدية، لأن القاتل من قبيلتهم، فمد هشام يده إلى الجارية الخالسة بجواره، وكان عليها قلادة بمبلغ ثلاثة آلاف دينار، فأخذها منها، وأعطاهها للكناني ليسد بها حاجته.<sup>(٤)</sup>

وقد بالغت نساء بني أمية في احراز الأحجار الكريمة واللآلئ النفيسة وأفخر أنواع الحُلى.<sup>(٥)</sup> وكانت الحلبي الأندلسية، كما يذكر بروفسال: في البداية تخضع للتأثيرات الإسبانية القوطية القديمة، إلى أن بدأ تدفق الطرق التجارية والتأثيرات العراقية. أو الإيرانية بصورة أكثر.<sup>(٦)</sup>

ولكن ما كاد يصل القرن العاشر الميلادي إلى نهايته، حتى بدأت قرطبة تحتل مكانة عالية تفوق بيزنطة في صناعة الحلبي والجواهر، من عقود وخواتم ومعاصم مرصعة، وفي تزيين الجلود أيضاً.<sup>(٧)</sup>

١- ابن عذاري: البيان المغرب، جـ ٢، ص ١٩١ عبد العزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة، جـ ٢، ص ١٤٤ ليبي بروفنسال: تاريخ إسبانيا الإسلامية، جـ ١، ص ٢٠.

Lévi Provençal: Hist, T.I, p. 264

Lévi Provençal: La Civilizacion, p. 67

٢- العادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص ١٣٩، ١٤٠.

٣- ابن عذاري: نفس المصدر، جـ ٢، ص ١٤٣٥ سالم: نفس المرجع، جـ ٢، ص ١٤٤.

٤- راجع القصة كاملة، في مجهول: أخبار مجموعة، ص ١٢٢.

٥- عمر رضا كحالة: المرأة، جـ ٧، ص ١٦٠.

٦-

Lévi Provençal: Hist, T.I, p.269.

٧- الطاهر مكي: دراسات عن ابن حزم، ص ٣٩.

وكان معظم المشتغلين بصناعة الخلي القرطية من اليهود. وكانوا يقومون بهذه المهنة في مكان معد لذلك يعرف " بالصاغة ". وكانت الخلي تصاغ على طريقتين، إما بالإسلوب القوطي الذي ظل يحفظ به النصارى. أو بالإسلوب المشرقي كما ذكرناه آنفاً، وعلى الأخص الطراز العراقي.<sup>(١)</sup>

ومن الأدوات التي كانت المرأة تعلق بها الخلي الخاصة بها " الخقاب " وجمعها حقب.<sup>(٢)</sup> وما ساعد على ازدهار صناعة الخلي في إسبانيا، وجود الكثير من الأحجار الكريمة، البالغة القيمة والتنوع والندرة. كالياقوت الأحمر ويستخرج من حصن منت مايور Monte Mayor في كورة مالقة، وحجر آخر يشبهه بناحية بمانة Pechina، وحجر اليهود، وحجر اللؤلؤ في برشلونة Barcelona، والمرجان بساحل بيرة Vera، واللازورد الجيد في لورقة Lorca، والبلور على مقربة من لورقة أيضاً... إلخ.<sup>(٣)</sup>

وقد أورد الشعراء في قصائدهم، أسماء كثيرة لأشياء نفيسة مثل العاج والابنوس، وغير ذلك. ومن العاج على سبيل المثال صنعت " العلب العاجية " التي توضع فيها الحُسلَى والعقود،<sup>(٤)</sup> والأحجار التي لم تكن موجودة في جبال الأندلس وحصونه. يبدو أنها كانت تستورد، مثل العقيق الأحمر، والزمرود (أو الزبرجد)، و الفيروز الأزرق.<sup>(٥)</sup>

ومن أشهر أنواع الخلي الأندلسية، الخواتم بقص، أو بدون، والعقود والأقراط التي تحلى الأذن والجهة، والسوار. والإخلاعيلى. والبيجان، والدلايات الذهبية المرصعة. وكانت محلات الصاغة الكبرى تتركز في مدينتي هما قرطبة وإشبيلية. ويشير ابن حزم إلى مهارة الصياغ، الذين يميزون بدقة بين الذهب الخالص والذهب المُنشرب بالفضة.<sup>(٦)</sup>

ومع ازدهار صناعة الخلي، ازدهرت أيضاً صناعة العلب العاجية المُطعمة والمرصعة، لوضع الخلي بداخلها. وكانت هذه العلب تصنع خصيصاً لجواري الخلفاء، وزوجاتهم لصيانة حلينهن وعطرهن.<sup>(٧)</sup>

١- سالم: قرطبة حضارة الخلافة، جـ ٢، ص ١٤٤.

٢- Dozy: Noms des Vêtements, p. 143.

٣- للمزيد من التفاصيل حول تلك الأحجار، وأماكن تواجدها في الأندلس. راجع: هنري بروس: الشعر الأندلسي، ص ٢٨٧ بروكسفال: تاريخ إسبانيا الإسلامية، ص ١٧٧.

٤- بروس: نفس المرجع، ص ٢٨٨، ٢٨٩.

٥- بروس: نفس المرجع، ص ٢٨٧، ٢٨٨: عبد العزيز سالم: قرطبة حضارة الخلافة، جـ ٢، ص ١٤٤.

٦- بروس: نفس المرجع، ص ٢٨١.

٧- عبد العزيز سالم: دائرة معارف الشعب، العدد (٦٤)، ص ١٨٢.

ومن أروع أمثلة هذه لصناعة التي اختصت بها مدينة الزهراء، صندوقان من العاج، صنعاً بأمر من الخليفة الحكم المستنصر بالله في سنة ٣٥٥هـ للسيدة " صبح " أم هشام المزيد ولي العهد، وما زال إلى اليوم، الأول في متحف بلنسية بمدريد، والثاني في كنيسة نبرة Navarra. والصندوق الأخير يحمل اسم صائعه وهو " ذرى الصغير " وهو فني صقلبي.<sup>(١)</sup>

### د- العطور.

اهتم الأندلسيون أيضاً بالعطور. وكانت تصنع لها قوارير خاصة محكمة الصنعة.<sup>(٢)</sup> وكثيراً ما نرى في قصائد الشعراء الأندلسيين، إشارات إلى العطور وخاصة الأكثر انتشاراً في الأندلس مثل السوسن Azucena الذي يحتوى على الخلق، وهو ضرب من العطر المزعفر Azafaran. والخبث Anbar الرمادي، وزهرة النسرين وهي تشبه الخبث في رائحتها النفاذة والورود والزعفران، وورد البنفسج، والأقحوان، والخشخاش، وهي زهرة فيها نقاط سوداء تشبه المسك في رائحتها، والمسك Almizcle وهو نوع من العطور أسود اللون، وشقائق النعمان وغيرها، وإن كان المسك هو المسيطر وبالحاح على مزاج الأندلسيين.<sup>(٣)</sup>

وعطر آخر يسمى " رشح البان " مخلوطاً مع ماء الورد، يستعملونه للتندية بعد تناول وجبات الطعام.<sup>(٤)</sup> وهذه العطور تشهد: بأن للأندلسيين، ذوقاً خاصاً قوياً يميل إليها ويتذوق رائحتها.<sup>(٥)</sup> وكانوا يلقون بالعطور على الفحم المشتعل، حتى تؤثر فيهم بقوة، وكانت تلك العطور تحفظ في سلال صغيرة من الجلد تسمى " جُسونة".<sup>(٦)</sup>

١- سالم: قرطبة، جـ ٢، ص ١٣٣، ١٣٢، سالم: دائرة معارف الشعب، العدد (٦٤)، ص ١٨٢، ١٨٣.

ويذكر بروس أن تلك اللعب العاجية أطلق عليها اسم (حُسق) أو مِهْرَة.

انظر بروس: نفس المرجع، ص ٢٨٠.

٢- عبد العزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة، جـ ٢، ص ١٤٩.

٣- هنري بروس: الشعر الأندلسي في عصر الطوائف، ص ٢٨٧.

٤- سالم: نفس المرجع، جـ ٢، ص ١٤٩.

٥- بروس: نفس المرجع، ص ٢٨٠، ٢٨١.

٦- بروس: نفس المرجع ص ٢٧٩، ٢٨٠.

## سادساً: الزواج والطلاق:

قبل أن نخوض في موضوعي الزواج والطلاق، وما يتبعهما من اتفاقات ومشاكل أحياناً، نود أن نشير إلى أن المجتمع الأندلسي كان توالفاً للحب بطبيعته. وقد أخذ الحب عنده أبعاداً أخرى، غير التي عرفناها في الشرق فالعلاقة بين الرجل والمرأة كانت أكثر حيوية وحرية وعلاوية وصراحة، ويرجع بعض المستشرقين أمثال ألبرت ألبرنوز Albornoaz إلى أن الحب في الأندلس مرتبط إلى حد بعيد بالمفهوم الغربي. بل ويرجع إلى جذور مسيحية. وأنه يساور روح العصر الذي لما وترعرع فيه، وأن الحب في الأندلس مختلف تماماً عما عرف باسم "الحب العذري" في الشرق، وأن الحب الأندلسي يستمد عن الحب المرتبط بالخضوع الذي عرفه المشاركة. ويؤيد بيرس Peres رأي ألبرنوز Albornoaz في أن هذا الحب جذوره غربية إسبانية مسيحية.<sup>(١)</sup>

وأبرز قصص الحب الأندلسية، والتي تناولت العلاقات بين الرجال والنساء عرفناها من خلال "طوق الحمامة"، ومؤلفه الفقيه الأندلسي ابن حزم. كان في غاية الصراحة مع نفسه عندما نقل تلك القصص، فنراه تارة يذكر أسماء أصحابها، وتارة أخرى لا يذكر أسماء أصحابها، إما لمكانتهم، أو خوفاً من أن يلحق بهم ضرر لو صرح علانية بأسمائهم. ومن تلك القصص، قصة وفاء أخيه أبي بكر لزوجته حتى بعد وفاتها.<sup>(٢)</sup>

وقصة الشاعر المعروف بالرمادي، مع الجارية "خلوة"، والتي عطلها في أشعاره. وترجع أهمية تلك القصة. في أنها تدلنا على قلّة حجاب النساء الأندلسيات، وخاصة الجوارى، وخروجهن وحدهن. فنلنك الجارية عندما قابلها شاعرنا كانت بمفردها. بل ووقفت معه، وتحدثت معه حديثاً طويلاً، مما يؤيد رأينا في سهولة حجاب المرأة الأندلسية.<sup>(٣)</sup> ويروي ابن حزم: أيضاً قصة وفاء أخرى: من امرأة أندلسية لزوجها. وهي قصة بنت زكريا بن يحيى. وكان عمها قاضي الجماعة، والتي كانت متزوجة من يحيى بن محمد بن يحيى بن إسحاق. ومات بعد مدة قصيرة معها، فبلغ من حزنها وجوعها عليه، أن بادت ليلة موته معه في دثار واحد. وجعلته آخر صلة لها بعالم الرجال، إلى أن ماتت أسفاً عليه.<sup>(٤)</sup> وكما رأينا، فالقصة الأولى لجارية، وهي قصة خلوة مع الشاعر الرمادي. وهي قصة بنت زكريا بن يحيى التميمي. فهكذا الحب عند الأندلسيين لم يكن قلقاً على فئة معينة، بل كانت تعرفه جميع الفئات والطبقات. ولقصص "الطوق" كثيرة في هذا الشأن، ولم تكن المبادأة دائماً من جانب الرجل.

١- Pierre Guichard: Structures Sociales, p. 171.

-١

٢- راجع القصة كاملة في: ابن حزم: طوق الحمامة، ص ٣٠٢. صلاح خالدي: إشبيلية، ص ٩٦.

٣- راجع القصة كاملة. أيضاً في ابن حزم: نفس المصدر، ص ٤٠، ٤١، ٤٢.

٤- ابن حزم: نفس المصدر، ص ٩٥، ٩٦.

فقد أورد ابن حزم قصصاً صريحة. كانت البداية فيها من المرأة، أي أنها هي التي تعلن حبها للرجل، ومن ذلك ما قاله عن جاريه اشتد وجدها بفن من ابتاء الرؤساء، وهو لا يعلم بذلك ولا يحس به، فشكت حبها إلى امرأة تتق لها، فنصحتها أن تحاول ذكر حبها له بالشعر، ففعلت ولم يحد ذلك معه أيضاً، إلى أن جمعتهما ليلة منفردين، فقد كانا قد نشأنا معاً من البداية. وكان الفتي عفيفاً مصانواً، فقامت إليه وقبلته في فمه، ثم ولت ولم تنس بكلمة، فكان ذلك كما يقول ابن حزم: يده الحب بينهما، فلم يتم ليلته. ولا غمض له عيناً بعدها.<sup>(١)</sup> وحول هذا المعنى أيضاً، جاءت قصة عبد الرحمن بن هشام "المستطرف بالله"، الذي أحب ابنة عمه، وكانت تدعى "حبيبة"، ابنة سليمان المستعين. ويبدو أن أمها رفضت هذه العلاقة، فلم يجد أمامه غير الشعر، الذي صب عليه جام غضبه ولوعته.<sup>(٢)</sup>

أما أجل تعريف للحب فهو ما ذكره ابن حزم في بداية "الطوق" فيقول: "الحب أعزك الله، أوله هزل - وآخره جد - دقت معانيه جلالته، عن أن توصف فلا تترك حقيقتها إلا بالغاها. وليس يمتكر في الديانة، ولا بمحظور في الشريعة، إذ القلوب بيد الله عز وجل... الخ."<sup>(٣)</sup> ولم تقف قصص "طوق الحمامة" عند هذا الحد، بل وردت قصصاً كثيرة أخرى، أخشى إن ذكرتها، كلها أكون قد أطلت في هذا الموضوع، وإن كان في رأيي، أن موضوع الحب، والعلاقة بين الرجل والمرأة في الأندلس، من أهم الموضوعات الاجتماعية، التي تبرز لنا أشياء كثيرة، وخاصة في مجال الحياة الاجتماعية، ومدى توثق هذه العلاقة بين كافة الأطراف.<sup>(٤)</sup>

ونلاحظ، أن الشعراء الأندلسيين نادراً ما يصورون الحياة العارية في أشعارهم. فجدد المرأة في الأندلس، كان له حرمة وجلالة وتقديره، والشاعر الأندلسي كان يفضل حسداً مستوراً يغذي الخيال بمزيد من أحلام اليقظة، على لحم عار تلثمه الأنظار! وتغنى روح الإسباني المسلم ملاس امرأة شفاقة، تنجح له أن يكتشف تاسق جسمها، ولا بد أن صبر الشاعر قد نفل تماماً من تحشم حبيته حتى يقول لها:-

١- القصة في "طوق الحمامة" أطول كثيراً مما ذكرتها. وقد حاولت اختصارها. دون الإخلال بمغزاها أنظر حسن حزم: نفس المصدر، ص ٩٢.

٢- ابن الأثير: الحلة السواء، ج ٢، ص ١١٣ يوس: الشعر الأندلسي، ص ٣٧٣.

٣- ابن حزم: المصدر السابق، ص ١٩. ويورد ابن حزم بعد هذه المقدمة عن الحب، قصص لبعض أمراء بني أمية، ويوضح مدى حبهم لمساكنهم وجواريتهم.

٤- للمزيد من التفاصيل راجع:- ابن حزم: نفس المصدر، ص ٤٣. هنري يوس: المرجع السابق، ص ٣٤٧، ٣٤٨، ٣٤٩، ٣٦٠، ٣٦١.

وقد نقل يوس قصصاً من الطوق، وأحاف إليها رأييه. حول حرية المرأة الأندلسية، وتناول المرأة من خلال أشعار الشعراء الأندلسيين

إنزعى الوشى فهو يستر حشاً

لم تحزه برقميهن اليساب

ودعيني عسى أقبل لغراً

لذ فيه اللثي وطاب الرضاب

وعجيب أن قهرىنى ظلماً

وشغبي إلى صباك الشباب<sup>(١)</sup>

وما لاشك فيه أن المرأة الأندلسية، لم تكن هي الجارية الرقيقة التي تخضع لكل نرات سيدها. وكان من العادي جداً بين جبهة الحرفيين، أو الفلاحين، أن ترى النساء دون حجاب، في أشد الحالات تمسكاً، نجدها تغطي رأسها بحجاب، وتترك وجهها مكشوفاً.<sup>(٢)</sup>

## الزواج .

أما عن الزواج فقد حظ الإسلام عليه وشجعه، وهناك أحاديث كثيرة عن الرسول ﷺ، تحض على النكاح. فمن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: " النكاح رقي فليظن أحدكم من يرق كرمته" وقول الرسول ﷺ "من ستا النكاح".<sup>(٣)</sup> وفي عصر ما قبل الإسلام وبدايته، كان الزواج مشافهة. فلم يعرف العرب عقود الزواج المكتوبة. وكان الزواج يطق عليه بين ولي الزوجة، وكان في الغالب والدها وبين وكيل الزوج وكان في الغالب والده. ويؤكد الأستاذ الدكتور أحمد الشامي، على عدم العثور على أي عقود زواج إسلامية مكتوبة في فترة صدر الإسلام.<sup>(٤)</sup>

ويذكر جيسار: أن الإسلام لم يستطع أن يقضى على الزواج القلي - أي الزواج الداخلي - في نطاق القبيلة الواحدة، رغم ما جاء من أحاديث تحث على الزواج البعيد عن نطاق القبيلة، لما فيه من ميزات من ناحية تحسين الجنس والسلالة. ويرى الإسلام أيضاً حرم زواج الأقارب من الدرجة الأولى، كالأختين مثلاً في ذمة رجل واحد، وفي آن واحد.<sup>(٥)</sup> والحققة أن رأي جيسار هذا صواب إلى حد بعيد في مراحل الإسلام الأولى، وقبل أن يتوسع هذا التوسع الكبير الذي أصبح من

١- بروس: المرجع السابق، ص ٣٥٤.

٢- بروس: نفس المرجع : ص ٣٤٩، ٣٥٠.

٣- ابن عبد ربه: طبائع النساء، ص ٢٢.

٤- أحمد الشامي: التطور التاريخي لعقود الزواج في الإسلام "دراسة مقارنة"، جامعة الزقازيق ١٩٩٢، ص ١٢، ١٣.

الصعب معه المحافظة. على الزواج داخل نطاق القبيلة. وضرباً مثلاً لذلك بالجنس الأندلسي. وأقدم عقد زواج وصل إلينا يرجع إلى نهاية القرن الثاني الهجري.<sup>(١)</sup>

ورغم التغيرات التي طرأت على عقود الزواج، على مر العصور الإسلامية، إلا أن مضمونها ظل واحداً، وهو الإيجاب والقبول.<sup>(٢)</sup>

أما عن عقود الزواج الأندلسية بصفة خاصة، فيوضح من الوثائق الأندلسية أن عقد الزواج كان يبدأ بالبسملة والصلاة على رسول الله ويبيان أهمية النكاح بالإسترشاد بآية من القرآن الكريم. ثم اسم الزوج واسم الزوجة، ووالدها وهل هي بكر أم ثيب؟ ومقدار الصداق الذي قبضه والد الزوجة.... الخ.<sup>(٣)</sup>

ولا يتم الزواج إلا بولي وصداق وشهود، وأقل الصداق عند مالك ربع دينار. ولا يجوز نكاح بصداق مجهول. وينسخ قبل البناء. ويجعل الصداق إلى أجل معلوم.<sup>(٤)</sup> وبعد الاتفاق على المهر والشرائط الأخرى، تتم كتابة العقد. وقد استحدث لهذا الغرض خطة تسمى خطة النكاح. لتزويج المرأة التي غاب عنها وليها، أو من لا ولي لها، واشترط ابن عبدون: أن لا تسند هذه الخطة إلا لرجل ورع.

وقد تولاهما في قرطبة زيدون بن محمد المخزومي.<sup>(٥)</sup> وشروط عقد الزواج لابد أن تكون واضحة وملزمة للطرفين، ولا يلزم إحداها بعد الزواج بشروط لم تدون في عقد الزواج، وأجرة قاضي النكاح كما ذكر الوثائقي تكون على الزوجين، أو أحدهما حسب الظروف.<sup>(٦)</sup>

أما عقد زواج المسلم الأندلسي بالمرأة الكتانية، فلا يختلف عن عقد زواج المسلمة. فإن كان لها ولي ذكر في العقد، وإن لم يكن لها ولي، عقد نكاحها أساقفة أهل دينها، إلا أن التشريعات الفقهية حرصت على ألا يعقد نكاح المسيحية أو اليهودية أمر أو ولي مسلم، فأولياؤها أحق بالعقد، إلا أن

١- الشامي: نفس المرجع، ص ١٤.

٢- الشامي: المرجع السابق، ص ١٦.

٣- كمال أبو مصطفى. مائة الإسلامية، ص ٦٠.

وللمزيد عن شروط عقود الزواج راجع: كمال أبو مصطفى: نفس المرجع، ص ٦١.

٤- ابن عبد الرزوف: ثلاث رسائل أندلسية " الرسالة الثانية "، ص ٨٠.

٥- إبراهيم الفاذري: مجلة دراسات أندلسية، مقال عن ظاهرة الزواج في الأندلس. تونس. العدد التاسع. يناير ١٩٩٣م، ص ١٧، ١٨.

٦- الوثائقي: المعيار المغرب. ج ٣. ص ١١٠، ١١١، ١١٥، ١١٦.

يرفضوا. فيعقد نكاحها الأمير.<sup>(١)</sup> وقد عرف الأندلسيون الخطابة. وكانت أمور الزواج عادة لا تبدأ إلا بالخطبة. وتولى إحدى الخطابات هذه المهمة مينة صفات وحسنات كل من الرجل والمرأة. وأحياناً يقوم بهذا الدور الأصدقاء. وقد اعتبر الأندلسيون يوم الجمعة اليوم المفضل لهذه المناسبة.<sup>(٢)</sup> ويذكر الخشني أن هناك رجالاً أندلسيين كانوا يصرون على رؤية زوجاتهم في فترة الخطبة. وقبل البناء من والعقد عليهن.<sup>(٣)</sup>

وقد كان من حق الفتاة المخطوبة، أن ترث حاطبها، إذا كانت هذه الخطبة قد تمت برضاء وقبول الطرفين، الخطيب ووالد الزوجة، والنكاح عقد شفاهة وبدون عقد، ولكن هذا الكلام الذي تم بين الطرفين، لابد أن يكون عليه شهود ومات الحاطب قبل الدخول، ترثه وبيرلها هو أيضاً.<sup>(٤)</sup>

وقد أورد ابن عبد الملك : في الذليل والتكملة. ما يفيد بأن والد العروس أحياناً عندما يجد رجلاً صالحاً يتخطبه لابنته، دون حرج، ومثال ذلك ما ذكره عن أسماء بنت داود، مولى أمير المؤمنين هشام المؤيد بن الحكم المستنصر بالله، وهي من مدينة بنسبة، وقد زوجها أبوها من أحمد بن محرز لئى كان يقرأ عليه، وذلك لما وجدته فيه من فضل وعقل، فأعجبه فقال له يوماً: أحب أن أزوجه لك ابنتي؟ فمخجل الفتى وذكر له حاجته في ذلك، فزوجها منه ونذر لها داراً وزفها إليه.<sup>(٥)</sup>

وقد ساد في الأندلس ما يعرف بزواج المتعة، الذي وجد فيه بعض طلبة العلم وسيلة لتجنب الزنا، وكان الزوجان يتلفان معاً ويحددان مدته حسب رغبتهما، ويعقد عقد الزواج في هذه الحالة دون ولي المرأة، ولم يتجاوز المهر في هذا النوع نصف درهم، حسبما تبينه بعض النصوص.<sup>(٦)</sup>

وإن كان بعض الفقهاء مثل ابن رشد، ألقى بعدم جوازه شرعاً ووجوب إقامة الحد عليه، غير أن الواقع العملي جاوز اتخاذ الفقهاء.<sup>(٧)</sup> ويرجع تحريم زواج المتعة إلى أنه لا ميراث فيه ولا عدة ولا وفاة ولا طلاق.<sup>(٨)</sup>

١- إبراهيم القادري: نفس المرجع، ص ١٩.

٢- إبراهيم القادري: نفس المرجع، ص ١٥. ليفي يوفسال: ثلاث رسائل في الحسية، ص ٧٩.

٣- الخشني: قضاء قرطبة، ص ١٨.

٤- الولشرهسي: المصدر السابق، ج ٣، ص ١٦٨.

٥- ابن عبد الملك: الذيل والتكملة، ج ٢، ص ٤٤٨ ترجمة رقم (٢٣٦).

٦- القادري: دراسات أندلسية، ص ١٩.

٧- ابن عبد الرؤوف: ثلاث رسائل في الحسية، الرسالة الثانية، ص ٨١.

٨- ابن عبد الرؤوف: نفس المصدر والصفحة.



ومن خلال دراستي لهذا الموضوع، اتضح لي أن شروط المرأة في عقود الزواج، كانت أكثر بكثير من شروط الرجل. إن لم نقل أن الرجل ليس له شروط، وربما يرجع ذلك إلى خوف المرأة من تلاعب الزوج بها بعد الزواج، أو لأن الطلاق حق مطلق في يد الرجل، فأرادت أن تضع عليه بعض الشروط حماية لها. ومن أهم شروط المرأة مثلاً أن تكون "العصمة" في يدها، أي تملك المرأة أمرها، ولها حرية تطبيق نفسها.<sup>(١)</sup> وقد اختلفت عقود الزواج الأندلسية بعض الشيء عن عقود الزواج الأخرى في بقية العالم الإسلامي، وخاصة في المشرق، واتضح ذلك من خلال الدراسة التي قام بها هادي روجيه إدريس "H.R. Idris"، عن عقود الزواج، والتي أوردتها جيهار في كتابه "الحياة الاجتماعية في الأندلس".<sup>(٢)</sup>

لقد وصل الأمر أحياناً إلى اشتراط الزوجة على زوجها عدم تسريه بالسراري عليها، وخاصة إذا كانت من الأوساط الأرستقراطية، بل أكثر من ذلك إذا فعل ذلك وأحل بالشرط الموجود في العقد تكون الدخلة عليها طالقة. كما اشترطت عليه في عقد نكاحها، بعدم ضربها، وأن تنصرف فيما تملك وعدم تدخل الزوج في مالها إلا برضاها وموافقتها، فإذا شاءت في مالها باعت وإن شاءت وهبت وتصدقت، وأن يسمح لها بزيارة بيت أهلها، وأن يزورها أهلها في بيتها وإن أحل بشرط من هذه الشروط يكون أمرها يدها.<sup>(٣)</sup>

ومن شروطها أيضاً ألا يغيب عنها غيبة متصلة، أكثر من ستة أشهر، إلا إذا كان يؤدي فريضة الحج عن نفسه. وضرورة إتيانه لصنعة أو حرفة حتى تضمن بها عيش العائلة.<sup>(٤)</sup> وكانت الزوجة أحياناً، إذا تزوجت بزوج على قدر من الثراء، تشترط عليه في عقد نكاحها، أن يقدم لها خادمة تساعدتها في أعباء المنزل.<sup>(٥)</sup>

وكانت المرأة صاحبة الرأي في زواجها. ويحدثنا "الطوق" عن جارية جميلة كانت لسعيد بن منذر، صاحب الصلاة في جامع قرطبة، على أيام الحكم المستنصر. أحبها وتعلق بها، وعرض عليها أن يعقها ويتزوجها، فطلبت منه ساعرة أن يتخفف من لحته. وكانت طويلة لأنها تستبشع

١- أحمد الشامي: عقود الزواج ص ٢٥. صلاح خالص: إشبيلية، ص ٩٦.

٢- Guichard: Op. cit. p.129.

٣- أحمد الشامي: نفس المرجع، ص ٢٧. صلاح خالص: نفس المرجع، ص ٩٦؛ القادري: دراسات أندلسية، ص ١٨. كمال أبو مصطفى: مألقة، ص ٦١.

وللمزيد حول شروط المرأة الأندلسية في عقود الزواج راجع:-

كمال أبو مصطفى: نفس المرجع، ص ٦١، ٦٢، ٦٣، ٦٤.

٤- القادري: نفس المرجع، ص ١٥.

Lévi Provençal: Hist. T.III. p. 400.

٥-

ضخامتها، فاعمل فيها "الجلمين"، على حد تعبير ابن حزم، حتى لطفت، ثم دعا بجداة أشهدهم على عطفها، وحين خطبها لنفسه، لم ترض به. وكان في جملة من حضر أخوه "حكيم بن منلو"، فأسر إلى واحد في المجلس أن يعرض عليها رغبته في خطبتها لنفسه، فرضيت به وتزوجته في ذلك المجلس بعينه. وكوكت قرطبة هذا الموقف من الحكم على نسكه وورعه واجتهاده، ولكن الجارية أنفذت رأيها، وما كانت تستطيع، لو لم يكن ذلك حقاً مقرواً لها. ولن يبالغ أي أذى في استعمال هذا الحق.<sup>(١)</sup>

وعن "عائشة بنت أحمد القرطبية"، يحكى للقري: أنه خطبها بعض الرجال والشعراء، ولم ترض عن أحد منهم، وكبت تقول:—

أنا لبؤة ولكني لا أرتضي

نفسى مناًطاً طول عمري من أحد

لو أننى اختار ذلك لم أجب

كلاً وقد غلقت سمعى عن أحد<sup>(٢)</sup>

وعن زهون بنت القلاصى الغرناطية، رفضت رجلاً قبيحاً تقدم إليها، ولم يستهويها، وكبت إليه شعراً فجوه فيه،<sup>(٣)</sup> وقد أشعرط الوثريسي: لصحة الزواج، أن تسمع موافقة المرأة علانية، وإلا ستكون مصيبة تحل بالزوج والزوجة ووليها، إذا غضبت أو أكرهت المرأة على الزواج بدون موافقتها وإذناً.<sup>(٤)</sup> والقناة البكر البعجة، لا تزوج إلا بأذنها وإذناً صحتها، فحين تسأل عن رأيها، فإن صمتت زوجت، وإن أنكرت بالقول أو بالبكاء أو ما يظهر عليها ما يدل على الرفض، لم تزوج.<sup>(٥)</sup>

أما عن تعدد الزوجات، فقد قيده الشريعة بأربع زوجات، وأباحته لضرورات، أحصاها فقهاء الشريعة، ووضعت شروطاً له، من أهمها كما ذكر ابن عبد الرؤوف، المساواة في الملبس، والطعام، والمبيت، وعدم تفضيل واحدة على الأخرى، إلا ما لا يستطيع العدل فيه، مثل الجماع، والحب، ورغم كل هذه الشروط نجد الإسلام يحث على الاكتفاء بواحدة، ويوضح ذلك في قوله تعالى: وإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة.<sup>(٦)</sup>

١- ابن حزم: طوطي الحفامة، ص ٧١، ٧٢ الطاهر مكي: دراسات عن ابن حزم، ص ٢٧٢.

٢- للقري: لفتح الطيب، ج ٤، ص ٢٩٠.

٣- القادري: دراسات أندلسية، ص ١٥.

٤- الوثريسي: الثغوار المغرب، ج ٣، ص ١٣٠، ١٣١.

٥- ابن عبد الرؤوف: رسالة في الحسنة، الرسالة الثانية، ص ١٨٠ الوثريسي: نفس المصدر، ج ٣، ص ١٣٦، ١٦٩، ٢٥٣.

٦- ابن عبد الرؤوف: نفس المصدر. الرسالة الثانية، ص ١٨٣ الشامي: عقود الزواج في الإسلام، ص ٩.

وكان المحاسب يأمر الرجل، إذا كانت له ابنتان، ألا يزوج الكبيرة على ألها الصغيرة، أو العكس. وإذا كانت إحدىاهن أجل من الأخرى، فلا يزوج الأقل جمالاً على ألها الأخرى.<sup>(١)</sup> والجدير بالذكر هنا أن تدخل الأمهات في أمور الزواج، كان كثيراً، وخاصة في نقاط المهر والصدائق.<sup>(٢)</sup> ويقص علينا ابن حزم قصة حول تدخل الأمهات، وهي قصة أم يحيى بن محمد، إلى حد أن منعه من الزواج بجارية، وهو قرطبي من أصل عريق، فباعته الجارية، حتى تجمعها عنه على غير إرادته. وذهبت إلى تزويجه من إحدى العامرات، حتى أصيب بالجنون.<sup>(٣)</sup>

أما عن حفلات الزواج. فقد كانت من الأحداث الهامة، التي يحتفي بها الإسبان المسلمون، إحتفاءً شديداً. فقد كانت العروس تخرج من بيت أهلها، إلى بيت زوجها، مرتدية ثوباً خاصاً لهذه المناسبة، ومشهد الحفل يكون مثار إعجاب المدعوين. ويتكلف بيت العروس نفقات طائلة، مما أدى إلى شن حملة قوية من الفقهاء على ذلك النمط، وتشغل حفلات الزواج إسبوعاً كاملاً، وقد ترك لنا ابن حزم في " الطوق " وصفاً لحفل جرت العادة على عمله بشوارع قرطبة، وبه عدد كبير من المارة، والفارغين عن العمل، وما أكثرهم بقرطبة.<sup>(٤)</sup>

وكانت هذه الأعراس، تنحدر فيها الذبائح، وتندق الطبول، وتعزف المزامير وتكون فرصة لالتقاء النساء القساق، بالرجال، فيشربون الخمر. وكان هذا كله موضع استكار من الفقهاء.<sup>(٥)</sup> ولم يمنع الفقهاء اظهار الانبهاج والفرحة بالعرس تأسيساً بسنة الرسول، أن يضربوا بالدف في الأفراح، ولكن ما منعه، هو الاسراف في اللهو والفجور.<sup>(٦)</sup>

ويحضر الأندلسيون الليلة التي تسبق عيد النيروز ( أي عيد الربيع وهو في شهر مارس ) أنسب وقت للإحتفال بالدخلة والعرس.<sup>(٧)</sup> وهناك بعض الرجال لم يحدوا حرجاً في الزواج بالمرأة الثيب، طمعاً في أموالها، أو مكائنها الاجتماعية،<sup>(٨)</sup> بعد التغالي في المهور، الذي نظروا إليه على أنه " شبح " بسبب تكاليفه الباهظة، التي دفعت البعض إلى العزوف عنه، وتفضيل حياة العزوبة خوفاً مما يفرضه

١- ابن عبد الرؤوف: المصدر السابق، ص ٨٢.

٢-

Guichard: op, cit, p. 129.

٣- الظاهر مكّي: دراسات عن ابن حزم، ص ٢٧٠، ٢٧١.

٤- بروس: الشعر الأندلسي، ص ٢٦٤، ٢٦٥ الظاهر مكّي: نفس المصدر، ص ٤٢، ٤٣.

٥- الوئشريسي: لمغيار المغرب، جـ ٣، ص ٢٥٠، ٢٥١.

٦- الوئشريسي: نفس المصدر، جـ ٦، ص ٤١٧.

٧- بروس: الشعر الأندلسي، ص ٢٧١.

٨- القادري: دراسات أندلسية، ص ١٢.

الزواج من واجبات، ومسئوليات جسيمة. فيشير ابن قزمان في فزجاله، إلى شخص تكبد في زواجه تكاليف باهظة، جعلته يعاهد نفسه بعدم معاودة التجربة مرة ثانية.<sup>(١)</sup>

وكان الرجل الأندلسي يفضل السري على الزواج، نظراً لوفرة الإماء والجنود. ففي أيام المنصور بن أبي عامر، تغالى الناس في مهوور بناقم، وما يجهزونهم به من الثياب والحلي والدُّور، فعرف الناس عن الزواج بالسري.<sup>(٢)</sup>

وفي هذا المعنى يذكر المقرئ: أن محمد بن أفلح، غلام الحكم المستنصر، صاق بجهاز ابنته، وحمل مالا يطبق، حتى لم يبق معه سوى لحام محلى بالذهب، فذهب به إلى المنصور بن أبي عامر. وكان صاحب دار ضرب العملة في ذلك الوقت، وأعلمه بحاجته، فأعطاه دراهم وزن اللجام بمجده وسوره. ففرح فرحاً عظيماً، وكاد لا يصدق ما حدث له، من كرم المنصور معه، حتى أنه قال عنه، لو جئني على خلع طاعة مولاي الحكم لفعلت. ويدل أنه كان في ضائقة شديدة، حتى يقول هذا الكلام الخطير.<sup>(٣)</sup> وكلمة مهر كلمة حبشية قديمة، ومعناها الثمن.<sup>(٤)</sup>

ومن المؤكد أن قيمة المهر، اختلفت حسب موقع العائلات في الهرم الاجتماعي. فتحلثا كتب الفتاوى والنوازل، حول ما يسوقه الرجل لزوجته أحياناً " قرية بكاملها " وأحياناً أخرى نصف ما يملكه وأحياناً ما يملكه كله .

وأحياناً يشترط أن ما يستجد بينهما بعد الزواج يكون مناصفة بينهما.<sup>(٥)</sup> وكان الأب يهب ابنته بعض الهدايا والدور في جهازها، والبعض الآخر يخرج لها الهدايا على سبيل التفاخر والتباهي أمام الناس، على أن ترد مرة أخرى بعد إتمام الزواج. وكتب الفتاوى مليئة بتلك العادة الأندلسية، التي أحدثت في بعض الأحيان الكثير من المشاكل، لطمع الزوج أحياناً فيما بين يديه، وعدم اعتزاله برد تلك الأشياء التي أخرجها الأب على سبيل التباهي والتفاخر، وليس منكأً خالصاً أو هبة لا ترد.<sup>(٦)</sup>

١- القادري: نفس المرجع، ص ٩، ١٠، ١١.

٢- العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص ٢٥٠.

٣- المقرئ: فتح الطب، ج ٣، ص ٨٨.

٤- أحمد الشامي: عقود الزواج، ص ٢٣، ٢٤.

وحول معنى المهر في القرآن الكريم. راجع أحمد الشامي: نفس المرجع، ص ٢٣ وما بعدها.

٥- الوئشيسى: المعيار للمغرب، ج ٣، ص ١١٧، ١٤٥، ج ٦، ص ٧٨.

٦- الوئشيسى: المرجع السابق، ج ٣، ص ١٢٢، ١٢٣، ١٢٥، ١٢٦، ج ٦، ص ٧٧.

والد كانت الهدية التي توهب للعروس من قبل أهلها بحاسب عنها الزوج، بل وتورث عنها في حالة وفاتها بعد الزواج.<sup>(١)</sup> وكان من حق الزوج أن يستمتع بجهاز الزوجة، التي جهزت به من أموال الصداق، أو المهر فقط، فكان من حقه أن يستمتع بالأسطة والأفرشة التي أحضرها الزوجة معها من هذا المال.<sup>(٢)</sup>

وكان الزوج بعد لدخول بزوجه، إذا وجد بها عيبا، يحير بين أمرين، إما أن يحسك بها أو يطلقها.<sup>(٣)</sup> ولم تكن كل الزوجات تسير دائما على ما يرام، فقد ذكر بروس: أن الشعر لم يصمت، وأمددا بأبيات توضح ما كان يحدث من مشاحنات ومشاجرات بين الأزواج. كانت تؤدي في كثير من الأحيان إلى الطلاق.<sup>(٤)</sup>

وقبل أن نقف عن موضوع الطلاق، أود أن أشير إلى شيء توصلت إليه من خلال دراستي هذا الموضوع، وهو ما يمكن أن نطلق عليه "الزواج السياسي" أي زواج المصلحة، وتحقيق مآرب سياسية، أو مناصب من وراء إتمام تلك الزوجات، وخاصة بين الطبقات الحاكمة.

وكانت أولى هذه الزوجات، ذلك العرض الذي تلقاه "عبد الرحمن بن معاوية الداخل" لحظة دخوله الأندلس من يوسف الفهري بتزويجه ابنته "أم موسى"، وذلك محاولة يوسف ضمّه إليه خوفاً من شعبيته الكبيرة، والتي كانت تزداد يوماً بعد يوم، وخوفاً من هروب الأمر والحكم من يده، ومحاولة لاستخلاص الأمر لنفسه في إمارة الأندلس. ولكن عبد الرحمن بن معاوية تبه لتلك المحاولة من جانب يوسف، ورفض تلك الزيجة ولم تتم.<sup>(٥)</sup>

أما الزيجة الأخرى، فهي زواج أسماء بنت غالب من المنصور بن أبي عامر. فقد كان المنصور على عداوة شديدة مع الخاجب جعفر بن عثمان المصحفي، لأمر من أمور الدولة.<sup>(٦)</sup> وأخذ جعفر يتقرب إلى غالب بن عبد الرحمن والد أسماء وقائد الجيوش، فخطب ابنته لابنته عثمان. ولفظ ابن أبي عامر إلى ما يدبر له من جعفر المصحفي بذلك الزيجة، ومصاهرة قائد الجيوش، وكادت تلك السياسة أن تؤتي ثمرها. ولكن ابن أبي عامر، حال دون إتمام تلك المصاهرة، ودفع أهل القصر،

١- الوثائقي: نفس المصدر. جـ ٣، ص ١٦٧.

٢- الوثائقي: نفس المصدر. جـ ٣، ص ١١٦، ١١٧، جـ ٦، ص ٤٢٩، ٤٣٠.

٣- الوثائقي: نفس المصدر. جـ ٣، ص ١٦٦، ١٦٨ ابن عبد الرؤوف: رسالة في الحسنة. الرسالة الثانية، ص ٨١.

٤- بروس: الشعر الأندلسي. ص ٢٦٥.

٥- مجهول: أخبار مجموعة. ص ٧، ١٧١ ابن عذاري: البيان المغرب، جـ ٢، ص ٤٣، ٤٥.

Dozy: Histoire, T.I, p. 264, 265.

٦- انظر أسباب الصراع، العبادي: في تاريخ المغرب، ص ٢٤٤.

وعلى رأسهم " صبح " ام الخليفة هشام المؤيد بالوسط في محتاطة غالب بالموافقة عليه. ونجح في فسح تلك المصاهرة، ووافق غالب على خطبته لانتته، وعقد عليها في محرم سنة ٣٦٧هـ - ٩٧٨م. وبذلك المصاهرة تم أمره، وعز جانبه، بل واستطاع أن يقضي على المصحفي، وأوعز إلى الخليفة باستصدار أمر بعزل المصحفي، وزج به في السجن، وقضى بذلك على أهم خصومه السياسيين.<sup>(١)</sup>

ومن تلك المصاهرات أيضاً، زواج الوزير عيسى بن سعيد من أخت عبد الملك المظفر بن أبي عامر الصغرى، وإحدى بنات المنصور. وقد أخذت أمور الوزير بعد هذا الزواج. تنامي في الجلالة والعظمة، وأخذته الألسنة على حد تعبير ابن بسام. أي أصبح مشهوراً.<sup>(٢)</sup>

وتزوج أيضاً المظفر عبد الملك بن أبي عامر بواجدة بنت رجل من الجنائين أحبهما حتى حمله حبها على زوجها رغم الفوارق الشاسعة بينهما.<sup>(٣)</sup>

## (٢) الطلاق.

أما عن الطلاق، فيبدو أن المرأة الأندلسية، من نص أوردة المقرري في الفتح، لم تلفف مكنوفة الأيدي حماله. ولم تكن دائماً ترضى بالأمر الواقع، وتسلم به. ويقول المقرري: "إن امرأة رفعت إلى أبي جعفر الشقوري، وكان جالساً في مجلس حكمة، بأنها تحب مطلقها، وتبغى الشفاعة لها في ردها إليه، فتناول الرقعة منها، ووقع عليها بالشفاعة لها في ردها إلى زوجها، وذلك تأسيساً بشفاعة الرسول ﷺ ثبرية في مُغيث.<sup>(٤)</sup>

ويتضح من وثائق الطلاق الأندلسية، أنها تبدأ بذكر " احتلاع " أي طلاق الزوج لزوجته. وبذكر اسم الزوج والزوجة، وأحياناً كانت المطلقة تروى زوجها (طليقتها) من نفقة العدة، ومؤخر الصداق، نظير أن يتنازل لها عن حضنة الإبناء أو البنات. وكان الأب يقوم بالإنفاق على ابنائه أو بناته. إلى أن تسقط النفقة بزواج البنات، وتلحم وثيقة الطلاق بذكر " أسماء الشهود، ثم للزوج باليوم والشهر والسنة.<sup>(٥)</sup>

١- ابن عذاري: المرجع السابق، ج ٢، ص ٢٦٧ ونظير كذلك عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين والأندلس، ص ٣٣٠.

Dozy: op. cit. T.II, p.216.

٢- ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، مجلد (١)، ص ١٢٤.

٣- ابن حزم: طرق إخماعة، ص ١٩، ٢٠.

٤- المقرري: فتح الطب، ج ٥، ص ٣٨٦ ثبرية جارية عائشة ومُغيث زوجها، فلما أعطت ثبرية وهو ما يزال على الفرق، اختارت مفارقتها، فحاء إلى النبي يكي. ويسأله أن يشفع له عندها.

٥- كمال أبو مصطفي: مالقة الإسلامية، ص ٦٩، هامش رقم (١).

أما عن الأسباب الموجبة للطلاق، فقد أوردت بعض كتب "الفتاوى" ما كان يوجب على المرأة خاصة طلب الطلاق من زوجها، عكس الرجل الذي كان حقه مطلقاً، ولا يحتاج إلى أسباب للطلاق، وفي بعض الأحيان كان يأتي الرجل طلاق زوجته، فكانت تلجأ إلى القاضي تشكو إليه، وكان القاضي في كثير من الأحيان، وخاصة إذا إقنع بشكواها، يساعدها على الانفصال عن زوجها.

وقد أورد الخشني: في هذا الموضوع قصة عن القاضي سعيد بن سليمان الغافقي. وقد جلس بين يديه رجل وزوجته متنازعان، وتريد الزوجة الطلاق وتصر عليه، والزوج يراودها في دفع ثمناً لطلاقها، وهي لا تملك شيئاً تدفعه له وتضدي نفسها منه، فراوده القاضي في أن يدفع له فدية مقابل طلاقها وتصر عليه، والزوج يراودها في دفع ثمناً لطلاقها فرفض وكان القاضي لديه شقة بيضاء أي جبة وهي شئ مثل العباءة يلبسها في الشتاء يحميها من البرد وكان قد صنعها له أهل بيته فاستمني عنها في سبيل حل التواء وإعطاء تلك المرأة حريتها لما رآه من تمسكها بالطلاق بل وصل الأمر إلى التهديد بقتل نفسها أمام القاضي إذا لم يطلقها منه<sup>(١)</sup>.

ومن الأسباب الأخرى التي توجب طلاق المرأة، ويأخذ بها القاضي، أن تكون كارهة لزوجها، وأيضاً كما ذكر الونشريسي في المعيار: تطلق المرأة من الزوج الذي يغصب أموالها بدون إذنها ورضائها، فلها في هذا الحالة أن تطلب الطلاق، فإن رفض الزوج طلاقها فإثمها في عقده، أي ذنبها في رقبته، ولها أن تلجأ إلى القاضي<sup>(٢)</sup>.

ومن الأسباب الموجبة لطلاق المرأة أيضاً، إذا أساء زوجها معاملتها بالسب، أو بالضرب، أو كانت تسكن معه في حاضرة، وتشكو منه قلة النفقة، رغم ثرائه، ورغبت في أن تلجأ إلى قوم صالحين هربوا منه، ومن معاملته، في هذه الحالة يطلب القاضي إيداعها عند قوم آمنين حتى يتعهد الزوج بغير معاملته لها، أو تطلق منه. وتوضع المرأة مع نساء مثلها، وليس مع رجال حفاظاً عليها حتى تحل مشكلتها<sup>(٣)</sup>. وكان يلجأ إلى هذا الحل حماية للمرأة، وخاصة إذا كانت غير مسورة ويخاف عليها من الضياع، لعدم وجود عائل لها، أو مورد رزق.

وتطلق المرأة أيضاً، إذا عرضها زوجها للفجور والفسق من أجل جلب مزيد من المال. وعند ذلك تلجأ إلى القاضي. الذي يتأكد من صحة شكواها، وفساد زوجها، وعدم أمانته عليها، وأنه غير مسور، ولذلك يعرضها دون رضاها للفساد، فيحكم القاضي بتطليقها<sup>(٤)</sup>.

١- الخشني: قضية قرطبة، ص ٦٣، ٦٤.

٢- الونشريسي: المعيار للعرب، ج ٦، ص ١٤٨.

٣- الونشريسي: نفس المصدر، ج ٣، ص ١٣١.

٤- الونشريسي: نفس المصدر، ج ٢، ص ٤٣٢، ٤٣٣.

والمرأة التي تفقد زوجها لمدة عام في أرض الإسلام تُر الحرب، ولم تتحقق حياته من ثماته، كانت تقوم برفع مشكلتها إلى القاضي، الذي كان يقوم بدوره بالتثبت من حضور المفقود " أي الزوج " في صف القتال أو غيابه وانقطاع أخباره. فإذا تأكد من ذلك أجله سنة عن يوم بيت ذلك عنده. فإذا تمت السنة ولم يسمع له خبر " اعتدت الزوجة " أي أولت عدلها وقسم ماله بين ورثته وجاهز لأمرائه الزواج بعد أربع سنوات من فقدائه.<sup>(١)</sup> وفي حالة رجوع الزوج بعد كل الإجراءات السابقة من قبل القاضي تيرأ المرأة من أي إتمام يوجه إليها وخاصة إذا كانت قد تزوجت بغيره، وتبقى مع زوجها الثاني لعدم توافر سوء النية من جانبها.<sup>(٢)</sup>

ومما سبق يتضح لنا أن المرأة الأندلسية مثل أية امرأة مسلمة طُُبقت عليها القواعد والقوانين الشرعية الإسلامية، لتعطى الحق في طلب الطلاق من زوجها إذا أحسّت أن هذا الزواج سيقدم لها ضرراً مادياً أو معنوياً.



١- كمال أبو مصطفي: عائلة الإسلامية، ص ٦٨.

٢- الوثنيسي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٣٠ - ٤٣١.





## الفصل الثاني.

### دور المرأة في المجال السياسي في الأندلس.

أولاً: تأثير أمهات الأولاد على الولاة والأمراء والخلفاء. في عصر الدولة الأموية.

أ- أيلة أو إيجلونتا Egilona والأمير عبد العزيز بن موسى.

ب- سارة القوطية Sara La Goda.

ج- عجب والحكم الربيعي.

د- طروب في عهد عبد الرحمن الأوسط وسلطانها.

ثانياً: "در \* أو \* وثقة" بنت فرتون البشكنية جدة الخليفة عبد الرحمن الناصر.

ثالثاً: السيدة صبح Aurora البشكنية ودورها في المجال السياسي.

رابعاً: أمهات ولد المنصور بن أبي عامر.

أ- عبدة بنت شاذيه البشكنية

ب- تيرس Teres أو تاراسيا Tarasia بنت برمودة  
القائد Bermuda II ملك ليون ٩٨٨ م.

أولاً: تأثير أمهات الأولاد على الولاة والأمراء والخلفاء في عصر الدولة الأموية.

(أ) أيلة أو إيجلونتا والأمير عبد العزيز بن موسى.

مارست الجوارح أمهات الأولاد نفوذاً كبيراً في الحياة السياسية.<sup>(١)</sup> فكثيراً ما كانت تحدث في البلاط مآسى وروايات ومهازل وتدير فيه النساء، وتنظم المؤامرات بين رجال البلاط ورجال الدولة. وكثيراً ما كانت تشترك النساء في تلك المؤامرات،<sup>(٢)</sup> بطريق مباشر أو غير مباشر. وكان الطريق الثاني أكثر شيوعاً واستخدماً لدى الجوارح، لما فيه من سهولة، وقليل من العناء.<sup>(٣)</sup> ومن أوائل تلك المؤامرات. ومع بدايات الفتح الإسلامي للأندلس، نذكر ما حدث لوالى الأندلس عبد العزيز بن موسى بن نصير، الذي خلف والده على إمارة الأندلس. بعد رجوعه إلى المشرق. وقام بجليل الأعمال في تثبيت دعائم السيادة الإسلامية في شبه جزيرة أيبيريا واستكمال فتحها والقضاء

١ - الطاهر أحمد مكي: دراسات عن ابن حزم وكتابه طرق الحمامة. الطبعة الثالثة. دار المعارف. ١٩٨١ م. ص ١٩.

٢ - عبد الحميد العبادي: الجليل في تاريخ الأندلس. ص ١٦١: أحمد مختار العبادي: دراسات في تاريخ العرب والأندلس. ص ٦٤.

٣ - عمر رضا كحالة: المرأة في عالى العرب والإسلام. سلسلة بحوث إحصائية. الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة. القاهرة ١٩٨١ م. ج ٦، ص ٦١.

على الكثير من الثروات.<sup>(١)</sup> فكان أول من نظم البلاد من الناحية الادارية. ومهد لنقل الإسبان إلى الاستعراب، ضارباً المثل الأول بزواجه من قوطية.<sup>(٢)</sup>

فقد تزوج عبد العزيز بن موسى من يخلونا "Egilona"، أرملة الملك لوزيق، وتطلق عليها المصادر العربية اسم أيلة "Aila". أما للمصادر الإسبانية قسمها Egilona أو Egilon.<sup>(٣)</sup>

ويذكر الأستاذ/ ليفي بروفنسال Lévi Provençal: أن هذه الأميرة من المحتمل أن تكون قد أسست، ودانت بالديانة الإسلامية، حتى ولو ظاهرياً. ومن المحتمل أيضاً أنها بعد أن تزوجت عبد العزيز، أنجبت منه فتي أسمته "عاصم". بدليل أنها حملت لقباً جديداً في المصادر العربية وهو "أم عاصم" نسبة إلى ابنها من زوجها الجديد.<sup>(٤)</sup>

وقد عاش معها عبد العزيز مدة ولايته في إشبيلية Sevilla. التي كانت العاصمة السياسية للأندلس في ذلك الوقت. قبل نقلها إلى قرطبة Cordoba. في عهد أمراء بني أمية. واتخذ سكنه معها في جزء من كنيسة "سانتا روفينا" Santa Rufina. وتطلق باللغة الإسبانية Rabina، والتي تحولت فيما بعد إلى مسجد.<sup>(٥)</sup>

ولقد خُصّلت الكثير من المصادر العربية، تلك الأميرة، مستولية اغتيال عبد العزيز بن موسى على يد اتباعه. فيجمع ابن عبد الحكم وابن عذاري والقرقي، في نقل تلك الأحداث. بنفس التفاصيل دون أدنى اختلاف. حول قصة زواج عبد العزيز من يخلونا. والتي كانت قد صاحلت بعد الفتح على نفسها وأموالها، وباءت بالجزية، وأقامت على دينها في ظل نعمتها.

ويبدو أنها كانت على درجة كبيرة من الجمال والذكاء. بحيث استطاعت أن تفنن زوجها، وتلك زمامه. فقد أقعته بوضع تاج فوق رأسه، تشبهاً بملوك النصارى، رغم أنه عارضها في البداية قنألاً لها: ليس في ديننا استحلال لباسه فقالت له: إن الملوك إذا لم يزوجوا فلا ملك لهم، فهل لي أن أعمل لك مما بقى عندي من الجوهر والذهب تاجاً؟ ولئن يعرف أتباعك ما أنت عليه في خلوتك، ولم تزل به حتى فعل.

١- السيد عبد العزيز سالم: دائرة معارف الشعب. عدد ٦١ ج، ص ٦

٢- عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم. ص ١١٥ محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس. العصر الأول، القسم الأول ص ٧١.

٣- Sánchez Albornoz: La Espana Musulmana, T.I, p. 53.

Lévi Provençal: Histoire de L'Espagne Musulmane, T.I. p.33.

٤- Provençal: op. cit, tI, p33

٥- Ibid: p 33. Albornoz: op. cit, T.I, p. 53.

وبينما هو ذات يوم جالس، والتاج على رأسه، دخلت عليهم امرأة. كان قد تزوجها زياد بن النابغة التميمي. وكانت هي أيضاً من بنات النصارى، فرأته والتاج على رأسه. فلما عادت ليبتها قالت لزياد، ألا أعمل لك تاجاً؟ فقال: ليس في ديننا استحلال لباسه فقالت: "ودين المسيح؟ إنه لعلى إمامكم، فأعلن ذلك زياد بن حبيب، إلى أي عيدة بن عقبة بن نافع، وتحدثا به مع خيار الجند، فلم تكن لهم همة من هذا الوقت، إلا كشف ذلك، حتى راوه عياناً وصدقاً، فقالوا تنصر، ثم هجموا عليه وقتلوه.

وهناك رواية ثانية قيلت في أسباب مقتل عبد العزيز بن موسى، وهي أنه اتخذ باباً صغيراً أمام مجلسه، حتى ينحني كل من يدخل عليه دون أن يشعر الداخل بأنه ينحني، وجعل لا يخلونوا مجلساً تنظر منه إلى الناس، إذا دخلوا عليه وترأهم من موقعها دون أن يروها. فلما رأقهم ينحنون أمام عبد العزيز، ظنت أنهم يسجدون له، فقالت له: الآن قوي ملكك، وبلغ الناس ما أراداه عبد العزيز من وراء فتح هذا الباب الصغير. فثار أتباعه ومن معهم من العامة، ووثبوا عليه وقتلوه.<sup>(١)</sup>

ويخرج لنا الأستاذ الدكتور/حسين مؤنس، من أحداث القصة الأولى معلومة جديدة حول الألفة والاضمة، التي سادت بينوات الأندلس عقب تروجه من الإسبانيات. وعرفنا ذلك من خلال قصة التزاور<sup>(٢)</sup> أي تبادل الزيارات العائلية " والتي رأت فيها زوجة زياد بن النابغة عبد العزيز، بوضعا التاج على رأسه في خلوته."<sup>(٣)</sup>

وأود أن أضيف هنا بأنه ربما كانت يخلونوا على صلة قرابة بزوجة زياد وعاصمة أن كلاهما مسيحية إسبانية، وعلى صلة وثيقة بحيث تدخل عليهم، بل، وتصل، ويدون حرج إلى عبد العزيز في خلوته مع زوجته.

لقد كانت تلك الحادثة هي الجريمة السياسية الأولى في الأندلس، على حد تعبير المستشرق الإسباني/البورث Albornoz،<sup>(٤)</sup> وكالعادة انقسم المؤرخون المستشرقون. ما بين مؤيد ومعارض

١- حول أسباب مقتل عبد العزيز بن موسى بن نصو. راجع القصصين السابقين بالتفصيل في:

ابن عبد الحكم: ( عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم ) فتح إفريقية والأندلس، بيروت ١٩٦٤، ص ٨٥، ٨٤، ١٨٤، ١٨٥، ١٨٦، ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠، ١٩١، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٧، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١١، ٢١٢، ٢١٣، ٢١٤، ٢١٥، ٢١٦، ٢١٧، ٢١٨، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٦٥، ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٧٥، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٢، ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٣، ٢٩٤، ٢٩٥، ٢٩٦، ٢٩٧، ٢٩٨، ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٣، ٣٠٤، ٣٠٥، ٣٠٦، ٣٠٧، ٣٠٨، ٣٠٩، ٣١٠، ٣١١، ٣١٢، ٣١٣، ٣١٤، ٣١٥، ٣١٦، ٣١٧، ٣١٨، ٣١٩، ٣٢٠، ٣٢١، ٣٢٢، ٣٢٣، ٣٢٤، ٣٢٥، ٣٢٦، ٣٢٧، ٣٢٨، ٣٢٩، ٣٣٠، ٣٣١، ٣٣٢، ٣٣٣، ٣٣٤، ٣٣٥، ٣٣٦، ٣٣٧، ٣٣٨، ٣٣٩، ٣٤٠، ٣٤١، ٣٤٢، ٣٤٣، ٣٤٤، ٣٤٥، ٣٤٦، ٣٤٧، ٣٤٨، ٣٤٩، ٣٥٠، ٣٥١، ٣٥٢، ٣٥٣، ٣٥٤، ٣٥٥، ٣٥٦، ٣٥٧، ٣٥٨، ٣٥٩، ٣٦٠، ٣٦١، ٣٦٢، ٣٦٣، ٣٦٤، ٣٦٥، ٣٦٦، ٣٦٧، ٣٦٨، ٣٦٩، ٣٧٠، ٣٧١، ٣٧٢، ٣٧٣، ٣٧٤، ٣٧٥، ٣٧٦، ٣٧٧، ٣٧٨، ٣٧٩، ٣٨٠، ٣٨١، ٣٨٢، ٣٨٣، ٣٨٤، ٣٨٥، ٣٨٦، ٣٨٧، ٣٨٨، ٣٨٩، ٣٩٠، ٣٩١، ٣٩٢، ٣٩٣، ٣٩٤، ٣٩٥، ٣٩٦، ٣٩٧، ٣٩٨، ٣٩٩، ٤٠٠، ٤٠١، ٤٠٢، ٤٠٣، ٤٠٤، ٤٠٥، ٤٠٦، ٤٠٧، ٤٠٨، ٤٠٩، ٤١٠، ٤١١، ٤١٢، ٤١٣، ٤١٤، ٤١٥، ٤١٦، ٤١٧، ٤١٨، ٤١٩، ٤٢٠، ٤٢١، ٤٢٢، ٤٢٣، ٤٢٤، ٤٢٥، ٤٢٦، ٤٢٧، ٤٢٨، ٤٢٩، ٤٣٠، ٤٣١، ٤٣٢، ٤٣٣، ٤٣٤، ٤٣٥، ٤٣٦، ٤٣٧، ٤٣٨، ٤٣٩، ٤٤٠، ٤٤١، ٤٤٢، ٤٤٣، ٤٤٤، ٤٤٥، ٤٤٦، ٤٤٧، ٤٤٨، ٤٤٩، ٤٥٠، ٤٥١، ٤٥٢، ٤٥٣، ٤٥٤، ٤٥٥، ٤٥٦، ٤٥٧، ٤٥٨، ٤٥٩، ٤٦٠، ٤٦١، ٤٦٢، ٤٦٣، ٤٦٤، ٤٦٥، ٤٦٦، ٤٦٧، ٤٦٨، ٤٦٩، ٤٧٠، ٤٧١، ٤٧٢، ٤٧٣، ٤٧٤، ٤٧٥، ٤٧٦، ٤٧٧، ٤٧٨، ٤٧٩، ٤٨٠، ٤٨١، ٤٨٢، ٤٨٣، ٤٨٤، ٤٨٥، ٤٨٦، ٤٨٧، ٤٨٨، ٤٨٩، ٤٩٠، ٤٩١، ٤٩٢، ٤٩٣، ٤٩٤، ٤٩٥، ٤٩٦، ٤٩٧، ٤٩٨، ٤٩٩، ٥٠٠، ٥٠١، ٥٠٢، ٥٠٣، ٥٠٤، ٥٠٥، ٥٠٦، ٥٠٧، ٥٠٨، ٥٠٩، ٥١٠، ٥١١، ٥١٢، ٥١٣، ٥١٤، ٥١٥، ٥١٦، ٥١٧، ٥١٨، ٥١٩، ٥٢٠، ٥٢١، ٥٢٢، ٥٢٣، ٥٢٤، ٥٢٥، ٥٢٦، ٥٢٧، ٥٢٨، ٥٢٩، ٥٣٠، ٥٣١، ٥٣٢، ٥٣٣، ٥٣٤، ٥٣٥، ٥٣٦، ٥٣٧، ٥٣٨، ٥٣٩، ٥٤٠، ٥٤١، ٥٤٢، ٥٤٣، ٥٤٤، ٥٤٥، ٥٤٦، ٥٤٧، ٥٤٨، ٥٤٩، ٥٥٠، ٥٥١، ٥٥٢، ٥٥٣، ٥٥٤، ٥٥٥، ٥٥٦، ٥٥٧، ٥٥٨، ٥٥٩، ٥٦٠، ٥٦١، ٥٦٢، ٥٦٣، ٥٦٤، ٥٦٥، ٥٦٦، ٥٦٧، ٥٦٨، ٥٦٩، ٥٧٠، ٥٧١، ٥٧٢، ٥٧٣، ٥٧٤، ٥٧٥، ٥٧٦، ٥٧٧، ٥٧٨، ٥٧٩، ٥٨٠، ٥٨١، ٥٨٢، ٥٨٣، ٥٨٤، ٥٨٥، ٥٨٦، ٥٨٧، ٥٨٨، ٥٨٩، ٥٩٠، ٥٩١، ٥٩٢، ٥٩٣، ٥٩٤، ٥٩٥، ٥٩٦، ٥٩٧، ٥٩٨، ٥٩٩، ٦٠٠، ٦٠١، ٦٠٢، ٦٠٣، ٦٠٤، ٦٠٥، ٦٠٦، ٦٠٧، ٦٠٨، ٦٠٩، ٦١٠، ٦١١، ٦١٢، ٦١٣، ٦١٤، ٦١٥، ٦١٦، ٦١٧، ٦١٨، ٦١٩، ٦٢٠، ٦٢١، ٦٢٢، ٦٢٣، ٦٢٤، ٦٢٥، ٦٢٦، ٦٢٧، ٦٢٨، ٦٢٩، ٦٣٠، ٦٣١، ٦٣٢، ٦٣٣، ٦٣٤، ٦٣٥، ٦٣٦، ٦٣٧، ٦٣٨، ٦٣٩، ٦٤٠، ٦٤١، ٦٤٢، ٦٤٣، ٦٤٤، ٦٤٥، ٦٤٦، ٦٤٧، ٦٤٨، ٦٤٩، ٦٥٠، ٦٥١، ٦٥٢، ٦٥٣، ٦٥٤، ٦٥٥، ٦٥٦، ٦٥٧، ٦٥٨، ٦٥٩، ٦٦٠، ٦٦١، ٦٦٢، ٦٦٣، ٦٦٤، ٦٦٥، ٦٦٦، ٦٦٧، ٦٦٨، ٦٦٩، ٦٧٠، ٦٧١، ٦٧٢، ٦٧٣، ٦٧٤، ٦٧٥، ٦٧٦، ٦٧٧، ٦٧٨، ٦٧٩، ٦٨٠، ٦٨١، ٦٨٢، ٦٨٣، ٦٨٤، ٦٨٥، ٦٨٦، ٦٨٧، ٦٨٨، ٦٨٩، ٦٩٠، ٦٩١، ٦٩٢، ٦٩٣، ٦٩٤، ٦٩٥، ٦٩٦، ٦٩٧، ٦٩٨، ٦٩٩، ٧٠٠، ٧٠١، ٧٠٢، ٧٠٣، ٧٠٤، ٧٠٥، ٧٠٦، ٧٠٧، ٧٠٨، ٧٠٩، ٧١٠، ٧١١، ٧١٢، ٧١٣، ٧١٤، ٧١٥، ٧١٦، ٧١٧، ٧١٨، ٧١٩، ٧٢٠، ٧٢١، ٧٢٢، ٧٢٣، ٧٢٤، ٧٢٥، ٧٢٦، ٧٢٧، ٧٢٨، ٧٢٩، ٧٣٠، ٧٣١، ٧٣٢، ٧٣٣، ٧٣٤، ٧٣٥، ٧٣٦، ٧٣٧، ٧٣٨، ٧٣٩، ٧٤٠، ٧٤١، ٧٤٢، ٧٤٣، ٧٤٤، ٧٤٥، ٧٤٦، ٧٤٧، ٧٤٨، ٧٤٩، ٧٥٠، ٧٥١، ٧٥٢، ٧٥٣، ٧٥٤، ٧٥٥، ٧٥٦، ٧٥٧، ٧٥٨، ٧٥٩، ٧٦٠، ٧٦١، ٧٦٢، ٧٦٣، ٧٦٤، ٧٦٥، ٧٦٦، ٧٦٧، ٧٦٨، ٧٦٩، ٧٧٠، ٧٧١، ٧٧٢، ٧٧٣، ٧٧٤، ٧٧٥، ٧٧٦، ٧٧٧، ٧٧٨، ٧٧٩، ٧٨٠، ٧٨١، ٧٨٢، ٧٨٣، ٧٨٤، ٧٨٥، ٧٨٦، ٧٨٧، ٧٨٨، ٧٨٩، ٧٩٠، ٧٩١، ٧٩٢، ٧٩٣، ٧٩٤، ٧٩٥، ٧٩٦، ٧٩٧، ٧٩٨، ٧٩٩، ٨٠٠، ٨٠١، ٨٠٢، ٨٠٣، ٨٠٤، ٨٠٥، ٨٠٦، ٨٠٧، ٨٠٨، ٨٠٩، ٨١٠، ٨١١، ٨١٢، ٨١٣، ٨١٤، ٨١٥، ٨١٦، ٨١٧، ٨١٨، ٨١٩، ٨٢٠، ٨٢١، ٨٢٢، ٨٢٣، ٨٢٤، ٨٢٥، ٨٢٦، ٨٢٧، ٨٢٨، ٨٢٩، ٨٣٠، ٨٣١، ٨٣٢، ٨٣٣، ٨٣٤، ٨٣٥، ٨٣٦، ٨٣٧، ٨٣٨، ٨٣٩، ٨٤٠، ٨٤١، ٨٤٢، ٨٤٣، ٨٤٤، ٨٤٥، ٨٤٦، ٨٤٧، ٨٤٨، ٨٤٩، ٨٥٠، ٨٥١، ٨٥٢، ٨٥٣، ٨٥٤، ٨٥٥، ٨٥٦، ٨٥٧، ٨٥٨، ٨٥٩، ٨٦٠، ٨٦١، ٨٦٢، ٨٦٣، ٨٦٤، ٨٦٥، ٨٦٦، ٨٦٧، ٨٦٨، ٨٦٩، ٨٧٠، ٨٧١، ٨٧٢، ٨٧٣، ٨٧٤، ٨٧٥، ٨٧٦، ٨٧٧، ٨٧٨، ٨٧٩، ٨٨٠، ٨٨١، ٨٨٢، ٨٨٣، ٨٨٤، ٨٨٥، ٨٨٦، ٨٨٧، ٨٨٨، ٨٨٩، ٨٩٠، ٨٩١، ٨٩٢، ٨٩٣، ٨٩٤، ٨٩٥، ٨٩٦، ٨٩٧، ٨٩٨، ٨٩٩، ٩٠٠، ٩٠١، ٩٠٢، ٩٠٣، ٩٠٤، ٩٠٥، ٩٠٦، ٩٠٧، ٩٠٨، ٩٠٩، ٩١٠، ٩١١، ٩١٢، ٩١٣، ٩١٤، ٩١٥، ٩١٦، ٩١٧، ٩١٨، ٩١٩، ٩٢٠، ٩٢١، ٩٢٢، ٩٢٣، ٩٢٤، ٩٢٥، ٩٢٦، ٩٢٧، ٩٢٨، ٩٢٩، ٩٣٠، ٩٣١، ٩٣٢، ٩٣٣، ٩٣٤، ٩٣٥، ٩٣٦، ٩٣٧، ٩٣٨، ٩٣٩، ٩٤٠، ٩٤١، ٩٤٢، ٩٤٣، ٩٤٤، ٩٤٥، ٩٤٦، ٩٤٧، ٩٤٨، ٩٤٩، ٩٥٠، ٩٥١، ٩٥٢، ٩٥٣، ٩٥٤، ٩٥٥، ٩٥٦، ٩٥٧، ٩٥٨، ٩٥٩، ٩٦٠، ٩٦١، ٩٦٢، ٩٦٣، ٩٦٤، ٩٦٥، ٩٦٦، ٩٦٧، ٩٦٨، ٩٦٩، ٩٧٠، ٩٧١، ٩٧٢، ٩٧٣، ٩٧٤، ٩٧٥، ٩٧٦، ٩٧٧، ٩٧٨، ٩٧٩، ٩٨٠، ٩٨١، ٩٨٢، ٩٨٣، ٩٨٤، ٩٨٥، ٩٨٦، ٩٨٧، ٩٨٨، ٩٨٩، ٩٩٠، ٩٩١، ٩٩٢، ٩٩٣، ٩٩٤، ٩٩٥، ٩٩٦، ٩٩٧، ٩٩٨، ٩٩٩، ١٠٠٠، ١٠٠١، ١٠٠٢، ١٠٠٣، ١٠٠٤، ١٠٠٥، ١٠٠٦، ١٠٠٧، ١٠٠٨، ١٠٠٩، ١٠١٠، ١٠١١، ١٠١٢، ١٠١٣، ١٠١٤، ١٠١٥، ١٠١٦، ١٠١٧، ١٠١٨، ١٠١٩، ١٠٢٠، ١٠٢١، ١٠٢٢، ١٠٢٣، ١٠٢٤، ١٠٢٥، ١٠٢٦، ١٠٢٧، ١٠٢٨، ١٠٢٩، ١٠٣٠، ١٠٣١، ١٠٣٢، ١٠٣٣، ١٠٣٤، ١٠٣٥، ١٠٣٦، ١٠٣٧، ١٠٣٨، ١٠٣٩، ١٠٤٠، ١٠٤١، ١٠٤٢، ١٠٤٣، ١٠٤٤، ١٠٤٥، ١٠٤٦، ١٠٤٧، ١٠٤٨، ١٠٤٩، ١٠٥٠، ١٠٥١، ١٠٥٢، ١٠٥٣، ١٠٥٤، ١٠٥٥، ١٠٥٦، ١٠٥٧، ١٠٥٨، ١٠٥٩، ١٠٦٠، ١٠٦١، ١٠٦٢، ١٠٦٣، ١٠٦٤، ١٠٦٥، ١٠٦٦، ١٠٦٧، ١٠٦٨، ١٠٦٩، ١٠٧٠، ١٠٧١، ١٠٧٢، ١٠٧٣، ١٠٧٤، ١٠٧٥، ١٠٧٦، ١٠٧٧، ١٠٧٨، ١٠٧٩، ١٠٨٠، ١٠٨١، ١٠٨٢، ١٠٨٣، ١٠٨٤، ١٠٨٥، ١٠٨٦، ١٠٨٧، ١٠٨٨، ١٠٨٩، ١٠٩٠، ١٠٩١، ١٠٩٢، ١٠٩٣، ١٠٩٤، ١٠٩٥، ١٠٩٦، ١٠٩٧، ١٠٩٨، ١٠٩٩، ١١٠٠، ١١٠١، ١١٠٢، ١١٠٣، ١١٠٤، ١١٠٥، ١١٠٦، ١١٠٧، ١١٠٨، ١١٠٩، ١١١٠، ١١١١، ١١١٢، ١١١٣، ١١١٤، ١١١٥، ١١١٦، ١١١٧، ١١١٨، ١١١٩، ١١٢٠، ١١٢١، ١١٢٢، ١١٢٣، ١١٢٤، ١١٢٥، ١١٢٦، ١١٢٧، ١١٢٨، ١١٢٩، ١١٣٠، ١١٣١، ١١٣٢، ١١٣٣، ١١٣٤، ١١٣٥، ١١٣٦، ١١٣٧، ١١٣٨، ١١٣٩، ١١٤٠، ١١٤١، ١١٤٢، ١١٤٣، ١١٤٤، ١١٤٥، ١١٤٦، ١١٤٧، ١١٤٨، ١١٤٩، ١١٥٠، ١١٥١، ١١٥٢، ١١٥٣، ١١٥٤، ١١٥٥، ١١٥٦، ١١٥٧، ١١٥٨، ١١٥٩، ١١٦٠، ١١٦١، ١١٦٢، ١١٦٣، ١١٦٤، ١١٦٥، ١١٦٦، ١١٦٧، ١١٦٨، ١١٦٩، ١١٧٠، ١١٧١، ١١٧٢، ١١٧٣، ١١٧٤، ١١٧٥، ١١٧٦، ١١٧٧، ١١٧٨، ١١٧٩، ١١٨٠، ١١٨١، ١١٨٢، ١١٨٣، ١١٨٤، ١١٨٥، ١١٨٦، ١١٨٧، ١١٨٨، ١١٨٩، ١١٩٠، ١١٩١، ١١٩٢، ١١٩٣، ١١٩٤، ١١٩٥، ١١٩٦، ١١٩٧، ١١٩٨، ١١٩٩، ١٢٠٠، ١٢٠١، ١٢٠٢، ١٢٠٣، ١٢٠٤، ١٢٠٥، ١٢٠٦، ١٢٠٧، ١٢٠٨، ١٢٠٩، ١٢١٠، ١٢١١، ١٢١٢، ١٢١٣، ١٢١٤، ١٢١٥، ١٢١٦، ١٢١٧، ١٢١٨، ١٢١٩، ١٢٢٠، ١٢٢١، ١٢٢٢، ١٢٢٣، ١٢٢٤، ١٢٢٥، ١٢٢٦، ١٢٢٧، ١٢٢٨، ١٢٢٩، ١٢٣٠، ١٢٣١، ١٢٣٢، ١٢٣٣، ١٢٣٤، ١٢٣٥، ١٢٣٦، ١٢٣٧، ١٢٣٨، ١٢٣٩، ١٢٤٠، ١٢٤١، ١٢٤٢، ١٢٤٣، ١٢٤٤، ١٢٤٥، ١٢٤٦، ١٢٤٧، ١٢٤٨، ١٢٤٩، ١٢٥٠، ١٢٥١، ١٢٥٢، ١٢٥٣، ١٢٥٤، ١٢٥٥، ١٢٥٦، ١٢٥٧، ١٢٥٨، ١٢٥٩، ١٢٦٠، ١٢٦١، ١٢٦٢، ١٢٦٣، ١٢٦٤، ١٢٦٥، ١٢٦٦، ١٢٦٧، ١٢٦٨، ١٢٦٩، ١٢٧٠، ١٢٧١، ١٢٧٢، ١٢٧٣، ١٢٧٤، ١٢٧٥، ١٢٧٦، ١٢٧٧، ١٢٧٨، ١٢٧٩، ١٢٨٠، ١٢٨١، ١٢٨٢، ١٢٨٣، ١٢٨٤، ١٢٨٥، ١٢٨٦، ١٢٨٧، ١٢٨٨، ١٢٨٩، ١٢٩٠، ١٢٩١، ١٢٩٢، ١٢٩٣، ١٢٩٤، ١٢٩٥، ١٢٩٦، ١٢٩٧، ١٢٩٨، ١٢٩٩، ١٣٠٠، ١٣٠١، ١٣٠٢، ١٣٠٣، ١٣٠٤، ١٣٠٥، ١٣٠٦، ١٣٠٧، ١٣٠٨، ١٣٠٩، ١٣١٠، ١٣١١، ١٣١٢، ١٣١٣، ١٣١٤، ١٣١٥، ١٣١٦، ١٣١٧، ١٣١٨، ١٣١٩، ١٣٢٠، ١٣٢١، ١٣٢٢، ١٣٢٣، ١٣٢٤، ١٣٢٥، ١٣٢٦، ١٣٢٧، ١٣٢٨، ١٣٢٩، ١٣٣٠، ١٣٣١، ١٣٣٢، ١٣٣٣، ١٣٣٤، ١٣٣٥، ١٣٣٦، ١٣٣٧، ١٣٣٨، ١٣٣٩، ١٣٤٠، ١٣٤١، ١٣٤٢، ١٣٤٣، ١٣٤٤، ١٣٤٥، ١٣٤٦، ١٣٤٧، ١٣٤٨، ١٣٤٩، ١٣٥٠، ١٣٥١، ١٣٥٢، ١٣٥٣، ١٣٥٤، ١٣٥٥، ١٣٥٦، ١٣٥٧، ١٣٥٨، ١٣٥٩، ١٣٦٠، ١٣٦١، ١٣٦٢، ١٣٦٣، ١٣٦٤، ١٣٦٥، ١٣٦٦، ١٣٦٧، ١٣٦٨، ١٣٦٩، ١٣٧٠، ١٣٧١، ١٣٧٢، ١٣٧٣، ١٣٧٤، ١٣٧٥، ١٣٧٦، ١٣٧٧، ١٣٧٨، ١٣٧٩، ١٣٨٠، ١٣٨١، ١٣٨٢، ١٣٨٣، ١٣٨٤، ١٣٨٥، ١٣٨٦، ١٣٨٧، ١٣٨٨، ١٣٨٩، ١٣٩٠، ١٣٩١، ١٣٩٢، ١٣٩٣، ١٣٩٤، ١٣٩٥، ١٣٩٦، ١٣٩٧، ١٣٩٨، ١٣٩٩، ١٤٠٠، ١٤٠١، ١٤٠٢، ١٤٠٣، ١٤٠٤، ١٤٠٥، ١٤٠٦، ١٤٠٧، ١٤٠٨، ١٤٠٩، ١٤١٠، ١٤١١، ١٤١٢، ١٤١٣، ١٤١٤، ١٤١٥، ١٤١٦، ١٤١٧، ١٤١٨، ١٤١٩، ١٤٢٠، ١٤٢١، ١٤٢٢، ١٤٢٣، ١٤٢٤، ١٤٢٥، ١٤٢٦، ١٤٢٧، ١٤٢٨، ١٤٢٩، ١٤٣٠، ١٤٣١، ١٤٣٢، ١٤٣٣، ١٤٣٤، ١٤٣٥، ١٤٣٦، ١٤٣٧، ١٤٣٨، ١٤٣٩، ١٤٤٠، ١٤٤١، ١٤٤٢، ١٤٤٣، ١٤٤٤، ١٤٤٥، ١٤٤٦، ١٤٤٧، ١٤٤٨، ١٤٤٩، ١٤٥٠، ١٤٥١، ١٤٥٢، ١٤٥٣، ١٤٥٤، ١٤٥٥، ١٤٥٦، ١٤٥٧، ١٤٥٨، ١٤٥٩، ١٤٦٠، ١٤٦١، ١٤٦٢، ١٤٦٣، ١٤٦٤، ١٤٦٥، ١٤٦٦، ١٤٦٧، ١٤٦٨، ١٤٦٩، ١٤٧٠، ١٤٧١، ١٤٧٢، ١٤٧٣، ١٤٧٤، ١٤٧٥، ١٤٧٦، ١٤٧٧، ١٤٧٨، ١٤٧٩، ١٤٨٠، ١٤٨١، ١٤٨٢، ١٤٨٣، ١٤٨٤، ١٤٨٥، ١٤٨٦، ١٤٨٧، ١٤٨٨، ١٤٨٩، ١٤٩٠، ١٤٩١، ١٤٩٢، ١٤٩٣، ١٤٩٤، ١٤٩٥، ١٤٩٦،

لذلك الأحداث. ومن أبرز المؤيدين الفرنسي/ألبي بروفيسال، والذي يضيف، بأن هذه الأمرة أرسلت ظاهرياً، لكي تستطيع أن تصل إلى مكانة أفضل لدى زوجها، وتعوض بها ما فقدته من مجدها القديم.<sup>(١)</sup> ويرى المستشرق الإسباني/أجوادو بليي "Aguado Bleye" أن اغتيال عبد العزيز جاء نتيجة التباعد الإعمى لافتراحات زوجته ، التي فرضت عليه أن يتحدى جميع المحيطين به ، رغبة منه في إرضائها.<sup>(٢)</sup> ويؤيد جيسار الرأي السابق أيضاً حول إتصاع عبد العزيز، وتنقيده لطلبات زوجته، دون إدراك للعواقب، والتلذذ الذي حدث في الجيش. وكان من نتيجته أن قرر القادة قتله، بل والتشيل به، وإرسال رأسه إلى دمشق، للخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك<sup>(٣)</sup>.

عارض البورنت الرواية العربية حول مقتل عبد العزيز، بل والأكثر من ذلك أنه شكك في مقالة مؤرخي إسبانيا الإسلامية، وعدم توخيهم الحذر والدقة في نقل الأحداث الحقيقية. ويضيف: بأنهم دائماً يبالغون ويتفلقون غير الحقائق. أما عن رأيه في قصة مقتل عبد العزيز، فيرجعها في المقام الأول لأسباب سياسية لا علاقة لها بزواجه من إبلونا، ويقول: إن الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك، عاف من انتقام عبد العزيز بن موسى، وعمرده عليه، بأن يفصل بإسبانيا، ويأخذ بتأثير أبيه، نتيجة لما وصله من المعاملة السيئة التي لاقاها أبوه في المشرق، فأرسل الخليفة سليمان إلى شبه الجزيرة الأيبيرية، مجموعة من رؤساء العرب، لكي يغتالوا عبد العزيز في كنيسة سانتا روفينا Santa Rofina، وذلك في مارس ٧١٦ م.<sup>(٤)</sup>

ومن خلال استعراضنا لتلك الآراء، التي أثرت حول مقتل عبد العزيز، يتضح لنا: أن يد القصص ربما عشت كثيراً بالأحداث الفعلية، كعادة المؤرخين المسلمين. في نقل الأحداث، وإضفاء المزيد من الخيال والأسطورة إليها.

لقد تكون تلك الأحداث وقعت بالفعل. ولكن ليس لدرجة أن يصبح عبد العزيز بن موسى العلوي في يد زوجته، مهما بلغ جماها وذكائها.

فمن المعروف أن عبد العزيز رجل مسلم، آثاره واضحة، وإنجازاته كثيرة خلال الفترة التي تولى فيها حكم الأندلس. وإن كان زواجه بأرملة لوزريق قد أوجد فيه القول، وسمح لاعدائه بفتح نفرة عليه. وفي رأي ألفم دخلوا له وقضوا عليه من خلال تلك المسألة التي ضخموا أحداثها، وأعطوها أكبر من قدرها.

١- Provençal: Histoire de l'Espagne musulmana, T.I, p. 33.

٢- Aguado Bleye: Manuel de la Historia de España, Madrid, 1947 Tomo I, p-400.

٣- Guichard: Structures Sociales, paris. 1977. p. 106.

٤- Alborno: La España, T.I, p. 53.

العادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص ٨٥- عبد الله عنان: دولة الإسلام، العصر الأول، القسم الأول ص ٧٢.

أما نفي البورث لتلك الأحداث برمتها، بل وإقامه للمؤرخين المسلمين بأهم مصدر غير مولوق فيه. فمعروف عن البورث تعصبه الشديد للعصر الإسباني. ولا يستطيع أن يقف صامتاً أمام إقدام امرأة إسبانية في مؤامرة كهذه، وتحملها نتيجة تلك الأحداث. التي أجمعت عليها الكثير من المصادر العربية. وفي النهاية نستطيع أن نقول: إن تلك الأحداث وقعت بالفعل، ولكن ليست بالدرجة التي صورها المصادر العربية، والأرجح إتخاذ الخليفة الأموي ذريعة من تلك الأحداث، لإبعاد عبد العزيز عن حكم الأندلس.

## ب- سارة القوطية.

ومن النساء اللاتي لعبن دوراً كبيراً في مجال الحياة السياسية في إسبانيا الأميرة، " سارة القوطية " Sara La Goda. وأفضل تعريف لنا بسارة، ما أورده حفيدها عنها، واشتهر في التاريخ الأندلسي بنسبه إليها وهو الفقيه المؤرخ أبو بكر محمد المعروف " بابن القوطية " <sup>(١)</sup> صاحب كتاب تاريخ الفتح الأندلس. <sup>(٢)</sup> وكتاب الأفعال. <sup>(٣)</sup> ولقد أورد ابن القوطية: قصة حياة جدته سارة بالتفصيل في كتابه الأول. وملخصها أن عمها أرتاباس Ardabast بسط يده على ضياعها وأملأها، هي وأخويها الصغرين، عقب وفاة أبيهم، فتوجهت سارة بأخويها إلى الشام. <sup>(٤)</sup>

ثم نزلت بمسقلان، حتى قصدت باب الخليفة هشام بن عبد الملك بدمشق، فالتق بها إليه، والعهد المتعقد لأبيها على يد الوليد - الخليفة السابق -، وتظلمت من عمها. ورات في ذلك الحين عبد الرحمن بن معاوية صبياً، بين يدي جده الخليفة. <sup>(٥)</sup>

فكتب لها هشام إلى حظظة بن صفوان الكلبي، عامله على إفريقية، وأغداً عهد الوليد بن عبد الملك. وأمر بذلك عامله حسان بن ضرار الكلبي، فتم لها ذلك. وأهم ما عرجت به سارة من تلك الرحلة. كما ذكر ابن القوطية: زواجها من القائد العربي عيسى بن مزاحم، الذي قدم معها إلى الأندلس، وقبض ضياعها " أي أعطته أملكها " كما كانت عادة القوط، بل وعادة الإسبان إلى

١- Nykl: Hispano Arabic Poetry. Baltimore. 1946, p.44.

٢- نشره العالم الإسباني جايجوس P. De Gayangos وترجمه إلى الإسبانية المستشرق الإسباني Ribera أنظر الدراسة النقدية للمصادر.

٣- نشره المستشرق الإيطالي إجناسيو جويدي Ignacio Guidi.

٤- ابن خلكان: وفيات الأعيان، تحقيق الدكتور/ احسان عباس، بيروت ١٩٧٨م، ج٥، ص ٣٧٠، ٣٧١.

٥- وظل عبد الرحمن الداخل فيما بعد يحفظ لها ذلك. فكانت إذا آتت قرطبة أدن لها بدخول القصر بدون استئذان. كغيرها ومقابلة أهل بيته.

اليوم. رغم أن الإسلام، أقر الذمة المالية المفصلة للزوجة. فهي لها حرية التصرف في ما لها كيف تشاء، أن تمنح، أو أن تمنع.<sup>(١)</sup>

ويضيف البورث: أنها أعطته أيضاً أموالها القوطية Visigatica Corona، ولعلها اسم عملة ذهبية أو فضية. كانت تعرف باسم التاج أو الدرهم القوطي الغربي.<sup>(٢)</sup> ثم توفي عيسى، في العام الذي دخل فيه عبد الرحمن بن معاوية الأندلس، بعد أن أنجب منها ولدين هما انتهيم وإسحاق. ويذكر الأستاذ الدكتور: أحمد مختار العبادي أنهما أدركا شرف الرئاسة. والجاه في إشبيلية قاعدة المولدين، ومن سلالة هؤلاء، جاء مؤرخنا المذكور أبو بكر بن القوطية.

وبعد ذلك تنافس عليها بعض رجال عبد الرحمن بن معاوية "الدخيل"، وفاز بها عمير بن سعيد، الذي أنجب له حبيب بن عمير، جد بني سيد، وبني حجاج، وبني مسلمة، وبني حجاز الجرزي. وكانوا أشرف ولد عمير بإشبيلية. وكان عمير له أولاد من غيرها، ولكن لم يشرفوا مثل أبنائها، على حد تعبير ابن القوطية.<sup>(٣)</sup>

وقد طالت حياة سارة. كما رأينا، حتى إنها حضرت أيام الأمير عبد الرحمن بن معاوية، بل إنه كان السبب في زواجها الثاني. فقد تدخل بشكل مباشر في إتمام تلك الزيجة. وكما رأينا، فقد أثرت سارة في الحياة السياسية، بتلك الزيجات من رجال مسلمين، بل ومشرقيين. فزوجها الأول، تزوجه في المشرق.

وكانت هي السبب المباشر لدخوله الأندلس، بعد اقترانها به. وترجع أهمية زيجات سارة، في أن كثيراً من المؤرخين. يعتبرونها البداية الحقيقية لاختلاط الجنس العربي، بالجنس الإسباني، والذي نتج عنه إخراج هذا العنصر الجديد في المجتمع الأندلسي. والذي عرّف طبقة المولدين.<sup>(٤)</sup>

١- ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٣١، ٣٢، القرني: فتح الطب، ج ١، ص ٢٦٦، ٢٦٧، أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص ٣٣٨.

Guichard: op. cit, p. 142. Albórniz: La España, Tomo I, p. 67.

Albórniz: op. cit, T.I, p. 66.

\* اسم لعملة قوطية، تختلف باختلاف العصور. وخاصة في القيمة. انظر:-

\* Corona Visigatica

Corriente " Federico": Diccionario Español - Árabe. \*

Madrid, 1977, pp. 118, 470.

٣- ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٣٢، القرني: فتح الطب، ج ١، ص ٢٦٧، العبادي: الإسلام في أرض الأندلس، ص ٦٣.

Albórniz: op. cit. T.I. p. 68.

## ج- عجب والحكم " الربضي".

وقد لعبت "عجب" دوراً هاماً في بلاط أمراء بني أمية، وفي قيادة دفعة الحكم. فهي تعتبر إحدى شهيرات النساء القرطبات، في عصر الأمير الحكم بن هشام "الربضي"، وقد بلغ من حبه لها وولاه لها، بأن أنشأ لها منية خاصة بها حملت اسمها، كما حصلت على قدر كبير من التعليم، والفقه في الدين، والعلوم الأدبية، واللغوية.<sup>(١)</sup>

ويورد لنا الخشن: قصة في كتابه "قصة قرطبة"، تخرج منها بأن تلك المرأة تمتعت بمكانة فريدة، في عصر مولاهما الحكم "الربضي". وابنه عبد الرحمن بن الحكم "الأوسط" من بعده، فقد تسببت في عزل القاضي محمد بن زياد عن القضاء، وذلك لجمالته لها ومحاباته لابن أخيها الذي تلفظ بالفاظ .

مهينة للإسلام. وبلغ هذا الكلام الأمير عبد الرحمن الأوسط، الذي أمر بالقبض عليه. وحسبه، فتوسطت له "عجب" لدى الأمير، اعتماداً على مكانتها من أبيه وأمية الشفاعة لابن أخيها، فقال لها عبد الرحمن، نسحكم القضاء، فيما فعله، وأحضر فقهاء المدينة، وعلى رأسهم القاضي محمد بن زياد المذكور، فالتقى الجميع بقلعه، ما عدا القاضي محمد بن زياد، ولفظ عبد الرحمن إلى أن "عجب" توصلت إلى القاضي، حتى يدلي بتلك الشهادة، التي تبعد ابن أخيها عن القتل، فما كان من عبد الرحمن الأوسط، إلا أن أعده عن القضاء.<sup>(٢)</sup>

## د- طروب في عهد عبد الرحمن الأوسط وسطوفا.

ولنا مع طروب وقفة طويلة، إذ لم تحظ جارية إسبانية بتلك الشهرة والمكانة التي حظيت بها "طروب". فهي واحدة من الجوارى "الشماليات" القادمات من بلاد الإفرنج، في جنوب فرنسا، أو من مقاطعات قطلونية، والباسك، والبشكنس Vascos، وجلبقية Galicia. وهؤلاء الجوارى بصفة عامة، كان هن حظوة كبيرة في قرطبة، لأنهن يضاوون البشرة، شقراوات الشعر، زرقاوات العيون، ومن بينهن كان الأمراء، يختارون غشياً، فقام المدلايات.<sup>(٣)</sup>

ولقد كان هؤلاء الجوارى دور كبير في بلاط قرطبة. وخاصة حين يخالف إحداهن الخط، وتصبح لسيدها ولداً فتترقى بذلك إلى منزلة أرفع، ويطلق عليها لفظ "أم ولد". أي تتساوى مع الحرة. أو كما يقول بروفنسال: تحمل اسم "الأميرة الأم". والتي عادة ما كانت تتمتع بعد وفاة

١- جدى عبد النعم حسين: مجتمع قرطبة في عصر الدولة الأموية. رسالة دكتوراه، نوقشت بآداب الإسكندرية، سنة ١٩٨٤، ص ٢٩٨.

٢- الخشن- قصة قرطبة. ص ٥٩، ٦٠ جدى عبد النعم: مجتمع قرطبة. ص ٢٩٨، ٢٩٩.

٣- جدى عبد النعم: نفس المرجع. ص ٢٩٩.



مالكها، بالحرية وبكل ثروته الشخصية.<sup>(٦)</sup> وقد كان للحاكم رجال معينون، ومكلفون باختيار الحرم الخاص بالأمير، وكانوا يتصفون بالخبرة في هذا المجال. وقد كانوا حريصين على اختيار أحسن العناصر، تبعاً لرغبة ومزاج وليهم.<sup>(٧)</sup>

وبهنا هنا الحديث بصفة خاصة عن عبد الرحمن الأوسط، وجاريته طروب. ولقد صور لنا جميع المؤرخين، عبد الرحمن كصائد نساء في المقام الأول، ودليلهم على ذلك كثرة أبنائه. فكان لديه ما لا يقل عن ٤٥ ابن و ٤٢ ابنة. وكان دائماً يتمسك في تسريحه بالمرأة العذراء. وكان أيضاً حريصاً على معرفة جذور ونسب جارياته، وأصولهن وحتى تاريخ عائلاتهن.<sup>(٨)</sup> ورغم كثرة أسماء جاريات الأمير عبد الرحمن الأوسط، إلا أن إحداهن فقط اسمها، واحتلت مكانة بارزة في سطور المؤرخين، وهي "طروب". وكانت بشكنسية من نُبْرة Navarra ذات جمال بارع. وكان عبد الرحمن شديد التعلق بها.<sup>(٩)</sup> وقد سُبِت وهي صغيرة، وأُرسلت إلى المدينة، ثم عادت إلى إسبانيا مرة أخرى، وهي مسلحة بحصيلة كبيرة من الأغاني، والأشعار، التي جعلتها تملك زمام إسبانيا العربية، عن طريق التحكم في حاكمها الأمير عبد الرحمن الأوسط.<sup>(١٠)</sup>

وكانت طروب أحب نساء عبد الرحمن إليه، وأعظمهن سلطاناً عليه. كما يقول ابن الأبار، في الحلة السوداء. ورغم ذلك كانت أقلهن وفاءً له.<sup>(١١)</sup> وترك لنا الأمير عبد الرحمن الأوسط، شعراً كثيراً، يفيض بالحب والعلوبة، يتغزل به في طروب، ويوضح مدى حبه وتقديره لها. ويقول المقرئ: كان يوماً في بعض أسفاره، واشتاق إليها، وجاءه حيائها، وهو يشرب وينادم، عبد الله بن الشمر فقال مرتجلاً:-

شاقك من قرطبة الساري

في الليل لم يدرى به لساري

فأجازه ابن الشمر قائلاً:-

زار وحيا في ظلام اللججى

أحب به من زائر مساري<sup>(١٢)</sup>

١-

Lévi Provençal: Hist., T.I, p.67.

٢-

Lévi Provençal: La Civilización Árabe en España, p.72.

٣-

Provençal: Hist., T.I, p.267.

٤-

Provençal: Hist., T.I, p. 267.

٥-

Lévi Provençal: La Civilización. P. 72.

٦-

ابن الأبار: الحلة السوداء، جـ ١، ص ١١٤ هامش رقم (١).

Dozy: Historia de los Musulmanes de España. T.I, pp.388, 389.

٧-

المقرئ: فتح الطيب، جـ ٣، ص ١١٣.

ومرة أخرى خرج في إحدى غزواته إلى جليقية. وطالب غيته عنها فكتب إليها:-

فقدتُ الهوى مذ فقدتُ الحبيباً

فما أقسطع السبل إلا لحياً

وإذا بدت لي شمسُ النهار

طالعةً ذكرني طسروباً<sup>(١)</sup>

وكان من عادة نساء القصر، أن يتافسن طمعاً في العرش لأولادهن. وكانت طروب تريد العرش لابنها عبد الله، ولكنه ليس أكبر أبناء الأمير عبد الرحمن سناً. وكانت تفعل المستحيل، لاستمالة العامة والخاصة لولدها. وكانت تجمع ما تستطيع من أموال الأمير لتلك المهمة. أي مساندة ولدها بملك الأموال، بل وصل الأمر بها إلى شدة الطمع والتغالي، إلى ابتزاز الأمير، اعتماداً على مكانتها منه.

فقد أورد لنا الكثير من المؤرخين، تلك القصة التي تدل على مدى بزم الأمير عبد الرحمن الأوسط، وإسرافه عليها، وإغداقه عليها بالمال، بل قد غضبت منه يوماً، وأبدت هجراناً له، وامتنعت عنه، وأخلقت عليها بالمال. فأمر ببنان الباب عليها باخراائط "أي الخقائب أو الصور" المملوءة بالدراهم، بإسترضاء لها واستعطافاً لوصولها، فلما فتحت الباب، وتسلطت عليها الدراهم من كل جانب فالتفت نحو عشرين ألفاً.

ومرة أخرى، أمر لها بعقد قيمته عشرة آلاف دينار، فجعل بعض من حضر مجلسه يعظم هذا الأمر "أي أنه إسراف وكثير في أن يذفع هذا المبلغ في عقد" فقال عبد الرحمن، ويحك: إن لابسك أنفوس منه خطراً، وأرفع قدواً، ولئن راق من هذه الخصباء منظرها، فلقد برأ الله من خلقه جوهرها يغشى الأبصار.

وهل على هذه الأرض، أحسن من وجه أكمل الله فيه الحسن، ونظرت، وألقى عليه الجمال، بهجته؟<sup>(٢)</sup> وأنشد فيها شعراً<sup>(٣)</sup>.

١- ابن الأثير: الحلة السوداء، ج ١، ص ١١٤، ابن مسعيد: (علي بن موسى بن سعيد المغربي) المغرب في حلى المغرب، حققه الأستاذ الدكتور/ شوقي ضيف، القاهرة ١٩٥٥ م، ج ١، ص ٤٩، ٤٧، المقرئ: فتح الطبيب، ج ١، ص ١٣٤٩، وراجع باقي القصيدة في ابن الأثير: نفس المصدر، ج ١، ص ١١٥.

٢- مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمراتها، تحقيق الأستاذ إبراهيم الإياري، الطبعة الأولى ١٩٨١ م، ص ١٢٣، ابن عذاري: البيان للمغرب، ج ٢، ص ٩٢، المقرئ: المصدر السابق، ج ١، ص ٣٤٩، ٣٥٠، عبد الحميد الحمادي: الجبل في تاريخ الأندلس، ص ١٠٦، عبد العزيز سامي: قرطبة حاضرة الخلافة، ج ٢، ص ١٤٤، ١٤٥.

٣- وراجع تلك القصيدة في: ابن عذاري: نفس المصدر، ج ٢، ص ٩٢، محمد عبد الله عان: دولة الإسلام في الأندلس، العصر الأول، القسم الأول، ص ٢٧٨.

وقد كان أكبر أولاده. والمرشح لولاية العهد من بعده ابنه محمد. ولم تذكر لنا المصادر. أو المراجع اسم " أمه "، كل ما نعرفه عنها أقفاً توفيت بعد ولادته على الأغلب لأن التي تولت تربيته وإرضاعه جارية أخرى. من جوارى عبد الرحمن تدعى " الشفاء "، وكانت جميلة، تقية، عاقلة. خرجت مع زوجها الأمير في إحدى غزواته، فأصابها المرض، وماتت وهي في طريق العودة إلى قرطبة، ودفنت في قرية قريبة من طليطلة Toledo<sup>(١)</sup>.

ويبدو أن فراسة طروب كانت في محلها، من حيث ميل الأمير عبد الرحمن الأوسط، إلى ابنه الأمير محمد، الذي تولى الإمارة بعد وفاته، ولذلك أسرع إلى تدبير مؤامرة، مع حاجب أو رئيس قتيان القصر، الذي كان يتمتع بنفوذ كبير في القصر، ويدعى " نصر الحصى " <sup>(٢)</sup>.

وقد وردت تفاصيل تلك المؤامرة، في معظم كتابات المؤرخين المسلمين الذين أروخوا للأندلس. وأيضاً في معظم كتابات المستشرقين، وإن كان هؤلاء المستشرقين، قد اكتفوا بنقل تفاصيل المؤامرة، دون التعليق عليها.

وأول من انفرد بنقل تلك الأحداث من مؤرخي القرن الرابع الهجري المؤرخ الأندلسي ابن القوطية في كتابه " تاريخ افتتاح الأندلس ". وكل من كتبها بعد ذلك نقلاً عنه.

وتفاصيل القصة بإيجاز: أن طروب أم عبد الله بن عبد الرحمن الأوسط كانت تعمل على إقصاء ولاية العهد عن محمد بن عبد الرحمن، وإقامة ولدها عبد الله ولياً للعهد، ولكنها لم تستطع تحقيق هذه الرغبة. ولذلك اتفقت مع شخصية قوية في الدولة هي شخصية نصر الحصى، على التخلص من الأمير عبد الرحمن وولده محمد بدس السم لهما. وكان نصر مهيباً لتقبل هذا الوضع بسبب بعضه للأمير محمد، وميله إلى عبد الله، وتصادف أن وصل إلى قرطبة في ذلك الوقت طبيب عراقي يعرف " بالخراني " نسبة إلى مدينة حران بشمال العراق. فطلب منه نصر أن يعد له سمّاً زعافاً، وسحه ألف دينار، ولم يستطع الطبيب الخرواني الرضا لمكانة " نصر الحصى " في البلاد. ولكنه تحابل في إبلاغ إحدى نساء الأمير، وتدعى " فجر " بما حدث، وسارعت " فجر " التي كانت ضرة لطروب، وأبلغت الأمير تفاصيل المؤامرة ليأخذ حذره، وعندما قدم نصر الشراب المسموم للأمير عبد الرحمن، طلب منه عبد الرحمن أن يشربه هو، فذهب نصر يعتقد بعدم الرغبة فيه، وفي أن نفسه تعافه، ويستشعده: فزجره عبد الرحمن بشدة. وقال له: سبحان الله! شئ اجتهدت لي فيه، والظفت تركبه، تخاف غائلته. عزمت تشربه؟! فعلم أنه لا يمكن مخالفة الأمير، ولا بد له من شربه، فشربه. واستأذن في الخروج إلى موته. وانطلق يركض، واستغاث بالخراني صانع السم ليسعفه.

١- ابن الأثير: الحجة السراء. ج ١، ص ١١٤ هامش رقم (١).

Lévi Provençal: Hist. T.I. p. 277.

٢- تقع هؤلاء الحصان بنفوذ كبير في بلاط بني أمية

راجع: محمد عبد الله عنان: نفس المرجع. العصر الأول، القسم الأول. ص ٢٧٧.

فصححه الخرافي بتناول لبن الماعز، ففرق غلمانة في أنحاء كثيرة، لكي يحضروه. ولكنه كان قد مات قبل أن يؤتي باللبن. وقد سُـر الناس لحقه، وذلك في شتاء عام ٨٠٥ م - ٢٣٦ هـ.<sup>(١)</sup>

وقد نقل الكثير من المستشرقين أخبار هذه المؤامرة بتفاصيلها لكن بدون التعليق عليها. ويبدو أنفاً قد راقبتهم أحداثها، ولذلك التمسوا جانب الصمت في التعليق عليها.<sup>(٢)</sup> ومن الواضح أن أسباب تلك المؤامرة حدثت لأن الأمير عبد الرحمن لم يعمل على اختيار أحد من أولاده ولياً للعهد بصفة رسمية. مما ترك الساحة حافية للمشاحنات بين نسله، ومحاولة كل واحدة أخذ ولاية العهد لابنها. وفي نفس الوقت يظهر ميله إلى ابنه الأمير محمد، مما جعل طروب تدبر تلك المؤامرة لتتخلص منهما سوياً. لكن العجيب أن كل المصادر الإسلامية وعلى رأسها المصدر الأم لنقل أحداث تلك المؤامرة "ابن القوطية" لم تذكر ما حدث لطروب، وتركنا لنا الكثير من علامات الاستفهام. مثال هل عرف عبد الرحمن بالمؤامرة؟ وإذا كان قد عرف، لماذا تركها دون عقاب؟ وهل تغلب حبه لها على عقابها، على تلك المؤامرة الكبيرة؟ ورغم كل تلك الاستفهامات، المرجح هنا أن التزام كل المصادر للصمت في سردها أحدث ما بعد المؤامرة، يؤكد لنا أن الأمير عبد الرحمن لم يحسبها بسوء، فلو كان قد فعل بما شئتاً لكان من الأحرى على ابن القوطية أول من نقل تفاصيل المؤامرة. أن يذكر لنا ما حدث لها. ولكنه لم يحدث بشئ مفيد حول هذا الموضوع.

وبعد مرور أقل من عامين على تلك المؤامرة، مساء الثاني والعشرين من سبتمبر عام ٨٥٢ م (٣ ربيع ثاني ٢٣٨ هـ) توفي عبد الرحمن فجأة. وقد ناهز من العمر ستين عاماً. مما يجعلنا نرجح أن طروباً ربما عاودت الكرة مرة أخرى. ولكن هذه المرة بدون أن تتكشف. وما يؤكد قولنا هذا أن طروباً لم تكف عن محاولة فرض ابنها، حتى بعد موت الأمير عبد الرحمن. فقد فعلت ما بوسعها، واستعانت لإعلان ذلك بالثنين آخرين من الفتيان التابعين لها وهما "سعدون وقاسم" ولكن دون جدوى.<sup>(٣)</sup> فقد تمكن محمد بن عبد الرحمن من تولي الإمارة.<sup>(٤)</sup>

#### ١- وردت أحداث تلك المؤامرة بشكل مفصل في:-

ابن القوطية: تاريخ الفتح الأندلس، ص ٩١ وما بعدها ابن حبان: المقتبس من أخبار أهل الأندلس، ص ١٤٩، ١٥٠، ١٥١، ١٥٥، ١٥٦ ابن الأبار: الحلة السوداء، ج ١، ص ١١٤ هامش رقم (١) ابن خلدون: كتاب العمر وديوان المبدأ والخير، ج ٤، ص ١٥٦، العادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص ١٦٥ عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم، ص ٢٣٤.

#### ٢- وقد نقلها من المستشرقين:-

Dozy: Historia de los Musulmanes, Tomo I, pp. 388 - 389.

Albórniz: la España Musulmana, T.I, p.297.

Provençal: Hist., T.I, p.277.

Provençal: La Civilización, pp. 71, 73.

Lévi Provençal: Hist., T.I, p. 278.

-٣-

٤- عبد الله عدنان: دولة الإسلام في الأندلس، القسم الأول، ص ٢٨٩.

والحقيقة: أن إبعاد عبد الله بن طروب، لم يكن يسبب ميلهم في المقام الأول للأمير محمد. وإنما ما ذكره ابن سعيد: عن عبد الله بن طروب. وكيف كان مستهتراً، منهيماً في اللذات. فكان أولوا العقل يميلون إلى أخيه محمد. فلما مات عبد الرحمن، وكان ذلك بالليل اتفق رؤوس الحدم. على أن يولّوا محمد بن عبد الرحمن. وجاءوا به في نفس ليلة موت أبيه، ودخل القصر وقت له البيعة. ولم يختلف عليه أحد<sup>(١)</sup>

ومن الواضح أن طروباً، بعد كل تلك الأحداث الفاشلة محاولتها رفع ابنها عنوة لتولي الإمارة. وضيت بالأمر الواقع، أو قد ضعف سلطانهما مع موت مولاها عبد الرحمن الأوسط. وتقدمها في العمر، والمحار الأصواء عنها، فلم تحاول مرة أخرى. ولم تعد لسمع عنها شيئاً في أحداث الأندلس بعد ذلك.

ثانياً: "دُر" أو "ونقة" بنت فرتون، البشكنسية جدة الخليفة عبد الرحمن الناصر

أول خلفاء الأندلس وأعظمهم على الإطلاق، الخليفة "عبد الرحمن الناصر" ويرجع نسبه إلى الأميرة البشكنسية المعروفة باسم "ونقة" Onneca وبالإسبانية الحديثة Iniga ابنة ملك نافارا Navarra، فرتون بن غرسة Fortun Garces المعروف بالأنظر. وكان قد وقع في أسر المسلمين. وأقام في قرطبة عشرين عاماً وزوج ابنته الأمير الأموي عبد الله بن محمد، جد الخليفة الناصر. وذلك قبل أن يتولى إمارة الأندلس. وأطلق عليها اسم عربي وهو "دُر"، وأنجب منها ابنه محمداً والد عبد الرحمن الناصر. وهنا يصبح فرتون الجد الأعلى للخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر<sup>(٢)</sup>.

ونظراً لصلة القرابة التي ربطت الناصر بالبشكنيين عن طريق هذا الزواج، فقد لجأت إليه الملكة طوطة Dona Toda، ملكة البشكنس، والوصية على عرش نيرة، في سنة ٣٤٧هـ - ٩٥٨م. في رفقة حفيدها شاذلة المعروف بسانشو السمين Sancho el Craso، والذي كان قد عزله نبلاء ليون وقشتالة عن عرش نيرة وليون، وولوا مكانه أخاه أوردونيو الرابع.

وترجع صلة القرابة عن طريق "دُر"، التي تزوجت في صباها وقبل أن يتزوجها الأمير الأموي عبد الله بن محمد، في أثناء أسر أبيها من "أناز سانشيت" Aznar Sanchez. وأنجبت منه طوطة

١- ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ج ١، ص ٥١، ٥٢.

Provençal: op. cit., T.I. p. 278.

٢- أحمد مختار المعادي: الإسلام في أرض الأندلس، ص ٦٣.

المذكورة، والتي أصبحت وصية على عرش نيرة. وبذلك أصبح الأمير محمد والد عبد الرحمن الناصر. أخاً لطلوطة من أمها، وبالتالي فهي عمة الناصر.<sup>(١)</sup>

وقد أكرم الناصر وفادة عمته وحفيدها. وكان من نتائج هذه السفارة أن عقدت محالفة بين الناصر وبينهم، كسب الناصر من ورائها حصوناً في مملكة شاذليّة مقابل مؤازرته لهم، والعمل على استرجاع عرشه من أخيه.

ففي سنة ٣٤٩هـ - ٩٦٠م أرسل الناصر جيشاً إلى نيرة أعاد إلى شاذليّة عرشه، إلا أن شاذليّة نكت بوعده مستغلاً وفاة الناصر سنة ٣٥٠هـ. فاضطرّ الحكم المستنصر ابن عبد الرحمن الناصر وخليفته، هاربه، والاستيلاء على تلك الحصون.<sup>(٢)</sup>

وجاءت إلى الحكم المستنصر بالله سفارة أخرى تشبه تلك السفارة السالفة الذكر. فقد وقفت عليه الأميرة "ولقة" أم لزريق بنت بلاشكت Oneca Rodrigo Velasquez. وكان ولدها لزريق هو قورمس جليقية الأكبر، فأخرج الحكم للقيها أهل دولته، واحتفل لقدمها يوم مشهود، وأجرى لها العطاء هي ووفدها، وسافرت بعد ذلك.<sup>(٣)</sup>

ثالثاً: السيدة "صبح" Aurora البشكنسية، ودورها في المجال السياسي.

لعبت السيدة "صبح" زوجة الخليفة الحكم المستنصر بالله دوراً سياسياً هاماً على مسرح الحياة السياسية الأندلسية. وذلك في فترة حكم ثلاثة رجال هم زوجها، أو مولاها الحكم، وابنها الخليفة هشام المؤيد، وحاجب ابنها المنصور بن أبي عامر. وكان بداية ظهورها في بلاط قرطبة في أوائل عهد الحكم المستنصر. وكانت فتاة رائعة الجمال، فشغف بها الحكم المستنصر، وأغدق عليها حبه وعطفه، وسماها جعفر.<sup>(٤)</sup>

أما كلمة "صبح" أو صبيحة فهي ترجمة لكلمة Aurora الأسبانية، ومعناها الفجر أو الصباح الباكر. ويدور أنه الاسم النصراني الذي كانت تحمله عند وفادتها إلى قرطبة.<sup>(٥)</sup>

١- عبد العزيز سائ: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص ٢٩٠. سحر سالم: بحث عن الزواج المختلط في الأندلس، ص ٤.

Abdurrahman el Hajji: Inter marriage between Andalusia, and Northern Spain, Vol. XI. No. 1-2 pp. 6-7.

٢- عبد العزيز سائ: نفس المرجع، ص ٢٩٠.

٣- المقرئ: فتح الطب، ج ١، ص ٣٨٥.

٤- جعفر: معناها في اللغة العربية النهر أو النافذة الغريبة الخلب، ولعلها ترمز هنا للعطاء، لأنها أنجبت لسيدتها ولّى العهد.

٥- عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ج ١، ص ٥٢٠.

وكانت يشكسية الأصل من إقليم الباسك في شمال إسبانيا. ثم صار لها نفوذ كبير في الدولة الأموية، وتلقبت بالسيدة صبح.<sup>(١)</sup> وكان الحكم يثق بإخلاصها وحباها ويستمع لرأيها في معظم الشؤون.

وكانت كلمتها هي العليا في تعيين الوزراء ورجال البطانة. وأحد أبرز هؤلاء الرجال، كان الحاجب جعفر بن عثمان الصحفي، الذي كان يجتهد في خدمتها وإرضائها، ويستأثر لديها، ولدى الحكم بنفوذ كبير، إلى أن دخل الميدان شخصية جديدة.<sup>(٢)</sup>

ومن الأسباب التي جعلتها تحتل تلك المكانة لدى الحكم المستنصر، أن الحكم تولى الحكم في سن متقدمة. إذ كان عمره ثمانية وأربعين سنة. ولم يكن حتى بلوغه هذه السن قد أنجب ولداً "وليا للعهد"، كان هذا ينير قلقه وجزعه. إذ كان توافداً لأن يكون له وريث في الملك، ولذلك فقد فرح فرحاً شديداً، حينما ولدت له السيدة "صبح"، ولداً في سنة ٣٥١هـ - ٩٦٢م، وسماه عبد الرحمن. وكان مولده حادثاً سعيداً خلّده الشعراء والأدباء، ولكن هذا الولد توفي طفلاً، فحزن الحكم حزناً شديداً لفقدته، على أن القدر لم يلبث بعد فترة أن حياه بمولود آخر ذكر، سماه هشاماً في ٣٥٤هـ - ٩٦٥م. فكان ولي عهده الملقب بهشام المؤيد بالله.<sup>(٣)</sup>

وهنا بدأ ظهور محمد بن أبي عامر، الذي لم يكن قد تلقب بعد "بالمصور" ويذكر ابن عذارى: أن الحكم لم يزل يقدمه ويؤثره، إلى أن أصبح هشام ولياً للعهد، فزاد مقداره لخصوصيته بخدمة ولي العهد، والسيدة والدته.<sup>(٤)</sup> على أن الخليفة الحكم المستنصر، لم يلبث أن أصيب بعلّة "الفاج". وكان هشام لا يزال صغيراً فشلت حركة الحكم، وصارت السلطة بيد وزرائه وحاشيته ونسائه.<sup>(٥)</sup>

أما عن كيفية دخول ابن أبي عامر إلى بلاط بني أمية، فيذكر ابن عذارى والمقري: أن الحكم طلب يوماً وكيلاً لولده الأول عبد الرحمن، فذكر له وزيره جعفر بن أبي عامر الصحفي، ولزوجته "صبح" جماعة اختارت منهم ابن أبي عامر. وباختيار صبح له، نصبه الحكم لخدمتها، وخدمة ابنتها عبد الرحمن سنة ٣٥٦هـ.

١- ابن عذارى: البيان المغرب، ج ٢، ص ٢٥١.

٢- عبد الله عنان: نفس المرجع، ج ١، ص ٥٢١.

٣- عبد الله عنان: نفس المرجع، ج ١، ص ٥٠٢.

٤- ابن عذارى: نفس المرجع، ج ٢، ص ٢٥٨.

Lévi Provençal: L'Espagne Musulmane au Xème. Siècle, p. 59.

٥- العادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص ٢٣٤.

وعندما مات عبد الرحمن بقى في خيمة أمة السيدة "صبح" إلى أن ولدت هشام المؤيد، فعين أيضاً لوكالته.<sup>(١)</sup>

وبدأ نجم ابن أبي عامر في الصعود يوماً بعد يوم، كما يقول ابن عذاري: من خلال استمالته للسيدة "صبح" بحسن الخدمة، ومواقفه المسرة، وحسن البذل، في باب الإنفاق، والمهادنة، حتى استهوواها، وغلب على قلبها، وابن أبي عامر يجهد في برها، والمثابرة على ملاطفتها، فيدع في ذلك، ويأتيها بأشياء لم تعهد مثلها. "فما دفع الحكم المستنصر إلى القول يوماً لبعض ثقائه"، ما الذي استلطف به هذا القبيح حرمنا، حتى ملك قلوبهم، مع اجتماع زخرف الدنيا عندهم، حتى صرن لا يصفن إلا هداياها، ولا يرضين إلا ما آتاه. إنه لساحر عظيم، بأمر خادماً لبيب، وإلى خائف على ما يده.

ويضيف ابن عذاري أيضاً، أنه صنع يوماً قصراً من القضة لصبح، وحمله على رؤوس الرجال، فجلب حياءً بذلك. وقامت بأمره عند سيدها الحكم. وحدث الحكم خواصه بذلك، وقال إن هذا القبيح قد خلب عقول حرمنا، بما ينحقم به. وكان الخليفة الحكم يعتقد في "الحسدان" النبوءات "prediccions". ويتخيل في ابن أبي عامر، أنه المذكور في الحداث: "بأن القائم عليهم من الجزيرة الخضراء أصغر الكفين"، فكان يقول لأصحابه: أما تنظرون إلى صُفرة كفيه؟<sup>(٢)</sup>

وبعد أن مات الحكم المستنصر أصبح الخليفة حينئذ هشاماً. الذي تلقب "بالمؤيد" وليس له من الأمر غير الاسم.<sup>(٣)</sup> وفي بادئ الأمر ازدادت العلاقة قرباً بين صبح وابن أبي عامر. فقد كان يرى فيها المرأة التي اجتمعت السلطة في يدها بوقاة سيدها الحكم، ووصايتها على ولدها القليل. فبذلك أصبحت أداة هينة سهلة يستطيع أن يخضعها لإرادته، ويسخرها لمعاونته، في تحقيق مشاريعه البعيدة المدى. وكانت هي من جاتبها تغدق عليه كل عطف وثقة، وتغده بالأموال اللازمة، لكي يستميل

١- ابن عذاري: المصدر السابق، جـ ٢، ص ٢٥١، ٢٦٥، القري: تلح الطيب، جـ ١، ص ٣٩٩؛ عبد العزيز سامي: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص ٣٢٤، ٣٢٥، أحمد مختار العادي: في تاريخ العرب والأندلس، ص ٢٤٠، ٢٤١، بروفسال: تاريخ إسبانيا الإسلامية، ص ٤٣، ٤٤، جودت الركابي: في الأدب الأندلسي، ص ٢١.

٢- من المعروف أن عبد الملك جد النصور دخل مع طارق ونزل الجزيرة الخضراء وساد أهلها وكثر عقبه فيها: ابن عذاري: نفس المصدر، جـ ٢، ص ٢٥١، ٢٥٢، ٢٥٧، النقوي: نفس المصدر، جـ ٣، ص ٨٦، ٨٧، العبادي: نفس المرجع، ص ١٤٣؛ سالك: المرجع السابق، ص ٣٢٥، ٣٢٦، عبد الحميد العبادي: النجم في تاريخ الأندلس، ص ١٤٨.

٣- ابن الأبار: الحلة السجاء، جـ ١، ص ٢٩٦.



العساكر إليه. وأيضاً لكي تضمن ولاءه لابنها الصغير. ولكن بعد أن برز نجمه، ولتبت قدماءه، وتخلص من خصومه حجب هشام، وتلقب بالنصور.<sup>(١)</sup>

والخليفة أنه: في بداية فترة حكم هشام المؤيد، كانت السلطة موزعة بين الثالث صبح، والمصحفي، وابن أبي عامر. وكان من الطبيعي أن يحدث صراع بين هذا الثالث، في محاولة كل منهم للإستئثار بأمور الحكم. وكانت العلاقة ما تزال على أشدها بين صبح، وابن أبي عامر. في البداية كانت غر بمرحلة الونام والحب. ولم تحدث أيضاً انجفاة بين المصحفي، وابن أبي عامر. فعمل هذا الثالث في البداية على التخلص من عدوهم الأول مجتمعين. وهم الصقالبة، والمتمشلين في القئين " فائق وجوزور"، واتباعهما. فعمل ابن أبي عامر على استصدار حكم، أو أمر، من الخليفة هشام المؤيد يعزهم. وبذلك قوض شوكتهم.<sup>(٢)</sup> ثم اتجه إلى المصحفي بعد ذلك، وخاصة عندما أحس بازدياد نفوذه. وبدأ يضايقه في أمور الحكم. ويذكر ابن عذاري: أنه استعان بالسيدة "صبح" وسأل حريم القصر، حتى تم مراده، وتخلص من المصحفي.<sup>(٣)</sup>

ومن خلال كل ما ذكرناه، نرى أن السيدة صبح كان لها اليد العليا في مساعدة ومساندة ابن أبي عامر، والوقوف إلى جواره فيما وصل إليه من مرتبة ومكانة رفيعة بارزة. فقد أجمعت كافة الكتابات التاريخية على هذا الموضوع، وإن كان بعضها يرجعه إلى غرام وحب السيدة صبح لابن أبي عامر. ولكن ما من شك في أن هذا الحب، لم يكن وحده هو السبب في ثقة السيدة صبح بابن أبي عامر. فهناك عوامل أخرى، وهي محاولتها الاحتفاظ بالحكم لولدها ولي العهد، الذي كان طفلاً صغيراً في ذلك الوقت. ورأت في ابن أبي عامر كما ذكر المؤرخون: من القوة والكفاءة ما يحقق لها ما أرادت. وقد يؤيد ذلك القول موقفها المعارض له عندما أحست باستبداده، وانقراده بالحكم بعد ذلك.

ومن الواضح أن ابن أبي عامر. كان شديد الذكاء. رأي في البداية مهادنة تلك السيدة القوية، وكسبها إلى جانبه، حتى يتمكن من الخلاص من خصومه أولاً لما رآه من قوتها، واجتماع السلطة

١- عبد الواحد المراكشي: يحيى الدين بن عبد الواحد المراكشي، تاريخ الأندلس، المسمى العجب في تلخيص أخبار العرب. الطبعة الأولى ١٩١٤ م. ص ١١٥: ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ج ١، ص ١٩٩. العبداني: في تاريخ المغرب، ص ٢٤٠، ٢٤١. بروفسال: تاريخ إسبانيا الإسلامية، ص ٥٩.

٢- ابن الأثير: المصدر السابق. ج ١، ص ٢٧٨، ٢٧٩ هامش رقم (٢).

٣- ابن عذاري: شيان المغرب، ج ٢، ص ١٢٦٥: ساء: تاريخ السمين وآثاره، ص ٣٢٧.

وقد ولي ابن أبي عامر صهره غالب خطة الوزارتين. فأمر من السيدة صبح. بعد أن استعده لديها وعمل على القضاء على المصحفي. راجع قصة زواج ابن أبي عامر من أسماء بنت غالب الفصل الأول ص ١٢٦ وما يليها.

في يدها، إلى أن تثبت قدماء. وعندئذ كثر عن أبيها. فهو يعد في حاجة إليها. ولذلك بدلت السيدة صبح حياء بجفاء، وانقلبت عليه لجره الشديد على ولدها هشام.

فيروي المؤرخون: أنها حاولت أن تأتي بجيش من العرب. على نفقة خاصة للقطاء على المنصور بن أبي عامر. وأما أخذت الأموال من بيت المال في القصر الخلافي بمدينة الزهراء. ووضعتها في "حرار" لإرسالها على شكل هدايا إلى حليفتها المغربي "زيري بن عطية المغربي". ولكن المنصور استطاع بفضل عبوته أن يكشف المؤامرة، ويسعى على هذه الأموال والهدايا. ولكي لا تكرر تلك المحاولة مرة أخرى من جانبها لتهرب الأموال، نقل المنصور بيت المال فوراً من مدينة الزهراء، إلى مدينة الزاهرة، التي بناها المنصور بنفسه في شمال شرق قرطبة.<sup>(١)</sup> وحتى يسفل ابن أبي عامر غائياً عن صبح، ويقطع كل علاقة بها. انتقل في أوائل سنة ٣٧٠هـ - ٩٨٠م. إلى مدينة الزاهرة، وحجر على الخليفة، وعزله عن العالم، ومنع دخول أي شخص إليه. إلا بإذنه. وصار الخليفة محجوباً بين جدران قصره، يغمره الخمول والنسيان.<sup>(٢)</sup>

وهكذا فشلت صبح في محاولاتها، رغم السطوة الشديدة التي تمتعت بها في عهد زوجها الحاكم المستنصر، وبداية عهد ابنها هشام المؤيد. ولم يسفر ذلك الصراع بينها وبين ابن أبي عامر، إلا لمزيد من توطيد حكمه وسلطانه. ولم تعد صبح أهلاً لمقاومة ابن أبي عامر. والوقوف في وجهه. ويبدو أنها رضيت بالأمر الواقع في آخر الأمر، وجاءت إلى السكينة والعزلة. ولكن يبدو أن وضع انزوائها واستكانتها. لم يمر بسهولة على أهل قرطبة، ولم يتقبلوه لما لها من شعبية كبيرة بين جموع المواطنين القرطبيين. لهذا ظهر الكثير من أبيات الشعر التي عبرت بوضوح عن رأي الشارع القرطبي. وتزمره لما حدث للخليفة وألمه، بل والتعدي بآب أبي عامر، فمن ذلك ما قيل على لسان هشام، يشكو حاله ووحشته قائلاً:-

أليس من العجائب أن مثلي

يرى ما قيل مبتعاً عليه

وتملك باسمه الدنيا جميعاً

وما من ذاك شيئاً في يديه

١- ابن سعيد. المغرب في حلي لغرب، ج ١، ص ٢٠١، القرطبي: تلح الطيب ج ٣، ص ٩٢، ٩٣، العادلي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص ٢٥٥.

وقد أورد لنا القرطبي، كمية ومبالغ تلك الأموال. والذهب. والفضة. التي حاولت صبح هربها.

٢- محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ج ٢، ص ٥٣٦.

وقولهم أيضاً:-

اقرب الوعد وحسن الحلاك

وكل ما تحذره قد آتاك<sup>(١)</sup>

وقد كانت قصة صبح مع المنصور ابن أبي عامر، فيما يبدو من آثار وأقوال كثيرة من حيث طبيعة العلاقة بينهما، وخاصة في المجتمع القرطبي. ويروي "ابن حزم": أن المنصور أدخلت عليه جارية يوماً ليبتاعها، فغنت شعراً على لسان المنصور يتغزل فيه بصبح، كان يقال على السنة العامة بشوارع قرطبة قامر بقتلها.<sup>(٢)</sup> ورغم ما ذكرناه، عن قصة صراع صبح مع ابن أبي عامر والتي قد يبدو فيها التحامل على المنصور ابن أبي عامر. نريد أن نوضح أن ابن أبي عامر، غنى عن التعريف، وهو من أفضل حكماء الأندلس على الإطلاق، وتاريخه وفصحاته كثيرة جداً. وقد يكون له اعتدائه فيما فعله مع السيدة صبح، وربما رأى أنها تجاوزت، ما كان يمكن أن يكون مرسوماً لأي سيدة مثلاً وفي مكانتها، في ذلك الحين سواء جارية أم حرة. فركب الحقد والوقوف أمام بعض طموحاتها، وإن كان تصدى لها بشكل قاسي، بعض الشيء. فهي قد آزرته في بداياته بكل ما تملك. ورغم هذا فنبهه عربي أصيل ومعروف. وقد أورد نسيه ابن الأثير في "الحلة السوداء"، وبشيء كثير من الإجلال والعظيم.<sup>(٣)</sup>

ولكن الشيء الغريب الذي لاحظته من خلال دراستي لقصة صبح دورها، ومسلطتها، وانكسارها، أن كل الروايات الإسلامية، قد صممت، ولم تشر إلى أن الحكم قد اتخذ منها زوجة، إشارة صريحة. كما أشارت لغيرها ممن هم أقل شأنًا ومكانة منها مثل إجلولنا زوجة عبد العزيز بن موسى أو "دروالة" السائلة الذكر، أو زوجات المنصور بعد ذلك. فقد أنفقت للحكم غلامين، وفي سن حرجية متقدمة بالنسبة له. فكان من الضروري أن نعرف هل الحكم اتخذها زوجة، ورفعها بعد هذا الإخجاب، أم ظلت "أم له"، وحظية فقط؟ فموضوع كهذا كان ينبغي ألا يفوت على المؤرخين المعاصرين لها، وخاصة الذين اهتموا بها، وأسرفوا كثيراً في ذكر نفوذها ومسلطتها.<sup>(٤)</sup>

أما عن وفاتها، فكانت في مدة حجاب المنصور، في ٢٩ من ذي الحجة ٣٨٩هـ - ١١ ديسمبر ٩٩٩م. وقد رثاها شاعر العصر أحمد بن دراج القسطلبي الأندلسي (ت ٤٢١هـ - ١٠٣٠م)، في قصيدة طويلة رائعة. جاء فيها: يرثي أم هشام أمير المؤمنين المؤيد بالله:

١- المقرئ: لفتح الطيب، جـ ١، ص ٦٠٣، عبد الله عنان: دولة الإسلام، جـ ٢، ص ٥٣٦، ٥٣٧.

٢- ابن حزم: طوق الحمامة في الإلفة والألف، حققه الأستاذ الدكتور الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، ١٩٨٥م، ص ٦٢.

٣- ابن الأثير: الحلة السوداء، جـ ١، ص ٢٧٥.

٤- ليلى بروفيسال: تاريخ إسبانيا الإسلامية، جـ ٢، ص ٢٠٢، ٢٣١، ٢٣٠، ٢١٩، ٢٠٨، ٢٠٤.

هل أملكُ بملكِ ربِّ المُسُونِ؟

أم العُرُ يُصرفُ صرفَ القضاءِ؟

جزاكِ بأعمالكِ التُّكسباتِ

حيوُ المُجازين غيرِ الجزاءِ<sup>(١)</sup>

وفي النهاية، نستطيع إن نقول: أن تلك المرأة ثرذت على وضعها في القصر من خلال مكانتها، التي اكتسبتها لدى سيدها الحكم المستنصر. وتمتعت بثوؤ كبير في بلاط بني أمية، وذلك سواء في أيام سيدها الحكم، أو عندما تولت الوصاية على ابنها هشام عقب وفاة الحكم، أو عندما توسمت في ابن أبي عامر الخير، ووقفت بجانبه بكل قوتها وأموالها، تؤازره، حتى وصل إلى أعلى درجات الترقى. بل وأصبح هو الحاكم الفعلي، والخليفة عبارة عن اسم فقط. ورغم أنها كانت جارية مجلوبة، وليست من سلالة الأمراء والخلفاء أو البيت الحاكم، إلا أنها استطاعت بذكائها ومهارتها، أن تصرف شئون الحكم زماناً ليس بالقصير.

رابعاً: أمهات ولد المنصور بن أبي عامر.

المنصور ابن أبي عامر هو مؤسس "الدولة العاصمية" بالأندلس. رغم وجود الخلافة الأموية، المشتعلة في ذلك الغلام الصغير المسمى هشام المؤيد ابن الحكم المستنصر. ولكن الحقيقة: إن المنصور ابن أبي عامر، وأولاده من بعده، كانوا هم الحكام الفعليين. وقد اتعب المنصور ابن أبي عامر، ملوك قشتالة بالغزو والإغارة عليهم. فكان يواليهم بالصوائف، والشواني الملاحقة، حتى أذعنوا من خبط الخسف، كما لم يذعنوا لأحد من قبله، ولا عرفوه في زمن بعده.<sup>(٢)</sup>

ولم يجد ملوك إسبانيا النصرانية في الشمال، أمام هجمات المنصور الطافرة، والملاحقة، والمنفردة عليهم دائماً، غير مهادنة، بل والتقرب إليه بإهدائه بناقم. فكان المنصور يتخذ منهم السراى، إلى أن تنجب الواحدة منهم وتصبح "أم ولد". ومن بين هؤلاء الملوك أقطاط قشتالة. وقد حكم منهم في أيام المنصور إثنان هما جاريثا فرنانديث Garcia Fernandez ٩٩٠-٩٩٥ م، ثم ابنه سانشو جاريثا Sancho Garcia ٩٩٥-١٠١٧ م. وكلاهما لقي الكثير من المتاعب، والمزائم، على يد المنصور. فالأول هو الأب انتهت حياته بالأسر في معركة مع المنصور، ثم حمل إلى قرطبة، حيث مات ودفن هناك، في كنيسة للمستنصرين تعرف باسم كنيسة القديسين الثلاثة، ثم نقل رفاته بعد

١ - راجع القصيدة كاملة في:-

ديوان ابن دراج القسطنطيني: نشر وتحقيق الأستاذ الدكتور محمود على مكي، منشورات المكتبة الإسلامية.

دمشق ١٣٨١ هـ - ١٩٦٦ م، ص ١١٩، ١٢٣.

٢ - ليفي بروفنسال: تاريخ إسبانيا الإسلامية، ص ٦٦.

ذلك إلى دير كاردينيا Cardena، بقشتالة. أما الثاني وهو الابن، فقد منى بهزائم كثيرة أبسطاً. واضطر آخر الأمر أن يعقد اتفاقاً مع المنصور، ويؤوجه ابنته. <sup>(١)</sup> وتزوجها المنصور سنة ٩٨١ م. وأسلمت وحسن إسلامها. وكانت من خيرات نسائه ديناً متيناً وحسباً أصيلاً. وأطلقت على نفسها اسم "عبد". وأحب منها المنصور ابنه عبد الرحمن شنجول.

ويذكر ابن عذاري: أن هذا الاسم " شنجول " غلب عليه من قبل أمه، وأطلقت عليه أمه حتى يذكرها بابيها شانجة، فتلث الكلمة تصغر لشانجة أي سانشو الصغير Sanchuelo. وقد حرفته العامة، وأصبح شنجول.

ويذكر أنه كان أشبه الناس بمجده في الشكل. <sup>(٢)</sup>

وينبغي الأستاذ الدكتور/ أحمد مختار العبادي. أن يكون هذا الاسم معناه الأحق. كما ورد في تاريخ الأندلس لابن الكردبوس. ويقول أنه من المعروف عن عبد الرحمن هذا أنه كان فعلاً شاباً أحقاً طائشاً. ولعل هذا ما يعنيه المؤلف، وليس معنى الاسم نفسه. <sup>(٣)</sup>

ويضيف الأستاذ الدكتور/ العبادي. أيضاً استناداً إلى بعض الروايات المسيحية، أن المنصور مات في ٢٧ رمضان سنة ٣٩٢ هـ - ١٠٠٢ م، وهو في سن الخامسة والستين. ومات متأثراً بجراحة. كما تقول الرواية المسيحية، استناداً على مثل إسباني شائع ومعروف يقول:-

En Calatanozor murio el Manzor Y Perdia al Tambor  
في قلعة النور. وفقد طبله. <sup>(٤)</sup>

ومما ذكر عند موت المنصور أيضاً، ما قاله مؤرخ لاتيني في حولياته " مات المنصور، ودفن في جهنم سنة ١٠٠٢ م. " <sup>(٥)</sup>

١- العبادي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، ص ٨٧. هامش رقم (١).

والرواية المسيحية تقول: إنها أحبه وليست ابنته، عكس كل الروايات الإسلامية التي ذكرت إنما ابنته. انظر:-  
Diccionario de Historia de España. Tomo I. p. 1208.

٢- ابن الأثير: الحلة السوداء، ج ١، ص ٢٧٢ هامش رقم (١) ابن عذاري: البيان المغرب، ج ٣، ص ٣٧، ٣٨، العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص ٢٦٥، العبادي: الإسلام في أوطى الأندلس، ص ١٦٣ عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم، ص ٣٤٣، عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ج ١، ص ٥٨٣.

٣- العبادي: تاريخ الأندلس لابن الكردبوس، وهو قطعة من كتاب الاكفاء في أحوال الخلفاء، تحقيق الأستاذ الدكتور/ أحمد مختار العبادي، مدريد ١٩٧١، ص ٤٤.

٤- العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص ٢٦٦.

Levi Provençal: Hist., T.II. p. 233.

ومما سبق يتضح لنا: إلى أي مدى أذل المنصور ابن أبي عامر ملوك قشتالة وليون، حتى أنهم كانوا يشترطون رضاه بالمصاهرة. وصاهر المنصور حاكم ليون أيضاً، والذي يسمى برمودة الثاني Bermudo II، فقد عانى هذا الحاكم من خروج الأشراف عليه في مملكته، إلى حد أنهم هددوا عرشه، فلم يجد أمامه سوى اللجوء للمنصور ابن أبي عامر، ليعاونه في توطيد أركان مملكته. فع جاء إليه في قرطبة سنة ٩٨٥م، مستجيراً لمعاونته. وقد أجابه المنصور إلى طلبه، وقدم له المعونات اللازمة. ولكي يضمن برمودة الثاني المساندة الدائمة للمنصور، قدم له ابنته Teres تيريس، أولاراسيا Tarasia، عروساً له، فقبلها المنصور، واتخذها سريّة، أو زوجة له.<sup>(١)</sup>

وكان هؤلاء الحكام، لا ينقطعون عن زيارات المنصور المذكورة في قرطبة. فقد أورد ابن الخطيب: في كتابه "أعمال الأعلام" صورة لزيارة سانشوجارسيا، ملك قشتالة Sancho Abarca، لقرطبة في سبتمبر سنة ٩٩٢م رجب ٣٨٢هـ. فخرج المنصور للقاءه، وكان معه حفيده عبد الرحمن شنجول لا يزال طفلاً في المهد، وعندما رآه جده، تسرّجّل عن راحيته، وقبّل رجله ويده. وكان هذا اللقاء بما فيه من فخامة وأبهة، حديث الناس في قرطبة لمدة طويلة.<sup>(٢)</sup> ومن زوجات المنصور أيضاً، أسماء بنت غالب، وقصة زواجها من المنصور معروفة ومشهورة.<sup>(٣)</sup>

ومن محظيات المنصور أيضاً، الزلفاء أم ولده عبد الملك المظفر، الذي تولى الحجابة من بعده، وكما يذكر ابن عذارى، أمّا كانت السبب في قيام محمد بن عبد الجبار بتورته ضد عبد الرحمن شنجول، أخو ابنها عبد الملك المظفر الأصغر، وذلك لاعتقادها بأن ولدها المظفر مات مسموماً، متهمه أخاه عبد الرحمن شنجول، بالتدبير لذلك. فحققت عليه، وسعت إلى حشفه عند بني مروان "عداء" قومها. وذلك بأن أرسلت واسطة، ففى يدعى بشر الصقلي، من الفتيان العامرين المحرقين عن عبد الرحمن شنجول، فأرشدته هؤلاء إلى محمد بن هشام ابن عبد الجبار، الذي كان يتسم بالقوة والياس، ففتح معه باب التدبير. ووعده بأن الزلفاء سوف تساعد، وتحميه بما يطلب من الأموال، إذا خلصها من عبد الرحمن شنجول.<sup>(٤)</sup> وكان لما أرادت، ولقى عبد الرحمن شنجول حشفه، وبذلك انتقم لابنها عبد الملك المظفر.

١ - عبد الله عان: دولة الإسلام في الأندلس، ج ١، ص ٥٨٣.

٢ - ابن الخطيب: لسان الدين أبو عبد الله محمد بن الخطيب: أعمال الأعلام ليمين بوبع قبل الاحتلال من ملوك الإسلام. تحقيق الأستاذ/إليي بروفسال، بيروت ١٩٥٦م، ص ٩٣، بروفسال: تاريخ إسبانيا الإسلامية، ص ٦٦.

٣ - ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والكملة، ج ٢، ص ٤٧٩، ٤٨٠.

Dozy: op., cit., T.II, p. 216.

Provençal: op., cit., T.I, p. 215.

٤ - ابن عذارى: البيان للغرب، ج ٣، ص ٥٢، عبد العزيز سادة: تاريخ المسلمين، ص ٣٤٧.

وقد كان للزلفاء أيضاً دوراً في إقصاء الوزير عيسى بن سعيد، وإبعاده عن منصب الوزارة، وذلك بسبب حقدنا عليه مباركته لزواج ابنتها عبد الملك المظفر في أثناء فترة توليه الحجابة، من ابنة أحد الجنائين. ويقول ابن بسام: في هذا الصدد: "وعندما رأها عبد الملك هام بها حبا، وهان عليه لفرط حبه بها، وغفته فاتخذها زوجة". فأنكرت أمه عليه هذه الفعلة، وأشارت إلى الوزير عيسى بن سعيد، بالتدخل لمراجعة ابنتها، وإثباته عن رأيه، فما كان من عيسى، إلا أن زاده استحساناً في تلك القينة. فعلمت الزلفاء بما دار، فحقدت عليه، إلى أن أقيم بالخيانة، وأبعد عن منصبه.<sup>(١)</sup>



١- ابن بسام: اللخيرة في محاسن أهل الجزيرة، المجلد الأول، ص ١٢٤، ١٢٥.

ومن الأشياء التي نفستها إثر لفاء أيضاً، على الوزير عيسى بن سعيد، إبعاده إلى جارية لها، تدعى "خيال"، وهي "أم ولد"، لولدها عبد الملك المظفر. ويبدو أننا كانت ذات مكانة لديها، وكان ذلك أيضاً أحد الأسباب، التي عزل الوزير على أثرها، بعد إغتيال الزلفاء عليه.

## الفصل الثالث

### دور المرأة في المجال العلمي في الأندلس.

أولاً: دور المرأة في الأدب الأندلسي، مع ذكر أسماء لشاعرات الأندلس المشهورات.

أهمّيات: العجفاء - حسنة النخبة - مريم بنت أبي يعقوب الأنصاري - العساية الجبالية - حمدة أو حمودة بنت زياد المؤدب - الروادي أشبة - ولادة بنت المستكفي - مهجة القرطبية... وغيرهن.

ثانياً: الكتابات، والعلماء، والمخططات، والمطبوعات.

ثالثاً: شعر الحب والغزل عند المرأة، ما قيل فيها، وما قاله.

أولاً: دور المرأة في الأدب الأندلسي . مع ذكر شاعرات الأندلس المشهورات.

حظيت المرأة الأندلسية بقدر كبير من اهتمام المؤرخين المسلمين، والمستشرقين، وبخاصة في مجال الإبداع الأدبي. فقد أرخ لها عدد من المستشرقين، وعلى رأسهم هنري بريس، الذي تناولها في فصل كامل بعنوان " المرأة والحب " في كتابه " الشعر الأندلسي في عصر الطوائف ". وكذلك ريبيرا Ribera والبورث albornoz وغيرهم.

ولكن يبدو أن من أوائل من اهتم بأحدث منهم عن المرأة الأندلسية هو المستشرق الألماني البارون فون شاك Von Schack، في كتابه الذي صدر بالألمانية في برلين سنة ١٨٦٥م، بالعنوان الذي ترجمته العربية تعني " شعر العرب وفنهم في إسبانيا وصقلية ". وقد نقله إلى الإسبانية المستشرق الإسباني خوان فاليرا Juan Valera، الذي اعتمدنا على ترجمته في هذا البحث.<sup>(١)</sup> ولقد جاء حديث شاك " عن المرأة الأندلسية في مقدمة الفصل الرابع من كتابه، والذي أوقفه على دراسة " شعر الغزل في الأندلس، وكانت النتيجة التي خرج بها من خلال ذلك الشعر، أن وضع المرأة في إسبانيا كان أكثر تحرواً عما كانت عليه في بقية الشعوب الإسلامية، مما ساعدها على الإسهام بمجهودها في كل ألوان الثقافة المعروفة على أيامها، وليس قليلاً عدد أولئك اللاتي وصلن وبلغن شهرة واسعة، ولعبن دوراً بارزاً في مجال الإبداع العلمي والأدبي. وواضح فيه الرجال، ونظن في ظل هذه الحاضرة الأندلسية الراقية، إحتراماً لم تعرفه المرأة أبداً في المشرق الإسلامي.<sup>(٢)</sup>

١- راجع:-

Adolfo Federico de Schack: Poesía y Arte de Los Arabes en España Y Sicilia, Traducción de, Juan Valera Mexico, 1944.

Schack: op, cit, p. 62-63.



ومن المستشرقين المتحمسين أيضاً خيرية المرأة الأندلسية، الإسباني حوليان ريبيرا. فهو من أشد المؤيدين لحريتها، التي كانت السبب الرئيسي والأساسي في محافظتها على أسنة الأجيال الجديدة من أبناء المسلمين، والتقليل من شأن التأثير العربي الإسلامي عليهم.

وتظهر مكانة المرأة الأندلسية فيما ناله من ثقافة وعلم في كافة المجالات وبخاصة دراستها لأهميات الكتب الإسلامية، مثل موطأ الإمام مالك وصحيح البخاري، إلى جانب علوم الفلسفة والطب والموسيقى، بل ووصلت كثيرات منهن إلى مرتبة "المعلمات الكبيرات". ويضيف ريبيرا: بأن المرأة الأندلسية المسلمة، بدأت تصل لهذه المكانة السامية، منذ منتصف القرن الثالث الهجري،<sup>(١)</sup> أي في أوج ازدهار الدولة الأموية الأندلس.

ولكن جيثار الفرنسي، يعارض هذه الآراء السالفة، ويقول: إن المرأة الأندلسية لم يكن مسموحاً لها أن تظهر بقدر من التفتح مثل الذي ظفرت به المرأة الشرقية مستنداً إلى رأي ابن حزم: الذي أوردته في طوق الحمامة، والذي يقول فيه: "أن المرأة شغلها الشاغل الرجل، تصفن في إرضائه، ومضاjectه، أو الزواج منه".<sup>(٢)</sup>

والحقيقة، أننا من خلال مراجعة نصوص الطوق. نرى أن ابن حزم قد ناقض نفسه، وعلى صفحات نفس كتابه، حول قدرة النساء على التحصيل والتعليم فيقول: "لقد شاهدت النساء، وعلمت من أسرارهن ما لا يكاد يعلمه غيبي، لأني ربيت في حجوهرهن، ونشأت بين أيديهن، لم أعرف غيرهن ولا جالست الرجال، إلا وأنا في حد الشباب، وحين تسفيل وجهي، وهن علمني القرآن، ورويتني الكثير من الأشعار، ودرسني على الخط".<sup>(٣)</sup>

فبذلك الكلمات، حسم ابن حزم قضية المرأة الأندلسية. فهو فقيه كبير إن لم نقل أكبر فقهاء الأندلس في عصره. وعندما تخرج النساء من بين أيديهن "ذرة" كابن حزم، فلا بد أن يكن هن أنفسهن على مستوى كبير من العلم والثقافة. اكتسبته منذ نعومة أظافرهن، وبلغن فيه شأناً بعيداً. ولكن المآخذ التي أخذها ابن حزم على المرأة الأندلسية، وذكرها من خلال الطوق أيضاً، فهي تدور حول "سوء الظن بالمرأة"، وهو معذور في ذلك، فالمرأة لها عالمها الخاص، في جوانب معينة، يختلف كلية عن عالم الرجال. ونرى من الأفضل عدم الإطّلاع عليه.

ولذلك عندما توغل ابن حزم في عالم المرأة الخاص، وعرف الكثير من أسرارها، أساء الظن بها. أما عن الدور الذي لعبته المرأة الأندلسية في مجال الإبداع الأدبي والعلمي، فيعد أحد الجوانب

١- Ribera y Tarragó: Disertaciones y Opúsculos. Tomo I, Madrid 1928. p. 347-348

٢- Piérre Guichard. Structures Sociales. p. 168.

٣- ابن حزم: طوق الحمامة. ص ٧٩.

Sánchez Albornoz: La España. Tomo I, P. 301.

Abd el Magid Turki: "Stvdiia Islamica" Femmes Privilegiées dans le system D'Ibn Hazm, Paris, 1977. p. 76 - 77.

المشرقة في تاريخ الحياة العربية الإسلامية في الأندلس. وقد أخذ الشعر بصفة خاصة جانب التميز، ولم نجد القوافي تربة خصبة تتحرر فيها من قيودها خارج مهدها الأول في شبه الجزيرة العربية، كما وجدناها في الأندلس، وهي ميزة تفوق بها الأندلس على غيره من أصقاع الإمبراطورية الإسلامية.<sup>(١)</sup>

كذلك اهتم بعض المؤرخين المسلمين، بالمرأة الأندلسية اهتماماً خاصاً ومنهم محمد بن عبد الملك المراكشي (ت ٧٠٣هـ - ١٣٠٤م)، الذي أفرد لها فصلاً كاملاً في نهاية كتابه الذليل والشكيلة<sup>(٢)</sup> لكتابي الموصول والفصلة<sup>(٣)</sup>. وأيضاً أبو العباس أحمد المقرئ النشماني (ت ١٠٤١هـ - ١٦٣١م) والذي أوقف فصلاً كاملاً في كتابه نفع الطيب: لشاعرات الأندلس المشهورات.<sup>(٤)</sup>

ونود أن نوضح هنا: أنه في الوقت الذي كانت المرأة الأندلسية تنال كافة الحقوق العلمية والثقافية، كانت المرأة الأوربية في هذا الوقت، مخلوقة من الدرجة الثالثة، قلما تنال حظاً من الثقافة، إلا في طبقات النبيلات. وكان يتلن قسوراً من الثقافة، لا تكاد تعدو القراءة والكتابة.<sup>(٥)</sup>

أما من حيث إعداد الشاعرات الأندلسيات، فالحقيقة كن من الوفرة والنضوج، بحيث شكلن ملمحاً بارزاً من ملامح الشعر الأندلسي. وكان إلتاجهن من ناحية القول، والصوغ، والجرس، والإشراق، والجرأة، والرصانة، والجزالة ما يدفع الدارس إلى ضرورة الوقوف في ساحته بعض الوقت فاحصاً متأملاً مستنبطاً ما فيه من أسباب الجرأة، ومظاهر الإبداع، والإمتاع، وليس أدل على ذلك من أفن فرضن وجودهن فرضاً، على موكب الشعر في الأندلس.<sup>(٦)</sup>

واشتهر منهن عدد كبير كن يساجلن الرجال في ميادين الشعر والعلم والفن وكن زينة مجالس السمر والطرب والغناء. وكان لبعضهن صالونات أدبية تضم عظماء الرجال في الفنون والآداب. وقد سبقن فرنسا بهذا التقليد عدة قرون. وكان تعليم البنات شائعاً في الأندلس، وكثيرات منهن كن يحفظن بضعة دواوين لشعراء العرب، ويتظمن أيضاً الشعر، ويترسلن كالاوريات اليوم، أي يخرجن حاسرات الرؤوس.<sup>(٧)</sup>

١- الظاهر مكّي: دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة، دار المعارف ١٩٨٠، ص ٨٩.

٢- يقوم بنشر الأجزاء الباقية من هذا الكتاب الأستاذان: إحسان عباس، ومحمد بن شريف.

٣- المقرئ: نفع الطيب، ج ٤، ص ١٦٦، وما يليها.

٤- علي عبد العظيم: ابن زيدون عصره حياته وشعره، رسالة ماجستير توفقت بكلية دار العلوم يوليو ١٩٥٤، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٥٥، ص ٦٩.

٥- حودت الركابي: في الأدب الأندلسي، الطبعة الرابعة، دار المعارف ١٩٧٥، ص ٩٧، ٩٨.

٥- مصطفى الشكيلة: الأدب الأندلسي، ص ١١٥، ١١٨.

٦- علي عبد العظيم: ابن زيدون، ص ٧٠. الشكيلة: الأدب الأندلسي، ص ٤٩.

وإذا كانت المرأة " الجارية " ولأسباب اقتصادية. كانت تتلقى الكثير من التعليم، فلكذلك كانت المرأة الحرة في الوسط الارستقراطي أيضاً تتألق قدرأ كافيأ من التعليم.<sup>(١)</sup>

والشعر الأندلسي بصفة عامة، لم يصل إلى أوج إزدهاره الكامل وسماته الجمالية، إلا في القرن الرابع الهجري. أو العاشر الميلادي، الذي اقترن بقيام الخلافة الأموية، الأندلسية عام ٣١٦هـ - ٩٢٩ م.<sup>(٢)</sup>

واستحقت الأندلس أن تحتل مكانأ بارزأ ممتازأ، في وفرة إنتاجها الشعري ذي البرعة الكلاسيكية المجددة. كما نشأ لون شعري جديد، إن صح القول: كما يذكر بروفسال: عرف " بالشعر الشعبي " وأنواع مبتكرة أخرى كالتوضحات، ثم الأزجال، وعنها أخذ المشرق، وسارع إلى اصطفاها. كأنما كان يتوق الأندلس إلى التحرر من قيود المعاني القديمة. وقالب الشعر الكلاسيكي القديم.<sup>(٣)</sup>

وفيما يختص بالشعر الأندلسي، الذي قارب عملية الفتح، لا نكاد نحس فارقأ بينه وبين شعر المشرق. فقد كانت معظم شاعرات الأندلس في هذه الفترة المبكرة من الفتح ممن وفدن من المشرق، وحلن معهن تأثيرات المشرق في المعاني والألفاظ. ويرجع الأستاذ الدكتور/ مصطفى الشكعة، هذا إلى أن المرأة الأندلسية المسلمة في العهود الأولى للفتح الإسلامي، لم تكن قد انغمست وذابت بعد في دوامة الحياة الأندلسية، بما فيها من اختلاف عن المشرق.<sup>(٤)</sup>

ويضيف الأستاذ الدكتور/ الشكعة أيضاً، أن المرأة كلما كانت أقرب إلى زمن الفتح كانت أقرب إلى عروبها، وبالتالي إلى حشمتها، والابتعاد عن الجرأة والإسفاف، وتجنبت فحش القول في أشعارها. وكلما بعدت كانت أقرب إلى التحرر، الذي هو على حد تصيره " تحلل ".<sup>(٥)</sup>

ولكن الحقيقة التي لا جدال فيها، أن التأثيرات المشرقية على الشعر الأندلسي، ظهرت بجلال ووضوح، وخاصة في بداية الدولة الأموية، أي في عصر الأمراء. وأشهر من نقل تلك التأثيرات " زرباب " وأولاده. ويذكر " بروس " أن إسبانيا، بدأت تقلل شيئاً فشيئاً من نظرتها إلى المشرق، واحتذالها ما يجري فيه بعد أن أصبح عندها الأدباء، والشعراء. والمفكرون، والمغنون، والموسيقيون، من الجنسين. فإذا صح القول: بأن شخصأ كأبي علي الفاي " أو قمر " المغنية البغدادية مثلاً، كان

١- صلاح عخالص: إشبيلية في القرن الخامس الهجري. ص ٩٩.

٢- إميليو غرسيه غومث: الشعر الأندلسي، ص ١٢.

٣- بروفسال: سلسلة محاضرات عامة. ص ٢: غومث. نفس المرجع. ص ١٢.

٤- الشكعة: المرجع السابق. ص ١٢٢.

٥- الشكعة: نفس المرجع. ص ١١٨.

أوسع ثقافة، وأرقى حضارة من الوسط الأندلسي، الذي أحاط بهما في القرن العاشر الميلادي. فقد قلبت الموازين بعد ذلك لصالح المسلمين الإسبان، في القرن الذي تلاه.<sup>(١)</sup>

### أشهر شاعرات الأندلس .

#### (١) العجفاء.

ونستطيع القول بشكل جازم: أن أول شاعرة ظهرت بأرض الأندلس، كانت من الجولاي الوافدات من المشرق، ولا نعرفها باسمها، فذلك شيء غاب عن مؤرخي الأندلس، وإنما بصفتها "عجفاء". فقد كانت بالفعل جارية هزيلة، ضعيفة، نحيلة. وكانت من القيان الوافدات من المشرق، والتدريبات على الإنشاد الديني والأدبي والعرف والغناء.<sup>(٢)</sup>

ويروي المقرئ: حول تلك القيان الدخيلات من المشرق إلى الأندلس ومنهن " عابدة المدينة " وكانت جارية سوداء من رقيق المدينة حالكة اللون، غير أنها كانت تروي عن " مالك بن أنس " إمام دار الفجرة، وغيره من علماء المدينة، حتى قال بعض الحفاظ : إنها تروي عشرة آلاف حديث، وقال ابن الأثير إنها تسند حديثاً كثيراً، وكانت في الأصل جارية للأمير الأموي محمد بن يزيد بن مسلمة بن عبد الملك بن مروان، الذي وهبها أثناء رحلته إلى الحج، لحبيب بن الوليد المرواني المعروف " بدحوح "، الذي قدم بها إلى الأندلس، وقد أعجب بعلمها، وفهمها، واتخذها لغرضه، وصارت أم ولد بشر بن حبيب.<sup>(٣)</sup>

#### (٢) حسانة التميمية.

أما الشاعرة الثانية على الأرض الأندلسية، فهي حسانة التميمية، ولكننا إذا أردنا الدقة، ما ترددنا في أن نجعل منها أول شاعرة ظهرت على أرض الأندلس. وليست من الوافدات، وذلك لأنها مولودة في الأندلس، في البيرة " غرناطة " فضلاً عن كونها من الخرائر، وليست من القيان، وملكة الشعر عندها موروثه عن أبيها أبي الحسين بن أبي المخشي الشاعر، أحد من مدحوا الحكم الرشيد، وإن كنا لا نعلم على وجه التحديد ميلادها، ووفاتها. ولكننا نعرف أنها عاشت في أواخر القرن الثاني الهجري، وأوائل القرن الثالث.

١- هنري بروس: الشعر الأندلسي، ص ٤٦.

٢- الشكفة: المرحع السابق، ص ١١٩، ١٢٠.

٣- المقرئ: نفع الطيب، ج ٤، ص ١٣٦.

وذلك لأنها مدحت الحكم بن هشام (الربضي) في ذلك الوقت، بل عندما مات الحكم سنة ٢٠٦ هـ، وقع عليها ظلم من عامل البيرة جابر بن لسيد، فشكته إلى عبد الرحمن بن الحكم "الأوسط"، ولده وولي عهده.<sup>(١)</sup>

وقد أورد المقرئ، لها ترجمة، ويقول عنها: تأديت وتعلمت الشعر، فلما مات أبوها، كتبت مديها إلى الحكم "الربضي" تقول فيه:—

إني إليك أبا العاصي مُوجعة

أبا المخشي سقته الواكف الدثم

قد كنت أرفع في نعمة عاكفة

فاليوم آوى إلى لعمالة يا حكيم

أنت الإمام الذي إنقاذ الأناس لهُ

وملكة مقاليد الشهي الأمم

لا شيء أخشى إذا ما كنت لي كفياً

آوى إليه ولا يعزوني القسائم

لأزلت بالعزّة القسائم مرتدياً

حتى نلّك إليك الغرب والغيم

فلما وقف الحكم على شعرها استحسنته، وأمر لها بإجراء راتب دائم وكتب إلى عامله على البيرة، فجهزها بجهاز حسن.<sup>(٢)</sup>

وقد ضربت حسالة مثلاً رائعاً، في عدم إسكان المرأة الأندلسية المسلمة التي يقع عليها ظلم، ليحكمي: ألما وفدت على عبد الرحمن بن الحكم "الأوسط" شاكية إليه عامله على البيرة "جابر بن لسيد" وكان والده الحكم "الربضي" قد وقع لها بخط يده تحريراً لأملاتها، ويبدو أن جابر سلبها تلك الأملات بعد وفاة الحكم. فتوصلت إليه بما في يدها من مخطوط الحكم، فلم يعجزها فحات إلى عبد الرحمن الأوسط، وأقامت بغناته، وتلطفت مع بعض نساته، حتى أوصلتها إلى عبد

١- ابن عبد الملك المراكشي: (أبو محمد بن عبد الملك المراكشي) الذيل والتكملة لكتاني لموصول والصلة، تحقيق الأستاذ الدكتور محمد بن شريفة، الرباط ١٩٨٤م، ج ٢. ص ٤٨٤. عبد العزيز سام: دائرة معارف الشعب، العدد ٦٤. ص ١٢٠٢ الشكعة: الأدب الأندلسي، ص ١١٩. وما يليها.

Nykl (B.A.R): Hispāno Arabic Poetry, Baltimore, 1946, p. 22, 23.

٢- المقرئ: المصدر السابق، ج ٤، ص ١٦٧.

الرحمن وهو حال طرب وسرور، فانتسيت إليه لعرفها وعرف أباها، ثم أنشدته قبل عرض شكايها. ويدل هذا على ذكاء منها، أن تقدمه أولاً، ثم تعرض شكايها ثانياً من خلال أبيات المدح كي تجذب المزيد من الانتباه. فقد كان للشعر الجيد تأثير كبير على إراء بني أمية. فقد أحبه، وتلقوه، وقالوه أيضاً؛ فقالت:

إلى ذى الندى وانجد سارت ركابي

على شحط تصلى بناي المواجهـ

ليجبر صدعي إنه خير جابر

ويعني من ذى الظلامة جابر.

فإني وأيامي بقبضة كفه

كذى ريش أحصى لي محالب كاسـ

جدير مثلي أن يقال مروعة

لموت أبي العاصي الذي كان ناصري.

سقاء الحيا لو كان حياً لما اعتدى

علي زمان باطش بطش قـادر

أبحو الذي خطته عنه جابر

لقد سام بالأملاك إحدى الكبار

ولما فرغت رفعت إليه خط والده "الحكم الربضي" بالرقعة التي عقدتها لها فأخذها، ووضعها على عينيه، وبكى، ثم قال: تعدى ابن ليد طوره ونقض رأي الحكم، إنصرتي يا حسنة، فقد عزلته لك. ووقع لها على عهد جديد مثل أبيه وأمر لها بمجازة. فانتصرفت راضية مسرورة، وبعثت إليه بقصيدة أخرى منها:--

ابن المشامين خير الناسي مألوه

وخير منجج يوماً لرواد

فل للإمام أيا خير السورى نسباً

مقابلاً بين آباء وأجداد

فإن أقمتم في نعمائك عاطفة

وإن رحلت فقد زودتني زادي<sup>(١)</sup>

١- راجع القصيدة كاملة في: -القرى: فتح الطيب، ج ٤، ص ١٦٧، ١٦٨، عبد العزيز سالم: دشرة معارف الشعب، عدد (٦٤) ص ٢٠٢.

## (٣) عائشة بنت أحمد القرطبية.

وكان الشعر يجري وينساب على ألسنة نساء الأندلس، فبرعت منهن أيضاً عائشة بنت أحمد القرطبية، ويقول عنها ابن بشكوال: ذكرها ابن حيان وقال عنها لم يكن في جزائر الأندلس في زمانها من يعدّها، فهما، وعلماء، وأدباء، وشعراء، وفصاحة وعفة، وجزالة، وحصافة، وكانت تمدح الملوك في زمانها، وتخطبهم فيما يعرض لها من حاجتها، فبلغ بيافها حيث لا يبلغه كثير من أدباء وقتها. ولا ترد شفاعتها. وكانت حسنة الخط، تكتب المصاحف، وماتت عذراء لم تنزوج قط، قال: ورأيت ذا شعراً أرسلته إلى بعض الرؤساء أوله:-

لولا النوع ما عشت عزولاً

فهي التي جعلت إليك سبلاً

وتصرفت في شعرها أحسن تصرف، ومحاسنها كثيرة، وماتت سنة أربع مائة هجرية- ١٠١٠ م.<sup>(١)</sup> وقد عشقت عائشة أحد أبناء المصور ابن أبي عامر، ورلعت به.<sup>(٢)</sup> وذكرها المقرئ أيضاً نقلاً عن ابن حيان. وأضاف بأنها تعد

من عجائب زمانها وغرائب أوقافها. وكان عمها أبو عبد الله الطيب شاعراً، ولكنها كانت أشعر منه " ودخلت يوماً على المظفر بن المصور ابن أبي عامر وبين يديه ابن صغير له، فارتجلت قائلة:-

أراك الله فيه ما تريد

ولا برحمت معاليه تزيد

فقد دلت محايله على ما

تؤمله طالع السعيد

فسوف تراه بدمراً في مصاء

من القلبي كواكب الجنود

فأنتم آل عامر خير آل

زكّا الأبناء منكم والجنود<sup>(٣)</sup>

١- ابن بشكوال: ( أبو القاسم خلف بن عبد الملك الصلة في تاريخ أئمة الأندلس ) الدار المصرية للناليف والترجمة، ١٩٦٦ م ٢٣٢، ٢٣٣ بالنسبة: تاريخ الفكر الأندلسي، ص ٧٣.

٢- الطاهر مكي: دراسات عن ابن حزم، ص ٦٨.

٣- راجع باقي القصيدة في: المقرئ: نفح الطيب، ج ٤، ص ٢٩٠.

وقد نقل المؤرخ الإنجليزي. نيكل Nykl، تلك القصة في كتابه " الشعر العربي الأندلسي" وأضاف عن عائشة أنها كانت ذات أسلوب أدبي خاص وفريد، فتمتعت به دون سائر نساء ورجال عصرها<sup>(١)</sup>.

#### (٤) مريم بنت أبي يعقوب.

مريم بنت أبي يعقوب الأنصاري الفصولي الشلي " الناصري". وعاشت في إشبيلية بعد سنة ٤٠٠هـ - ١٠٠٩م، وأصلها من مدينة شلب Silves في غرب الأندلس، وذكرها ابن دحية في المطرب، وابن بشكوال في الصلة، وعنهما نقل المقرئ: وأجمعوا على أنها كانت شاعرة وأديبة " جزلة " مشهورة. وأما كانت تعلم النساء الأدب، وتحتشم لدينها، وفضلها، وقد عمرت، وعاشت عمراً طويلاً، ويوماً قالت شعراً تصف فيه حالتها بعد أن تقدم بها العمر فأنشدت:-

وما يُرْجَى من بنتٍ سبعين حصة

وسع كسح العنكوت الهلهلي

تدبُ ديبَ الطفلِ تسعى إلى العضا

ومشي بها مشي الأسير المكسلي

وقد بعث إليها المهدي يوماً بدنانير وكتب إليها:-

ما لي بشكر الذي أوليت من قبلي

لو أني حُرْتُ نطق اللسان في الحلقلي

يا فلة الطرف في هذا الزمان وما

وحيدة العصر في الإخلاص وفي العمل

أشبهت مريم العنبراء في وزع

وفُت خساء في الأشعار والمثل

فكُتبت إليه رداً على تلك الأبيات:-

من ذا يجاريك في قول وفي عمل

وقد بذرت إلى فضل ولم تُسلي

ما لي بشكر الذي نظمت في عنق

من اللآلئ وما أوليت من قبلي



حليسى بخلسى أصبحت زاهية

بما على كل أنسى من حلى عطلى

له احلاقتُ الفُر التي سَفَتِ

ماء الفرات فرقت رِقَّة الغزل

أشبهتُ مروان مَنْ غرت بدائعهُ .

وأنجذت وغدت من أحسن المثل

من كان والسده العصب المهند لم

يُلد من النسل غير البيض والأسلي<sup>(١)</sup>

وقد كانت مريم تعلم بنات الأسر الرافقة في إشبيلية، العلم، والشعر. فخرجت من مدرستها  
الكثيرات من النساء البارعات.<sup>(٢)</sup>

### (٥) الغسانية البجائية.

ومن شاعرات الأندلس المشهورات الشاعرة الغسانية البجائية، نسبة إلى بجانة Pechina. وهي  
كورة عظيمة، مشهورة بإقليم المرية Almeria. عاشت الغسانية. وهذا هو إسمها وليس لقبها، في  
القرن الرابع الهجري، أو العاشر الميلادي، وإن كان ابن سعيد المغربي، يذكرها ضمن شاعرات  
القرن الخامس الهجري، أو الحادي عشر الميلادي. وكانت مشهورة في زمانها بمدح الملوك.

وقد أنشدت قصيدة طويلة، مدح فيها الأمير خيران العامري، صاحب المرية، وتعارض فيها أبا  
عمر أحمد بن دراج أولها:-

لله خير قد أولى بعهدك خيران ... وبشراك قد آواك عز وسلطان

أنجذع إن قالوا مظعن إظعمسان ... وكيف تطبق الصبر وبحسك إن بانو

عهدكم والعش في غل وصلهم ... أتيق وروض الوصل أخضر فينان

١- ابن بشكوال: الصلاة، ص ٦٩٤، ٦٩٥ الحميدى: (أبي عبد الله محمد بن عبد الله الأزدي) جلوة المقتبس في  
ذكر ولاة الأندلس، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦، ص ٤١٢، ٤١٣- الضبي: بغية المتعصب، ص  
٥٤٤، المغربي: فتح القليب، ج ٤، ص ٢٩١، عبد العزيز بن عبد الله: المرأة المراكشية في الحقل الفكري.  
ص ٢٦٧، بالنسبة: تاريخ الفكر الأندلسي، ص ٧٣.

Nykt: Hispano, p. 65.

Ibid: p. 65.

٢- سري: عن نصير، ج ٤، ص ٢٩١.

فيا ليت شعري والفراق يكون هل ... تكونون لي بعد الفراق كما كانوا<sup>(١)</sup>

وتاريخ قصيدة ابن دراج كان في سنة ٤٠٧هـ - ١٠١٧م، حينما استغل خيران الصقلي بالبرية، وظل بها إلى أن توفي سنة ٤١٩هـ - ١٠٢٨م، أي قبل سقوط الخلافة الأموية بثلاث سنوات،<sup>(٢)</sup> فلا شك أن قصيدة الشاعرة كانت خلال هذا التاريخ.

(٦) أم العلاء بنت يوسف الحجازية.

وهي من وادي الحجازة، قرب مدرعة، ذكرها ابن سعيد في كتابه \* المغرب \*، وقال عنها كانت شاعرة تفخر ببلدها، وقيلتها، وأنشد لها شعرا:

لله بمعاني إذا	يهفو به الغضب المدي
فكأنما كف الريا	ح قد اسندت بنداً فبتاً
لولا مناصرة المُدا	مة للصبابة والقفا
لمكفت بين كؤسها	وجعت أسباب المني <sup>(٣)</sup>

وها أيضاً:-

ألمهم مطارح أحوال وما حكمت  
 به الشواهد وأعزوني ولا تلم  
 ولا تكلني إلى عذر أبيه  
 شر العايزر ما يحتاج للكلم  
 وكل ما جتبه من ذلّة فيما  
 أصبحت لي ثقة من ذلك الكرم

١- ابن بشكوال: الصلة، ص ٢٩٦، الحميدى: جذوة اللقيس، ص ١٤١٣ القرني: لفتح الطيب، ج ٤، ص ١٧٠، ١٧١، القضي: بغية اللقيس، ص ٥٤٤، ٥٤٥، ابن سعيد: المغرب، ج ٢، ص ١٩٢.

٢- راجع: ديوان ابن دراج القسطلي. نشر الأستاذ الدكتور/ محمود علي مكي، منشورات المكتب الإسلامي بدمشق، ١٣٨١هـ - ١٩٦١م، ص ٨٦، ٨٧.

٣- ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، حققه وعنى عليه الأستاذ الدكتور/ شوقي حنيف، القاهرة ١٩٥٥، ج ٢، ص ٣٨.

وفي قول آخر:-

كلُّ ما يصدرُ عنكم حزنٌ

وعلىكم يحلِّي الرمنُ

تعطفُ العينُ على منظركم

وبذكركم تُلدُّ الأذنُ

من يمشنْ دونكم في عمره

فهو في نيل الأمان يُغنِ

ويبدو أن هذه المرأة قد تمتعت بقسط وافر من الحرية. ففي بعض المقطوعات الشعرية التي تركتها لنا، ما يدل على أن لديها حرة كبيرة في الرد على سائلها. فقد خطبها يوماً رجل أشيب هام بما عشقاً، وطلبها للزواج، فلم يرقها وكان ردها عليه:-

النَّيبُ لا يُحذِّعُ فيه الصَّبُّ

بَحِيلَةٌ لا تسمعُ إلى نَصَحِي

فلا تكن أجفَل من في السورِ

بيتٌ في الجاهلي كما يُنحَى<sup>(١)</sup>

#### (٧) حدة أو حمدونة بنت زياد المؤدب - الوادي أشية.

وقد عاشت في أواخر القرن الرابع الهجري، أو العاشر الميلادي. نالت شهرة كبيرة حتى وصل صيتها إلى المشرق، من غير أن تذهب إليه ليراعتها في الشعر، الذي حلب لب المشاركة. ويقول ابن الخطيب عنها: إنما من ساكني "وادي الحنة" بقرية "بادي" من وادي آش Guadix في غرناطة. ولذلك لقت بالوادي- أشية.<sup>(٢)</sup>

ويلاحظ أن اسم حمدونة، هو صيغة تكبير لاسم حدة. لأن الواو والنون في آخر اللفظ تدل على التكبير، أو التخميم. وهي مأخوذة من المقطع الإسباني un أو On. في آخر الكلمة للدلالة

١- ابن سعيد: نفس المصدر والجزء والصفحة: المقري: فتح الطب. ج ٤، ص ١١٦٩ هري بوس: الشعر الأندلسي في عصر الطوائف. ص ٣٧٤، ٣٧٥.

٢- ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ج ٢، ص ٤٨٩.

على التكبير أيضاً وهناك أسماء أندلسية كثيرة تأثرت بهذه الصيغة الإسبانية. مثل: زيدون، وخلدون، وحفصون. وعبدون، وتزهون... الخ.<sup>(١)</sup>

وقد لقيت حمة بحساء المغرب.<sup>(٢)</sup> وقد اتخذ شعرها طابع الغزل، ويبدو أنها كانت عاشقة للطبيعة الخلابة للبيئة الأندلسية. فأوقفت أروع أشعارها على وصف جمال تلك الطبيعة الخلابة، حتى شبهها البعض "بأي بكر الصوري" رأس شعر الطبيعة في المشرق "حلب".<sup>(٣)</sup> ويقول عنها ابن سعيد المغربي هي من نساء غرناطة المشهورات بالحسب، والجلالة "العربيات" لها فطن على المعاني العربية.<sup>(٤)</sup>

وقد خرجت يوماً مع بعض صوبحانها إلى غمر، به جداول بين الرياض فسحن ولعن معاً في الماء. فأثر فيها المشهد حتى أنشدت:

أباح الدمعُ أسراى بـوادي

له في الحسن آثار بـوادي

لمن لم ير بطوف بكل روضي

ومن روضي بطوف بكل وادي

ومن بين الظبا مهابة أنسي

سبت لبي وقد ملكك فزادي

عما لحظت تركلده لامرسي

وذاك الامر بمعنى رقادى

إذا سدت زوائرها عليها

وأبست البدر في جنت الرآدى

كأن الصبح مات له شفيق

لمن حزن نـسـر يـلـ بالحداد<sup>(٥)</sup>

١- أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص ١٥٩.

٢- جودت الركابي: في الأدب الأندلسي، ص ٩٨، عبد العزيز بن عبد الله: المرأة المراكشية في الحقل الفكري، ص ٢٦٦.

٣- المراكشي: الذيل والتكملة، ج ٢، ص ٤٨٥، يونس: الشعر الأندلسي، ص ١٤٢، مصطفى الشكعة: الأدب الأندلسي، ص ١٥٣.

٤- المغربي: نفع الطيب، ج ٤، ص ٢٨٩.

٥- الغسي: بعبء التمس، ص ٥٤٦، ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، م ١، ج ٢، ص ٤٨٩، المغربي: نفع الطيب، ج ٤، ص ٢٨٨، ٢٨٧، جودت الركابي: في الأدب الأندلسي، ص ٩٨، ٩٩.

ويذكر بروس: أن سقط رأسها مدينة وادي آش. من أعمال غرناطة كانت من شدة جبال الطبيعة لها. ووفرة المياه فيها. مهبطاً للشعراء الممتازين. ويلاحظ أن اسم وادي آش (أو وادي إيش بالإمالة. وهي لغة أهل الأندلس) تتكون من مقطعين وادي العربية، وآش acci الأيسيرية، وتعني الماء. مما يدل على وفرة الماء فيها.<sup>(١)</sup> ولقد خرجت حمدونة يوماً آخر متوجهة "بالرملة" من نواحي وادي آش. فرأت وجهاً جميلاً وسمياً أعجبها فقلت:-

وقانا لفحة الرُمضاءِ وادٍ

سقاء مضاعفُ الغيثِ العيمِ

حللنا ذَوْحَهُ فحنا علينا

حُسُوَ المُرَضعاتِ على الفطيمِ

وارشغنا على ظمياً زلالاً

ألد من المدامةِ للتدبيرِ

يصلُ الشمسُ آفٍ واجهتنا

فحجَّتها وبأذنُ للتيمِ

بروع خصَّاه خابئة العذارى

فلمسُ جانبِ العقيدِ السَّطيمِ<sup>(٢)</sup>

وقد أحدثت تلك الأبيات مشكلة كبيرة تناقلتها كتب المشرق والمغرب؛ وذلك لأن شاعر مشرق يعرف "بالمنازي" ادعى ألفاً شعره ومن نظمه. وجاء بها يوماً ليعرضها على "أبي العلاء المعري" ت ٤٥٠ هـ - ١٠٥٨ م الفيلسوف والشاعر المشرقي المعروف، فلما عرضها "المنازي" عليه جعله كلما أنشد شطراً، أو المصراع الأول، من كل بيت، سبقه أبو العلاء المعري إلى تكملة المصراع الثاني، الذي هو تمام البيت. كما تم نظمه من البداية عند حمدة. فلما وصل المنازي إلى الشطر القائل "نزلنا ذَوْحَهُ فحنا علينا" فسأل المعري: "حنو الوالدات على الفطيم". فقال المنازي إنفا قلت: "اليتيم" فسأل المعري: الفطيم أحسن. ويبدو أن المنازي حاول التلاعب في

١- محمود مكي: الأعلام الجغرافية ذات الأصول العربية في إسبانيا، مجمع اللغة العربية، القاهرة، ١٩٦٧- بروس الشعر الأندلسي، ص ١٤٣، ١٤٤.

٢- نقري: ملح الطيب، ج ٤، ص ٢٨٨- عند العريوسات، دائرة معارف الشعب، عدد (٦٤) ص ٢٠٢، ٢٠٣.

كلمات بعض الأبيات حتى يصح ملائمتها.<sup>(١)</sup> ويضيف بيرس حول هذا المعنى بأن المعري: عندما سمع أبيات الشاعرة الأندلسية، أحس بالشعر يغمره، وحفظ القطوعة عن ظهر قلب، لشدة إعجابه بها. ولما للغضب الجميل الذي إجتاحه، عندما جاءه الشاعر المنازي الشوقي عام ٤٣٧هـ- ١٠٤٥م، ليراه وينشده هذه الأبيات الجميلة، التي ترتجف راقصة في غنائية بجعلها المشرق. ولكن المعري كان على دراية بما وآخرون غيره دون شك، كانوا على علم بما يحدث، وبكل جديد على الطرف الآخر من البحر الأبيض المتوسط. ولابد أن التبادل الأدبي، كان يتم في سرعة فائقة، فقد ضل المنازي: أنه يستطيع أن يسرق أبيات حمدة، وينسبها لنفسه دون أن يدري به أحد، أو دون أن يناله عقاب. ولكنه وجد أنها العلاء المعري سبقه في معرفة هذه الأبيات.<sup>(٢)</sup>

ومن خلال تلك القصة نرى إلى أي مدى وصلت المرأة الأندلسية المسلمة في البراعة والإتقان، لدرجة إغراء أحد المشاورة من شدة إعجابه بشعرها، أن ينسب لنفسه، وهو متأكد أن أحداً لن يعرفه، مناسباً أن الشعر الجيد والمميز يفرض نفسه على أرجاء المعمورة. وينتشر بسرعة تفوق الخيال. وخاصة في ذلك الوقت، الذي لم تكن وسائل الإتصال ميسورة وسهلة. ولذلك لا يبقى منه ويستمر ويتداول، إلا الجيد.

ومن شعر حمدة أيضاً:

ولما أتسى الواشون إلا فراراً

ومألفهم عدى وعبدك من ثارٍ

وشئوا على اجتماعي كسل غارةٍ

وقلّ حُماني عند ذلك وأنصاري

غزوتهم من مُقَلَّتِكَ وادّفعي

ومن نظمى بالسيف السيل والثار

وقد زعم البعض، أن هذه الأبيات لمحة بنت عبد الرزاق الغرناطية، ولكن كونها حمدة أشهر.<sup>(٣)</sup>

١- القري: نفس المصدر، ج ٤، ص ٢٨٨. ويعلق القري على هذه العبارة بأن الرواية عند المعري كانت "حو الوالدات" بدلاً من "حو المرحعات". جودت الركابي: في الشعر الأندلسي، ص ٩٩.

٢- هري بيرس: الشعر الأندلسي، ص ٤٧؛ وعن المنازي حياته وشعره أنظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ١، ص ٤٤.

٣- ابن الخطيب: الإحاطة، م ١، ج ٢، ص ٤٩٠؛ القري: تلحح الطيب، ج ٤، ص ٢٨٧؛ سالم: دائرة معارف الشعب، عدد (٦٤) ص ٢٠٢.

وكان لخدمة أخت تدعى زينب بنت زياد المؤدب. وإن كانت حمدة قد فاقت أختها زينب. ويذكر ابن الخطيب: عنهما ألفما أديبان من أهل الجمال، والمال والمعارف، والصون، إلا أن حب الأدب، كان يميلهما على مخالطة أهله، مع صيانة مشهورة، ونزاهة موثوق بها.<sup>(١)</sup>

#### (٨) حفصة بنت حمدون الحجازية.

وهي من وادي الحجاز، وقد ذكرها ابن سعيد المغربي في "المغرب" وقال إنها من أهل المائة الرابعة، ومن شعرها:

رأى ابن جميل أن يسرى الذعر جملاً

فكل الورى قد عمهم سبب نعمة

له علق كاخمر بعد امتزاجها

وخسن فما أحلا من حين خلقة

بوجه كمثل الشمسي يدعو بشره

عيوناً ويغشيها بالفراط هيئة<sup>(٢)</sup>

وقد ذكرها ابن عبد الملك المراكشي وقال عنها: كانت أديبة، وعالمة وشاعرة،<sup>(٣)</sup> ولها شعراً تنفرد فيه قائلة:

لسي حبيب لا يستقي لعتاب ... وإذا ما تركته زاد نسيها

قال لي هل رأيت لي من شيء ... قلت أيضاً وهل ترى لي شيئاً

ولها في موضع آخر نظم عبيدها:

يارب إني من عبيد علي ... جمر الغضاء ما فيهم من حبيب

إما جهول أبلسه متعب ... أو فطن من كسدة لا يحيب

١- ابن الخطيب: نفس المصدر، ج ١، ص ٢٠٤، ص ٤٩٠: للقري: نفس المصدر، ج ٤، ص ٢٨٩، ٢٩٠.

٢- القري: فلاح الطب، ج ٤، ص ٢٨٥.

٣- ابن عبد الملك: الذيل والتكملة، ج ٢، ص ٤٨٤.

وقال ابن الأبار: إنما كانت أديبة. عالمة. شاعرة. وذكرها ابن فرج الجاني صاحب الحقائق. وأنشد لها أشعاراً منها قوله:

يا وحشي لأحسني      يا وحشة متصادية  
يا ليللة ودعهم      يا ليللة هي ما هي<sup>(١)</sup>

(٩) راضية مولاة الخليفة عبد الرحمن الناصر.

كثيراً ما كانت المرأة تشارك أباهها أو زوجها شيوخه، أي تتلقى العلم جنباً إلى جنب معهم، ومن أولئك "راضية" مولاة الخليفة عبد الرحمن الناصر. وكانت تسمى أبها "بنجم". وقد أعطها الحكم المستنصر بعد وفاة أبيه. وزوجها "ليبب الفتي". وذهبت هي وزوجها معاً إلى المشرق لأداء فريضة الحج معاً سنة ٣٥٣هـ. وكانا يقرآن ويكتبان معاً، ودخلا الشام ومصر حيث تقابلا مع سفبان القرطبي، وسعياً عليه معاً. وروى عنها أبو محمد بن خزرج، وقال عندي بعض كتبها. وقد عمرت عمراً طويلاً، فقد عاشت بعد المائة بسبع سنوات.<sup>(٢)</sup>

(١٠) خديجة بنت أبي محمد.

وهناك أيضاً خديجة بنت أبي محمد بن سعيد. فقد شاركت أباهها في سماع الشيخ أبي ذر بن أحمد الحروي. وسمعا منه صحيح البخاري وغيره. وذهبت إلى مكة المكرمة بصحبة أبيها، وسمعت هناك من شيوخ مكة. وعادت إلى الأندلس مرة أخرى مع أبيها. ويروي ابن بشكوال: إن والدها أرخ عنها بخط يده في كتاباته.<sup>(٣)</sup>

(١١) أم الحسن بنت أبي لواء القرطبية.

ومن الوافدات إلى المشرق من الأندلس، أم الحسن بنت أبي لواء القرطبية. وكانت صالحة زاهدة فاضلة عاقلة، ذهبت إلى الحج، وسمعت الحديث والفقه في مكة والمدينة، وعادت إلى الأندلس لتعلم ما تعلمه، ثم حجّت مرة ثانية، ثم توفيت بمكة المكرمة. ويبدو أنها كانت لها اهتمامات بالفقه الشافعي، إذ كان من أبرز شيوخها الفقيه الأندلسي بقي بن مخلد ٢٧٢هـ - ٨٨٦م، وهو من كبار الشافعيين في الأندلس.

١- القرطبي: نفس المصدر، ج ٤، ص ٢٨٦، الشكعة: الأدب الأندلسي، ص ١٣٣.

٢- ابن بشكوال: العسلة، ص ٦٩٣، ٦٩٤.

٣- ابن بشكوال: نفس المصدر، ص ٦٩٦.



وقد أعانه نسامح الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط على نشر مذهبه رغم عداة المالكية له ويروي ابن عبد الملك المراكشي: إن هذه العائلة أم الحسن قد سمعت منه وقرأت عليه وصحبته مدة طويلة وكان لها يوم جمعة من كل أسبوع تنفرد به لأخذ العلم عنه في داره، وقرأت عليه بلفظها كتاب الدهور، أشهر مؤلفاته.<sup>(١)</sup>

(١٢) إشراف السويدياء.

وهي جارية أبي المطرف عبد الرحمن بن غلبون القرطبي. وقد أخذت عن مولاهما اللغة العربية وآدابها، ورغم أنها تعلمت منه، وتلفت العلم على يديه إلا أنها فاقته فيما أخذته عنه. وأحسن وأجادت في كل ما تناولته. وكان لها تقدم في علم الفروض. ولذا كانت تشتهر "بالفروضية" وأخذ عنها العروض، أبو داود المقرئ. الذي قرأ عليها أيضاً كتاب الكامل العباسي "المُسَرَّد" (ت ٢٨٦هـ - ٨٩٨ م)، وكتاب الأملاني لأبي علي القالي (٣٠٦هـ - ٩٦٧ م)، وقال: كانت تحفظ هذين الكتابين عن ظهر قلب تنصيحاً حفظاً وتكلم عهما.<sup>(٢)</sup>

والشيء الغريب الذي لاحظته من خلال تلك الدراسة، وخاصة لشاعرات الأندلس المشهورات. أن الكثيرات منهن أصرين عن الزواج. فيبدو أن الزواج لم يكن يشكل حسن هذه الأخيرة. التي قد فتت بها المرأة في عصرنا الحالي، على سبيل المثال. ولعل ذلك يرجع إلى نوع من الاستقلالية تمتعت بها المرأة الأندلسية وبخاصة "المرأة الحرة" التي كانت تحس بأن الزواج الذي لا يقدم لها إضافة جديدة قد تجرعه عنه، وبرضاها، وهناك سبب آخر يقوم على الاستقلال الاقتصادي لعدد كبير من النساء في الأندلس. حيث كانت لمن ثروا من الخاصة سواء كن حواري أو حرار. فربما لتلك الأسباب وجدت ظاهرة كثرة المضربات عن الزواج في الأندلس.

(١٣) أمة الرحمن بنت أحمد الزاهدة.

هي أمة الرحمن بنت أحمد بن عبد الرحمن الزاهدة. وقد كانت تروي عن أبيها. الذي تلفت كل علمها عنه. ويذكر عنها أنها كانت صوامع قوامه وتوفيت بعد الثمانين وكانت بكراً لم تسكن قط. فقد وهبت حياتها للعمل والتعليم.<sup>(٣)</sup>

١- ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة. ج ٢، ص ٤٨٩. بالتحقيق: تاريخ الفكر الأندلسي. ص ٤٠٧.

٢- ابن عبد الملك المراكشي: نفس المصدر، ص ٤٨٠، ٤٨٩.

٣- ابن بشكوال: الفصلة، ص ٦٩٤.

## (١٤) فاطمة بنت محمد اللخمي.

ومن المضربات عن الزواج أيضاً، فاطمة بنت محمد بن علي اللخمي، التي شاركت أختها أبا محمد الياسجي الإشبيلي في بعض شيوخه، وأجازها معاً الشيخ محمد بن قطيس، وأرخ لها معاً في جميع رواياته بخط يده.<sup>(١)</sup>

والحقيقة لقد تعددت الأسماء أعامى، وأصبحت من الكثرة التي أخاف إن ذكرتها كلها أكون قد أطلت في هذا الموضوع.

فقد أصبح الحديث عن معظمهن متشابهاً ومكرر في القيام بنسب الدور التعليمي. وقد حاولت قدر الإمكان التركيز على دور المرأة في تلقي العلوم الأدبية و الفقهية والدينية، وغيرها، ومحاولة إظهار مدى براعة المرأة الأندلسية المسلمة في تلقيها واستيعابها والاستفادة منها، ثم محاولة إخراجها إلى تلاميذهن في أحسن صورة، وتلك بعض الأسماء مع ذكر أهم أعمالهن.<sup>(٢)</sup> فقد ذكرها المؤرخين بشئ من الإنجاز. وإن كان هذا الإنجاز لا يتجع عظم الدور الذي قمن به. ونحتم حديثنا عن شاعرات الأندلس بمسك الختام وهي:

## (١٥) ولادة بنت المستكفي.

أشهر شاعرات الأندلس على الإطلاق، بل أشهر شخصية نسائية في التاريخ الأندلسي كله. فلم تنعم شخصية نسائية أندلسية بمثل تلك الشهرة التي نعمت بها ولادة. ولذا انقسم الباحثون حيالها إلى فريقين أو قسمين: قسم معها، وقسم عليها. ونبدأ بالذين جاءوا عليها، فهم يرون أنها قد خرجت خروجاً غير مألوف في التحرر عن عادات وتقاليد زمانها. وفي هذا الصدد يروى لنا المؤرخ الفرنسي جيسار: أنها قد خرجت عن القاعدة المألوفة والمرسومة لنساء عصرها. وأنما تعتبر الاستثناء وليست القاعدة لنساء عصرها من حيث تمتعها بالحرية الزائدة.

١- ابن بشكوال: المصدر السابق، ص ٦٩١، ٦٩٢، الضبي: (أحمد بن يحيى بن أحمد بن عمرو) بغية المفسر، في تاريخ رجال الأندلس، تراثا، المكتبة الأندلسية، رقم (٦) دار الكتاب العربي ١٩٦٧، ص ٥٤٧.

٢- صفية بنت عبد الرب: كانت أديبة وشاعرة الجهادي: جذوة القدس، ص ٤١٢.

ولفاطمة بنت يحيى: كانت حرة وفاحشة، عالمة، فقيهة، استوطنت قرطبة. ودفنت بالربيع سنة ٣١٩ هـ. ولم يُر على نعل امرأة قط ما رُوي على نعلها. من جنود كثيرة من مرابطيها، ابن بشكوال: نفس المصدر، ص ٦٩١، الضبي: نفس المصدر، ص ٥٤٧. وزيب المربة: كانت أديبة وشاعرة، المقرئ: نفع الطيب، ج ٤، ص ٢٨٤، وأسماء الغامرية: كانت شاعرة بحسنة، المراكشي: التذليل والتكملة، ج ٢، ص ٤٨٠، المقرئ: نفس المصدر، ج ٤، ص ٢٩٢، ورواية التي قرأت بالمرية، القراءات السبع للقرآن الضبي: نفس المصدر، ص ٥٤٦، والشلبية: كانت أديبة وشاعرة محبدة، المراكشي: نفس المصدر، ج ٢، ص

ولذلك فهي لا تمثل نموذج المرأة الحرة في عصرها. والتي كانت بقدر الإمكان تحافظ على التقاليد الإسلامية وأيضاً تمتع بحريتها ولكن بتحفظ وفي حدود ما يسمح به المجتمع الإسلامي الأندلسي.<sup>(١)</sup> ومن منطلق تلك الحرية التي تمتعت بها ولادة في المغرب الإسلامي، حاول الكثير من المؤرخين عقد مقارنة بينها وبين معاصرها في المشرق الإسلامي "عُشبة" بنت الخليفة المهدي العباسي (٧٧٥-٧٨٥ م) (١٥٨-١٦٩ هـ) من حيث أن كلا منهما كانت تمثل نموذجاً للمرأة المتحررة بمعنى الكلمة. وأصبحتا رمزين لعصرين كاملين. ورغم ذلك نالها الإحترام العام الذي حصلت به كثيرات من المولاتي عاصرتاهما.<sup>(٢)</sup>

أما المستشرق الإنجليزي نيكل Nykl فيرى: أن نزوات ولادة لا تكاد تختلف عن الرعات المتحررة بين النساء الجامعيات، ونجمات المسرح والسينما في العصر الحديث، وشبهها أيضاً بالفاقة الجامعية التي تكون لها شخصية منسطة. وتعتق أفكاراً متحررة وتؤمن وتمسك بها.<sup>(٣)</sup>

ومن منطلق تلك الحرية التي تشدق بها كل من تناول سيرة وحياة ولادة زعم الكثير من المؤرخين أنها كتبت بيتين من الشعر بالذهب على طرازها الأيمن:-

أنا والله أصلح للمعالي ... وأمشي مشيى وآتية تيهاً

وكتبت على الطراز الأيسر:-

وأمكن عاشقي من صحن خدى... وأعطى قبلى من يشتهيها

وأول من نقل هذين البيتين ابن بسام في كتابه "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة" ثم توالى النقل بعده في كثير من المصادر. ولكن ابن بسام يبرأ إلى الله من هذا الخبر ويحفظ من عُشبة ناقله. ويعتبر إن كان قد وقع خطأ في النقل، كأنه لا يصدق، أن يكون هذان البيتان قد خرجا من فم ولادة، لما بهما من إباحة واضحة، ويرجح أنهما دُسا عليها. ونلاحظ في بداية حديثه يقول "زعموا" هي كلمة ليست محددة<sup>(٤)</sup> وقاطعة. ومن نقلوا هذين البيتين فيما بعد "أحمد المقرئ التلمساني" صاحب كتاب "نفع الطيب" والذي ينفي بدوره علاقتهما بولادة، ويقول عنها أنها كانت

١- Guichard Structures Sociales, p. 149

٢- Guichard: op, cit, p. 170.

عبد العزيز بن عبد الله: المرأة المراكشية في الحقل الفكري، ص ٢٦٧.

٣- Nykl: Hispano Arabic Poetry, p. 107.

٤- ابن بسام: (أبو الحسن علي بن بسام المستنير) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة تحقيق دكتور/ إحسان عباس، بيروت، لبنان ١٩٧٩ القسم الأول، المجلد الأول، ص ٤٢٩. ٤٣٠. المقرئ: نفع الطيب: ج ٤، ص ٢٠٥. جودت المراكبي. في الأدب الأندلسي، ص ١٦٧.

مشهورة بالصيانة والعفاف.<sup>(١)</sup> وتلك الأراء عن بعض مؤرخي المسلمين في ولادة تلتق مع ما نعرفه. وما وصل إلينا من شعر ولادة الذي لم يكن فيه هذا الفحش، وقلة التوفر.<sup>(٢)</sup>

وينفي نيكل هذه القصة ويقول: إنها غير حقيقية، وأنها نشأت وترعرعت في قرطبة بين النساء الحرائر، اللاتي كن يفرن منها. بدليل تحفظ ابن بسام عند نقل تلك القصة.<sup>(٣)</sup> أما ابن بسام فعدما أرخ لولادة فقد قال عنها: هي " ولادة بنت محمد بن عبد الرحمن الناصري ". وكانت من نساء أهل زمانها، واحدة أقرانها حضور شاهد، وحرارة أوابد، وحسن منظر ومخير، وحلاوة مورد ومصدر.<sup>(٤)</sup>

وكان مجلسها بقرطبة منتدى لأحرار مصر، وفناؤها ملعباً لجياد النظم والنثر، يعشروا أهل الأدب إلى ضوء غرقاً، ويتهالك أفراد الشعب والكتاب على حلوة عشرتها، إلى سهولة حجاجها، وكثرة متاعها، تخلط ذلك بعلو نصاب، وكرم أنساب، وطهارة أثواب، على ألما سح الله لها، وتعمد زللها، أطرحت التحصيل، وأوجدت إلى القول فيها السبيل، بقله مبالها، ومجاهرها بلداها.<sup>(٥)</sup>

ويصفها المستشرق الإسباني ريبيرا: بأنها نابغة عصرها، ذكاء ومهارة وقلرة وبلاغة وفصاحة، ويبدو ذلك كله في أشعارها التي نالت شهرة كبيرة وسعة أكثر مما ناله كثير من أشعار الرجال.<sup>(٦)</sup> ويقول المقرئ: أيضاً نقلاً عن ابن بشكوال والضي: ألما كانت أدبية وشاعرة جزلة حسنة الشعر. وكانت تحايط الشعراء وتساوئ الأدياء وتفوق البرعاء. وقد وصفها الشيخ أبو عبد الله بن مكي بالفصاحة والحرارة والندرة وجزالة المطلق. وألما لم يكن لها تصاون يطابق شرفها.<sup>(٧)</sup>

أما عن بداية شهرة ولادة وأخذها لطريق الشهرة. فيجمع الكثير من الباحثين على أن ذلك بدأ بصورة واسعة بعد وفاة أبيها مباشرة. وهو الخليفة " محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله ابن أمير المؤمنين الناصر لدين الله، والذي تلقب بالمستكفي بالله عقب تولية الخلافة. وكان جدنا عبد الرحمن قد قتله المنصور بن أبي عامر، لسعيه في نيل الخلافة.<sup>(٨)</sup> وبعد وفاة والدها سنة ٤١٦هـ -

١- المقرئ: المصدر السابق، ج ٤، ص ٢٠٥. عبد العزيز سالم: دائرة معارف الشعب، عدد (٦٤)، ص ٢٠٢.

٢- بالثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص ٨١.

٣- Nykl: Hispano Arabic Poetry, p. 107.

٤- ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الأول، المجلد الأول، ٤٢٩؛ بالثيا: لتاريخ الفكر الأندلسي، ص ٨٠، ٨١. عبد العزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة، ج ٢، ص ١٨١.

٥- Ribera y tarrago: Disertaciones, Tomo I, p. 346

٦- ابن بشكوال: الصلة، ص ٦٩٦، تصاون وتسمون من العيب: أي حفظ نفسه منه: الصبي: بغية اللئيم. ص ٥٤٧، المقرئ: تلح الطيب، ج ٤، ص ٢٠٧.

Guichard: op, cit, p. 44,

٧- المقرئ: نفس المصدر، ج ١، ص ٤٣٧

١٠٢٥م، كانت على أبواب السادسة عشر من عمرها طرية الإرادة غفلاً عن التجربة، تشق طريقها إلى الجند خائفة وجلّة، وسط أحداث صاخبة قلقه تبت على فتنة، وتصيح على بركان.

ورسط هذا كله انطلقت، كأنما كانت تنظر موت أبيها حتى تطلق لنفسها العنان وتجاهر بجهاقا الحرة.<sup>(١)</sup> ويبدو أنها ورثت عن أبيها شيئاً من الجرأة والخروج عن المألوف. فيذكر المقرئ: عن أبيها بأنه كان جاهلاً سافطاً، ولكن هي خرجت في كامل الأدب والظرف.<sup>(٢)</sup>

أما أخبار مجالسها أو صالونها الأدبية فهي كثيرة، وقيل فيها الأكثر، وذلك بأن أقامت صالوناً أدبياً يجذب إليه أكبر الشخصيات وأعظم الأدباء شهرة. وقد أظهرت بظرفها واحترافها للضمار، واختلاطها بالسافر بالرجال، وجرأتها في الحديث أحياناً ما يدل بوضوح على أنها تحررت تماماً من كثير من الأوهام وهذا ما جعل بيرس يقول: إن الإسلام الذي تشدد كثيراً فيما يتصل بالمرأة المسلمة بضفة عامة قد ارتفعت قبضته شيئاً في الأندلس، ولا بد أن نسلم بأن المناخ الذي أوجدته البيئة المسيحية، أتاح للإسلام أن يصل إلى مفهوم أكثر تحملاً فيما يتصل بوضع المرأة.<sup>(٣)</sup> ويريد هنري بيرس هنا كما أراد غيره من المستشرقين: أن يرد حرية المرأة المسلمة في الأندلس إلى بيئة مسيحية مؤثرة، بينما يناقشه في ذلك قول مستشرق آخر وهو "آدم متر" عن المرأة في البيئة المسيحية التي كانت لا تخلو من التزمت والتأخر في العصر الوسيط فيقول: "وكانت لا ترى امرأة قط في شوارع إيطاليا وفي إسبانيا. وحتى اليوم لا تخرج المرأة في إسبانيا بعد العاشرة ليلاً بمفردها، وإلا تعرضت للشيئات".<sup>(٤)</sup> ولست مع بيرس فيما ادعاه من تشدد الإسلام مع المرأة. فالإسلام لم يتشدد مع المرأة، إلا بالقدر الذي يحفظ لها عفتها وطهارتها وكرامتها. أما من ناحية أحمد بيرس "للولادة كنموذج لتحرير المرأة المسلمة في الأندلس. فقد كانت هناك نماذج مشرقية أكثر تحملاً مع عدم وجود تلك البيئة المسيحية التي اتخذت ذريعة من معظم المستشرقين لتحرير المرأة الأندلسية المسلمة. وضربنا مثلاً على ذلك "بعلية" بنت الخليفة المهدي العباسي، والتي عاصرت ولادة زعيماً، والتي ذكرها المقرئ، وقارنها بها.<sup>(٥)</sup>

ولقد ترك الخليفة المستكفي بالله ولادته ثروة كبيرة جمعها أثناء خلافته، فأعانتها هذه الثروة على أن تعد في قصرها ندوة للعظماء والعلماء والشعراء، تسم إليهم ويسمعون

١- الظاهر أحمد مكي: دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة، الطبعة الأولى، دار المعارف، ١٩٨٠م، ص ٢٧٥، ٢٧٦، جودت الزكائي: في الأدب الأندلسي، ص ١٦٦، ١٦٧، علي عبد العظيم: ابن زيدون، ص ١٤٠.

٢- المقرئ: المصدر السابق، ج ٤، ص ٢٠٨.

٣- هنري بيرس: الشعر الأندلسي، ص ٣٤٥، ٣٥٠.

٤- هنري بيرس: نفس المرجع، ص ٣٥٠، هامش رقم (١١).

٥- المقرئ: نفس المصدر ج ٤، ص ٢٠٨.

إليها. تساجلهم ويساجلونها. وكانت رنسة الطبع كريمة النفس. شريفة الأصل. جميلة الشكل. وكانت لا تترك أحداً يتصرف في مجلسها. ولا بالدرهم الفرد. فهي تنسب إلى أعرق بيت أموى في الأندلس، فهي أميرة وابنة خليفة.<sup>(١)</sup>

أما عن علاقة ولادة بالشاعر القرطبي أبي الوليد أحمد بن زيدون المحزومي (٤٦٣ هـ - ٥٧٠ م) فقد اتخذت علاقتهما شكل معظم العلاقات الغرامية المعروفة. أولاً: مرحلة الحب والهام. وثانياً: مرحلة الهجر والخصام. ولقد شغل ابن زيدون بولادة ملياً بذلك دواعي قلبه، يستنسى بنور محياها في الليل البهيم.

وكانت هي من الأدب والطرف بحيث تخلص القلوب والألباب. وكان ابن زيدون في بداية علاقته بها آنذاك. شاباً في الخامسة والعشرين من عمره، وبدأت بينهم المراسلات الشعرية الغرامية التي تفيض بالشوق والحنين، فقد ذهب يوماً إلى رياض الزاهرة وتشرق إليها:-  
فكتب يقول:-

إني ذكرتكَ بالزهراء مشتاقاً

والأفلق طلق ووجه الأرض قد راقا

وللنسيم اعتلال في أصالته

كأنما رقى لي فاعسل إشفاقاً<sup>(٢)</sup>

وبذكر لنا ابن بسام. على لسان ابن زيدون قوله: كنت في أيام الشباب هائماً بغاده تسمى ولادة. فلما أعجبها ابن زيدون وأحبه دعته إلى لقاءها في الليل. ليكون سراً لهما، بعيداً عن أعين الناظرين فكتب إليه:-

ترقب إذا جن الظلام زيارتي

فإن رأيت الليل أكنم للمسّر

وي منك ما لو كان باليد ما بدا

وبالليل ما أدجى وبالنجم لم يَسِرْ<sup>(٣)</sup>

١- عمى عبد العظيم: ابن زيدون. ص ١٤٠، ١٤٢. جودت الركابي: في الأدب الأندلسي، ص ١٦٨.

٢- القرطبي: المصدر السابق، ج ٤، ص ٢٠٩، ٢١٠، وراجع باقي القصيدة في النسخ، ص ١٢١٠ صلاح خالص: إشيقية في القرن الخامس الهجري، دار الثقافة، بيروت ١٩٨١. ص ١٧٦، ١٧٧، سالم: قرطبة حاضرة الخلافة، ج ٢، ص ١٨١.

٣- ابن بسام: الذخيرة، القسم الأول، المجلد الأول، ص ٤٣٠، القرطبي: فتح الطب، ج ٤، ص ٢٠٦، سالم: قرطبة حاضرة الخلافة، ج ٢، ص ١٨١، ١٨٢. بوس: الشعر الأندلسي، ص ٣٧٤، بالغا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص ٨١.

ويسترسل ابن بسام حول هذا اللقاء، ويقول: فلما طوى النهار كآفوره، ونشر الليل  
عبره، أقبلت تعدّ كالقضيبي، وردف كالكتيب. وقد أطبقت ترجس القفل على ورد الحجل، فملنا  
إلى روض مديح.<sup>١</sup> وظل مسجج.<sup>٢</sup> وقد قامت رايات أشجاره، وفاضت سلاسل أهازجه، ودُر  
الظل منور. فلما شينا نازها، وأدركت فينا نازها، باح كل منا بجه، وشكا إليه ما بقلبه، وبتنا بليلة  
لجني الأحوان النعور.<sup>٣</sup> وحدث أن غاب عنها فترة فكبت إليه:

ألا هل لنا بعد هذا التفريق

سبيل فيشكو كل صب بما لقي

وقد كنت أوقات التزاور في الشما

أيبت على حجر من الشوق محرق

فأجابها بقوله:

لما<sup>٤</sup> الله يوماً لست فيه بملق

محيالك من أجل السوى والتفريق

وكيف يطيب العيش دون مسرة

وأنى سرور للكتيب المسورق

والأشعار التي قانها ابن زيدون في ولادة كثيرة جداً. ومن أروع تلك الأشعار:

رُدْع الصبر محباً ودُعْكَ

ذائع من سره ما استودعك

يفرغ السن على أن لم يكن

زاد في تلك الخطأ إذ شيعك

يا أبا اليدر سناء وسناً

خَفِظَ الله زماناً أطلعك

١- مديح: مرين بالأزهار.

٢- مسجج: القواء المعتدل اللطيف.

٣- ابن بسام: المصادر السابق، القسم الأول، المجلد الأول، ص ٤٣٠؛ القزويني: المصادر السابق، ج ٤، ص ٢٠٦، ٢٠٧. عبد العزيز سالم: نفس المرجع، ج ٤، ص ١٧٧، ١٧٨، جودت الركابي: في الأدب الأندلسي، ص ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠.

٤- يُسْقَلُ لما الله فلان أي "قبحه ولعنه".

إِنْ يَطْلُلْ بِعَدِكَ لَيْلَى فَلَنُكْمِ

بِتُّ أَشْكُو قِصْرَ اللَّيْلِ مَعَكَ<sup>١</sup>

ولأين زيدون يتغزل في ولادة:

يَا نَازِحاً وَحَمِيرَ الْقَلْبِ مَوَاهِ

أَتَسْئَلُكَ دُنْيَاكَ عِبْدُ أَنْتَ دُنْيَا<sup>٢</sup>

ومن فرط إعجاب ابن زيدون بما وبجمالها. كان يحلو له دائماً أن يصفها بقوله: إِنْ أَلَّهَ قَدْ خَلَقَهَا مِنْ الْقِصَّةِ النَّصَافَةِ. ووضع فوق رأسها تاجاً من الذهب الناصع.<sup>(٣)</sup>

وكان لولادة أيضاً أبياتاً من الشعر، يمكن أن نطلق عليها شعر عتاب أو مداعبة. فقد أرسلت يوماً إلى ابن زيدون. وكان له غلام يدعى "علي" مداعبة تقول له:-

مَا لَإِنْ زَيْدُونَ عَلَى فَضْلِهِ

بِغِيَابِي ظِلْمًا وَلَا ذَنْبَ لِي

يَلْحَظُنِي شِدْرًا إِذَا جِئْتَهُ

كَأَنَّمَا جِئْتَ لِأَخْصَى عَلِي<sup>٤</sup>

وكانت ولادة لغار على ابن زيدون. فقد مال يوماً إلى جارية لها سوداء تسمى "عتبة" فكُتبت إليه معاتبته:

لَوْ كُنْتَ تُنْصَفُ فِي الْغَوَى مَا بَيْنَنَا

لَمْ تَهْجُرْ جَارِيَتِي وَلَمْ تَتَخَيَّرْ

وَتَسْرُكْتَ غِصْنًا مَشْرَأً بِجَمَالِهِ

وَجِئْتَ لِلْغِصْنِ الَّذِي لَمْ يَلْمَرْ

١- ابن بسام: الذخيرة، القسم الأول، المجلد الأول، ص ٤٣٠. ٤٣١. سالم: دائرة معارف الشعب، العدد (٦٤) ص ٢٠٢.

٢- راجع باقي أبيات القصيدة في: ابن سعيد: المغرب، ج ١، ص ٦٥.

٣- صلاح خالص: إشيلية، ص ١٧٥.

٤- المقرئ: الفح الطيب، ج ٤، ص ٢٠٨.



لقد علمت بأنني بـسدر السما

ولكن ذهبت لشقوني بالمشعري<sup>(١)</sup>

تلك كانت أيام المرحلة الأولى في حياة ولادة وابن زيدون. تلتها مرحلة الهجرة والخصام، ثم الانفصال نهائياً. ويرجع الأستاذ/ جودت الركابي، وصوغها لتلك المرحلة، بسبب مشاعر الغيرة التي أحست بها ولادة، وإن كان هذا السبب وحده ليس كافياً لإحداث تلك القطيعة بينهما. وإنما الرأي الأرجح إضمام ابن زيدون لحركة "الجهاورة" فقد ترك في نفسها أثراً سيئاً، وهي ابنة خليفته أموي، فجاءت الغيرة في نفسها تركي شق الوسواس.<sup>(٢)</sup>

أما بالنسبة، فيرجع مرحلة الفراق واللوعة بينهما بأنها كانت من أهم المراحل في حياة ابن زيدون بصفة خاصة. فقد صقلته كشاعر مجيد. وأخرجت منه أحسن أشعاره وبخاصة القصيدة "النونية" المشهورة التي يتشوق إليها فيها، والتي قال فيها المستشرق الإسباني غريسي غومث: "García Gomez" إنها أجمل قصيدة حب نظمها الأندلسيون المسلمون، وعارضها ناس كثيرون ولا زالوا يعارضونها إلى اليوم. ولقد عاش ابن زيدون على الأقل من جانب قصة حب حقيقية مع تلك الأميرة ذات الدم الملكي، ولولا الفراق واللوعة من جانبها ما خرجت تلك "النونية الرائعة" التي أصبحت من أبدع وأروع ما وصل إلينا من الشعر العربي الأندلسي كله، ويرجع ذلك لأنه عاش تجربة فراق مريرة وحقيقية، جعلته يخرج هذه الصفحة الأدبية الفريدة التي أصبحت مشهورة على مستوى الأدب العربي كله.<sup>(٣)</sup>

والقصيدة كتبها إلى ولادة وهي بقرطة وهو ياشيلية، بعد أن هرب من السجن، وذهب إلى إشبيلية، يتشوق إليها ويستدبر عطفها وعهدها، ويؤكد حبه لها ويعتذر عن فراقها بالحطب الذي أَلَمَ به، ويُعلمها أنه ما سلا عنها بخمر، ولا عبا ما بين ضلوعه لها من ملتهب الجمر ويقول فيها:

أصحى السدالي بعيداً عن تدانينا

وناب عن طيب لُقيانا نجافينا

ألا وقد حان صباح الين صباحا

حين فقام بنا للحين ناعينا

١- ابن بسام: الذخيرة، القسم الأول، العهد الأول، ص. ٤٣٠، ٤٣١، ٤٣٢؛ نقري: نفع الطب، جـ ٤، ص ٢٠٥؛ سالم: قرطبة حاضرة الخلافة جـ ٢، ص ١٧٨؛ بروس: الشعر الأندلسي، ص ٣٧٤؛ علي عبد العظيم: ابن زيدون، ص ٤٢٥.

٢- جودت الركابي: في الأدب الأندلسي، ص ١٧٠، ١٧١.

٣- Angel Gonzalez palencia: Historia de la literatura de Arabigo, Española, Barcelona - 1945, p. 25

بنتم ربنا فما ابتلت جوائنا  
 شرقاً إليكم ولا جفت مآقينا  
 نكاد حين تساجبكم ضمائرنا  
 يقضى علينا الأمل لولا تأسينا  
 حالت لفقدكم أيامنا ففدت  
 سوداً وكانت بكم بيضاً ليلنا<sup>(١)</sup>

ويستمر شاعرنا في الأنين والشكوى. ويبدو من ذلك مدى إخلاصه ورغبته في الوصال مع ولادة. التي كانت هي البائدة بالمجران. ويبدو أن ولادة لم تأخذ حب ابن زيدون بالجدية التي أخذها هو، بذليل ألفا وجدت البديل وبسرعة متفلاً في "ابن عبدوس". فقد كتب لها ابن زيدون الكثير من القصائد راجياً متوسلاً متشوقاً مذكراً إياها بسوالف أيامهما، ولكن ولادة كانت تصم الأذان وتغلق القلب، ويبدو أن ابن زيدون قد قاضت وزادت والتهبت لديه مشاعر الحب بعد هجر ولادة له، فكتب لها قصيدة أخرى رائعة في تلك المرحلة عرفت بالقصيدة "الكالورية" ويقول فيها:

بما التعلل لا أهل ولا وطن ... ولا نديم ولا كنس ولا سكن<sup>(٢)</sup>

١- ديوان ابن زيدون: شرح الأستاذ/ كرم البستاني، دار صادر، بيروت ١٩٦٤م، ص ٩، ١١٠، ابن سعيد: المغرب، ج ١، ص ٦٦، ٦٧ عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص ٥٧، المقرئ: فطح الطيب، ج ٣، ص ٧٥، ج ٤، ص ٢١٠، ٢١١. عبد العزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس. دراسة تاريخية عمرانية أثرية في العصر الإسلامي. جزآن، مؤسسة شباب الجامعة ١٩٨٤ م، الاسكندرية، ج ٢، ص ١٧٨، صلاح خالص: إشبيلية، ص ١٧٧، بالثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص ٨٣.

وراجع القصيدة التولية كاملة في:

- ١) ديوان ابن زيدون، ص ٩، ١٠ وما يليهما.
- ٢) ابن سعيد: نفس المصدر، ج ١، ص ٦٩، ٦٨.
- ٣) عبد الواحد: نفس المصدر، ص ٥٨، ٥٩.
- ٤) المقرئ: نفس المصدر، ج ٣، ص ٢٧٦، ٢٧٧ وما يليهما.
- ٥) بالثيا: نفس المرجع، ص ٨٣، ٨٤.
- ٦- عبد الواحد المراكشي: نفس المصدر، ص ٥٨. وراجع باقي القصيدة في نفس المصدر، ص ٥٨، ٥٩. الركاوي: في الأدب الأندلسي، ص ١٧٢، ١٧٣. إميليو عرسبة غوث: الشعر الأندلسي، ص ٢٢.

ويعلق الأستاذ غربية غوث على القصيدة التونية قائلًا: إن ذوقها قريب جداً من الذوق العربي، وإن كانت تنقصها الألوان الباهرة التي نعرفها في الشعر العربي، وهي تضم هنا وهناك أبيات ناصعة كأنها الثمر الأبيض القديم.<sup>(١)</sup>

ووجدت ولادة في "ابن عبدوس" السلوي بعد مرور مشاعرها لابن زيدون فدخل الرجلان في صراع على حب ولادة، إلى أن رحل ابن زيدون عن قرطبة، فخلت الساحة لابن عبدوس. ويحدثنا ابن بسام: بأنها مرت يوماً "بابن عبدوس" وكان وزيراً في ذلك الوقت، وأحد أبرز رجالات قرطبة. وكان يقف أمام داره يعمل في بركة تولدت من كثرة هطول الأمطار، وبها شيء من أقدار، وقد نشر أبو عامر كميته، وتظهر في عطفه، وحشد أعوانه فقالت له مرتجلة:

أنت الخصب<sup>(٢)</sup> وهذه مصرٌ ... فتدققسا فكلاكما بحر

فركته لا بحر حرفاً ولا يرد طرفاً.<sup>(٣)</sup>

وفي فترة التنافس بين الرجلين على حب ولادة علم ابن زيدون أن ابن عبدوس يستفهم في مراسلاته لولادة سيدة<sup>(٤)</sup> تزينه شاً وتصف غناه وجماله، فاستغل هذه الواقعة وكسب إلى ولادة رسالة الغزلية "وهي عبارة عن رسالة كتبها ابن زيدون على لسان ولادة، موجهة إلى ابن عبدوس فيها هجوم عليه وتشهير به أخذاً عليه لجوئه إلى إرسال امرأة لاستمالة ولادة إليه، وترغيبها فيه ونلاحظ في هذه الرسالة أن الغيرة العنيفة هي الباعث الأول على كتابتها. وأن عاطفته المتأججة هي التي أملت لها عليه دون حساب للعاقبة.

ويدعو أن ولادة قد فوجئت بذلك الرسالة، فزادها هجراناً لابن زيدون وبرغم المؤدة التي كانت بين الرجلين قبل دخولهما حياة ولادة، فقد أفسد هذا الحب والتنافس ما كان بينهما من مسودة وصداقة.<sup>(٥)</sup>

١- غربية غوث: المرجع السابق، ص ٢٢.

٢- الخصب: هو واثق من قسبل الرشيد؛ ابن سعيد: المغرب، ج ٢، ص ٥٢٠.

٣- ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الأول، المجلد الأول، ص ٤٣٢؛ المقرئ: فتح الطب، ج ٤، ص ٢٠٨.

٤- هذه العادة كانت منتشرة في الأندلس، وفي إسبانيا المسيحية أيضاً، وأطلق على هذه السيدة اسم "القسودة" وبالإسبانية Alcahuete.

٥- بالتحديد: تاريخ الفكر الأندلسي، ص ٨١، ٨٢. علي عبد العظيم: ابن زيدون، ص ٤٠٩. وللمزيد من التفاصيل حول تلك "الرسالة الغزلية" أصلها، ومغزاها الأدبي، وأسلوبها ومكانتها في الشعر العربي، ما لها وما عليها من ميزات ومآخيل راجع: علي عبد العظيم: نفس المرجع، ص ٤٠٩. وما يليها؛ وبالطبع: نفس المرجع، ص ٨٢.

وقد ألحش ابن زيدون في هجائه لابن عبدوس إلى درجة أن الرسالة أنت بنتيجة عكسية. ونفرت ولادة من ابن زيدون. وجعلت ابن عبدوس يحكم موقعه وتقله السياسي يدبر له ويكيد له، ويثير عليه خصومه السياسيين حتى جعلهم يدبرون له قمة تبديد أموال. كان قد أوعن عليها فرج به في السجن. وإذا كانت هذه الرسالة قد أوجدت فجوة بين ابن عبدوس وولادة، فقد كانت السبب في فراق نهائي بين ولادة وابن زيدون.<sup>(١)</sup> وبعد حادثة هذه الرسالة انقطعت الإخبار عن ولادة وعن صلتها بابن زيدون. الذي فر إلى إشبيلية واستقر فيها في خدمة المعتمد بن عباد. ينمنا أنزوت هي عن الناس مقتصرة على صلتها بابن عبدوس، حتى أدركتها المنية.<sup>(٢)</sup> وقد عاشت ولادة عمراً طويلاً يتعدى الثمانين عاماً، ويذكر ابن بسام: أن ابن عبدوس لم يتركها ولم يغفل عن مراسلتها ومواصالتها فكان يحمل كلها، ويرفع ظلماً، إلى آخر حياتها وحياته.<sup>(٣)</sup>

ومالت ولادة سنة ٤٨٠ هـ - ١٠٨٧ م، وهي عذراء لم تتزوج قط ويقول ابن بشكوال: أما ماتت سنة ٤٨٤ هـ - ١٠٩١ م ليلة مقتل الفتح بن محمد بن عباد.<sup>(٤)</sup> والحقيقة: أن تلك الأميرة الأموية عاشت حياة حافلة مليئة بالمتناقضات. فقد أخذت قسراً وقرأت من التحرر سبقت به عصرها بأكثر من ألف سنة. وهذا ما جعل أخبارها تملأ صفحات المؤرخين والباحثين الحديثين.

لقد أحدثت ثورة وتحرراً على التقاليد التي وجدت نفسها محاطة بها، وأثرت أشعارها وأخبارها الحياة الفنية والأدبية والاجتماعية إلزاً كبيراً.

وكانت السبب المباشر في خروج أروع قصائد الأدب العربي على لسان مرثدا ابن زيدون. وقد فرضت نفسها فحراً على سطح الحياة القرطبية غير مبالية أو مهتمة بما يمكن أن يحدثه هذا من تلويث لسمعتها.

وفي رأي: أنها كانت لديها من الثقة في مواهبها وشخصيتها وثقافتها أكثر مما كان لدى البعض من الثقة فيها، بدليل أن معظم المؤرخين المسلمين الذين تحدثوا عنها وأكدوا على نقطتين هامتين، وهما الصيانة والعفاف. فبرغم هذا التحرر غير المألوف، إلا أنها لفتت وغلفته بصيانة وعفاف لم يغفلهما المؤرخون.

١- بالنسبة: المرجع السابق، ص ٨٢، جودت الركابي: في الأدب الأندلسي، ص ١٧٢، علي عبد العظيم: نفس المرجع، ص ٤١٤.

٢- بالنسبة: نفس المرجع، ص ٨٤.

٣- ابن بسام: الذخيرة، القسم الأول، الجزء الأول، ص ٤٣٢.

٤- ابن بشكوال: الصلة، ص ٦٩٦، القتيبي: بغية المنتسب، ص ٥٤٧، القرطبي: نفح الطيب، ج ٤، ص ٢٠٧، سائل: دائرة معارف الشعب، العدد (٦٤) ص ٢٠٢، جودت الركابي: في الأدب الأندلسي، ص ١٦٦، ١٦٧.

واعتقد أنها يجب أن تكون مثلاً للمرأة المسلمة المستترة التي تصرف بحرية، ولكن من منطلق تقاليد وعادات ديننا الحنيف.

ومن منطلق تلك الحرية المستترة لولادة. كان لها الحق، أو أعطت هي لنفسها الحق في اختيار من تحب، وفي رفض هذا الحب عندما لا يتفق مع مبادئها، وبدون إبداء الأسباب لرفضها بأن هذا حق من حقوقها.

ولكن الحقيقة التي لا جدال فيها أن ولادة لم تدخل دائرة الضوء والشهرة من منطلق قصة الحب التي كانت بينها وبين ابن زيدون فقط، وإنما من منطلق أنها أديبة جزلة وشاعرة مجيدة، باعتراف كل من نقلوا عنها أشعارها، وإذا ما أمعنا السمع والبصر في كل تلك الأشعار. نرى أننا أمام شاعرة موهوبة ومجيدة ومسكنة بوزارة من مفرادتها اللغوية.

ويبدو أن لنفسها الزائدة في نفسها هي التي جعلتها تحجم عن الزواج طيلة عمرها، لعدم إحتياجها مادياً ومعنوياً أعطائها الثقة الزائدة في أنها يمكن أن تعيش حياتها بدون رجل، دون أن تحس أن هناك شيئاً ينقصها، وهنا يمكن أن اختلف مع من أطلقوا عليها امرأة " رجّلة" أو مسرجلة، فهي ليست كذلك، وتلك الأشعار الرائعة لا تخرج إلا من امرأة كاملة الأتونة، ولكنها والقة إلى حد بعيد من قدراتها وثقافتها.

ولا يغوتني قبل أن أحسم الحديث عن ولادة. أن أشير إلى صديقة لها كانت أديبة وشاعرة هي الأخرى وهي:

#### (١٦) مهجة بنت التياي القرطبية.

ومهجة من الشاعرات اللاتي عاصرن ولادة، بل كانت أقرب صديقة لولادة ولزامتها زمناً طويلاً. وكانت خفيفة الروح، فأنشدت يوماً شعراً تداعب فيه ولادة تقول فيه:

ولادة قد صرت ولادة ... من غير بغلٍ فُضح الكائن<sup>(١)</sup>

حككت لساناً مريم لك<sup>(٢)</sup> ...

وقد أظهرت مهجة خشونة في علاقتها مع الرجال مثل ولادة، ووجدت في ولادة أستاذة جيدة يحذري لها في علاقتها بالجنس الآخر.

١- راجع تكملة الشطر في ابن معبد: المغرب، جـ ١، ص ١٤٣. لأن الجمال لا يسمح بذكره، لأنه من الأدب للكشف؛ انظر: فتح الطبيب، جـ ٤، ص ٢٩٣.

ويقول بروس عهدها: إن هؤلاء النساء يمكن أن نطلق عليهن "المسرحيات" لأنهن أعطين قليلاً من القلم، ولكن يتمثل فيهن لطف الأندلسيات ومعاتنهن.<sup>(١)</sup>

ويرى الأستاذ الدكتور/ عبد العزيز سالم، أن "مهجة" قد ذهبت في استخدام فُحش القول واستخدام الألفاظ البذيئة العارية، وهذا ما جعلنا نضعها في مصاف الشاعرات السوقيات.<sup>(٢)</sup>

### ثانياً: الكاتبات والمعلمات والخطاطات والمذهبات:

لم يقتصر دور المرأة الأندلسية في العصر الأموي على المشاركة في ميادين الفنون والآداب واتقان الموسيقى والغناء، بل تعداه إلى القيام بالأعمال الإدارية والكتابة أيضاً، ومثال ذلك في عصر الإمارة، رقية بنت الوزير قمام، وكانت كاتبة للأمير الشر بن محمد،<sup>(٣)</sup> أما في عصر الخليفة عبد الرحمن الناصر، فقد أورد ابن عبد الملك المراكشي، ثلاثة أسماء، لثلاث جاريات أخذ منهن الخليفة كاتبات وهن "مُرْن" و"كتمان" و"زُمرْد" ويصف الثانية بالقهيم، والثالثة بأنها كانت كاتبة حاذقة.<sup>(٤)</sup>

وجاء بعد الخليفة عبد الرحمن الناصر، ابنه وولي عهده الحكم المستنصر، وكان له دون أمراء بني أمية اهتمام خاص بالعلوم، ووجد في المرأة خير معين له على نقل ونسخ أمهات الكتب ليضعها في مكتبته الخاصة. وكانت أشهر شخصية نسائية على أيامه هي "أبْنَى" ويقول عنها ابن بشكوال: إنما كانت خطاطة بارعة حاذقة بالكتابة، نحوية وغروضية وشاعرة بصورة بالحساب ومشاركة في العلم، ولم يكن في قصره أنبل منها، وتوفيت سنة ٣٨٤هـ - ٩٩٤م،<sup>(٥)</sup> بينما يقول ابن عبد الملك المراكشي: إنما توفيت في سنة ٣٧٦هـ - ٩٨٦م. ونرى من خلال تلك الشخصية إلى أي مدى تنوعت مواهب المرأة وعلومها في شتى المجالات، ويمكن أن نطلق عليها بلغة عصرنا الحالي "مديرة مكتبته" وعقلية موسوعة في المجال العلمي.

وهناك شخصية أخرى من عصر الحكم المستنصر وأوردها ابن عبد الملك المراكشي أيضاً، ولكن بدون ذكر اسمها فيقول: "إن الحكم المستنصر بالله، أخرج من قصره يوماً، وصيفة غلامية ذكية، كاتبة فهمة، فأمر أبو القاسم سليمان بن أحمد بن سليمان الأنصاري، المعروف

١- بروس: الشعر الأندلسي، ص ٣٧٤.

٢- عبد العزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة، ج ٢، ص ١٨٢.

٣- ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة، ج ٢، ص ٤٨٥.

٤- ابن عبد الملك: نفس المصدر، ج ٢، ص ٤٩٢.

٥- ابن بشكوال: الصلة، ١٦٩٢، المضي: بقية النص، ص ٥٦؛ للمراكشي: الذيل والتكملة، ج ٢، ص ٤٩٢.

بالرصاص، وبالقصاص. أن يعلمها التعديل وخدمة الإسطرلاب، وما يجري مجرى هذا، فقبلت ذلك. وخدمته، وساعدتها فريحتها في ذلك، فأتقنت علمه في ثلاثة أعوام أو نحوها، فأعجب بها الحكم وألزمها خدمة ما تعلمته في داره، ووصل معلمها سليمان بصلة كبيرة وحافظ له الكرم.<sup>(١)</sup>

وفي عهد هشام المؤيد بن الحكم المستنصر بالله، ظهرت في قصر الخلافة شخصية أخرى هي نظام الكاتبة وكانت بليغة مدركة، مُمِيرة للرسائل. ومن أبرز ما خطته يدها الخطاب الذي جدد فيه المنصور بن أبي عامر، ولاية العهد في الحجابة من بعده لابنه المظفر عبد الملك، وذلك في شوال ٣٩٢ هـ - ١٠٠٢ م. فقد كان الخطاب من إنشائها، وأسلوبها، ولولا أنها بلغت درجة كبيرة من البلاغة والفصاحة والتعبير، ما عهد إليها المنصور تلك المهمة الكبيرة.<sup>(٢)</sup>

وشخصية أخرى في قصر خلافة هشام المؤيد هي "أميرة الكاتبة" جارية وحظية الحسين بن يحيى. فقد عهد إليها المهدي بن محمد بن هشام بن عبد الجبار، بحراسة هشام المؤيد، عندما قام عليه بالقلاب، وخلعه وعزله في دار مالكة الحسين بن يحيى.<sup>(٣)</sup>

هذا فيما يختص بما ورد عن الكاتبات، أما المعلمات وهن النساء اللاتي مارسن مهنة التعليم أو التدريس للنساء، فقد كن يلقين أولاً دروساً في مدارس خاصة بهن مثلهن مثل الرجال. وذلك لإعدادهن إعداداً جيداً لتلك المهمة. ويذكر ريبا: إن كثيرات منهن كرسن وقصهن للدراسة والتعليم وبرعن فيها.<sup>(٤)</sup>

ولقد زادت العناية بتنظيف الجوارى وتعليمهن زيادة عظيمة حتى كن يدرسن إلى جانب فنون الغناء والموسيقى التي جاءت في المرتبة الأولى، علوم اللغة وفنون الأدب، بل وفي أحيان كثيرة دراسة الطب وعلوم التشريح والطبقة أيضاً.

ولم يكن التعليم وفقاً على الجوارى فقط، بل حرصت الحرائر على ألا يكن أقل من الجوارى في العلم والثقافة.<sup>(٥)</sup> وتلقت المرأة العلوم التي قدمت إليها في عصرها. وبرز من بينهن المحدثات، والفقيحات، والمنصوبات، والواعظات والمرشدات اللاتي قضين معظم أوقافهن في الإرشاد والوعظ وتقديم ما استطعن تقديمه من أعمال البر والخير والاحسان.<sup>(٦)</sup>

١- المراكشي: المرجع السابق، جـ ٢، ص ٤٩٥.

٢- المراكشي: نفس المصدر، جـ ٢، ص ٤٩٣.

٣- المراكشي: نفس المصدر، جـ ٢، ص ٤٨٣.

٤- Ribera y tarragó: Disertaciones y Opúsculos. Tomo I, p.346.

٥- علي عبد العظيم: ابن زيدون، ص ٧٠.

٦- عمر رضا كحالة: المرأة في عالمي العرب والإسلام، جـ ٦، ص ٦١.

وقد نعت من بين هؤلاء الأحداث " غالية " بالغين المعجزة " بنت محمد المعلمة الأندلسية. وكانت تروى عن أصبع بن مالك الزاهد. وقد ذكرها مسلمة بن قاسم في كتاب النساء له.<sup>(١)</sup>

وبدأت المرأة تأخذ مكانها البارز في المجال العلمي، بدءاً من القرن الثالث الهجري أو التاسع الميلادي، وحتى القرن الثامن الهجري أو الرابع عشر الميلادي. وقد عكس في تلك الفترة بصدق الأفكار الاجتماعية والدينية التي كانت سائدة في عصرهن، كما اشتهلن بالعلوم اللغوية والدينية. وبرز منهن كثيرات.<sup>(٢)</sup>

أما في مجال النقل والنسخ، فقد وصل الأمر بين النساء إلى حد التفاحر والباهي بمجال الخط. فيروى: إن إحدى النساء أرسلت رسالة إلى صفيّة بنت عبد الرزي، وكانت أديبة وشاعرة موصوفة بحسن الخط، تعيب خطها وتصفه بالسوء، رداً على تفاخرها بخطها. فما كان من صفيّة. إلا أن أرسلت لها تلك الأبيات. تدافع بها عن مهارتها في الخط فقالت:

وعائيت خطي فقلت لها القصري

فسوف أريك الدر في نظم أسطرى

وناديت كفى كي تمسود بخطها

وقربت أقلامى وورقى ومحسرى

فخطت أبيات ثلاثاً نظمها

ليبدو لها خطي وقلت لها انظري

ورغم ما وصلت إليه صفيّة المذكورة من مكانة أدبية رفيعة جعلت المؤرخين يقولون عنها، إلا أنها ماتت صغيرة دون الثلاثين سنة (٤١٧هـ - ٣٧٠م).<sup>(٣)</sup> ويدلنا هذا على الاهتمام الكبير بتعليم المرأة حتى تصبح على تلك الدرجة من المهارة والإجادة، وهي في تلك السن المبكرة.

ويحدثنا: ابن خلدون عن اهتمام خلفاء بني أمية بتحسين الخطوط بقوله: بعد أن إسمعت الأمصار والعمران، وانفسح مجال الأعمال، صار لتعليم الخط شأن عظيم، وخاصة في المغرب والأندلس. وكان لتعلم تلك الخطوط قوانين خاصة يلقنها المعلم للمتعلم وذلك بمحاكاة الخط الذي يحفظه المعلم على المتعلم.

١- ابن يشكوك: القصص، ص ١٦٩١، الضي: بقية الشمس، ص ٥٤٦.

٢- هنري بيرس: الشعر الأندلسي، ص ٣٧٣، ٣٧٤.

٣- ابن يشكوك: نفس المصدر، ص ١٦٩٣، الضي: بقية الشمس، ص ٤٤٣.



وكان يبدأ أولاً بتعليم كل حرف على إنفراده. ثم يصور بعد ذلك جملاً<sup>(١)</sup> ويسترسل ابن خلدون حول هذا المعنى بقوله: "وَتَمَيَّزَ مُلْكُ الْأَنْدَلُسِ بِالْأُمُويِّينَ، فَصَيَّرُوا بِأَحْوَالِهِمْ مِنَ الْخِصَارَةِ وَالصَّنَاعَةِ وَالْخَطُوطِ، فَصَيَّرَ صَنَفَ خَطِّهِمُ الْأَنْدَلُسِيَّ كَمَا هُوَ مَعْرُوفُ الرَّسْمِ هَذَا الْعَهْدِ، وَذَلِكَ تَغْيِيراً لَهُ عَنْ سَائِرِ الْخَطُوطِ فِي الْأَمْصَارِ الْإِسْلَامِيَّةِ"<sup>(٢)</sup>.

وبلغ الإهتمام بالنسخ والمكتبات أوجّه في عهد الحكم المستنصر. فقد كانت المكتبة في عصره تسير على نظام دقيق وراق للغاية. وتضم أساماً مختلفة إحداها للنسخ، ويعمل فيها مهرة الخطاطين من فتيان وفتيان. وكانت الرئسة لمن تدعى "لبنى" السالفة الذكر<sup>(٣)</sup>.

ويذكر/ ليفي بروفنسال: إنه في عهد رافع حقاً مثل عصر الحكم الثاني، وأثناء ولايته للعهد والنصرافه في أوقات فراغه، بعد أن كبر ونضجت سته لاتخاذ جماعة كبيرة من الشاسخ رجالاً ونساء، ينقل عليهم ويجعل من مكتبة الخلافة كزاً لا يعادله كز، ولا يقدر بمال<sup>(٤)</sup>.

وقد حكى ابن ليافض في تاريخه: أن الربض الشرقي من قرطبة كان به مائة وسبعون امرأة كلهن يقمن بكتابة " القرآن الكريم " وتخطيطه بالخط الكوفي، ووضعه في مصاحف كل نسخة مستقلة عن الأخرى<sup>(٥)</sup>. هذا في ناحية فقط من نواحي قرطبة، وهي الربض الشرقي فما بالنا بقية الأرباض العشرين الأخرى التي تحيط بمدينة قرطبة، بل والمدن الكثيرة الأخرى التي تضارع قرطبة إهتماماً بالعلوم والثقافة. فلا بد أنها حذت حلو قرطبة، وإن لم تأخذ نفس الإهتمام في النقل والكتابة للمؤرخين، على اعتبار أن قرطبة هي العاصمة وبؤرة الضوء.

ومن المفضل أن المصاحف كانت تنسخ بخطوط أخرى غير الخط الكوفي، بدليل أن ابن خلدون قد حصص الأندلس بخط مستقل لها غيزت به عن بقية الأمصار الإسلامية. ومن أشهر الشخصيات اللآتي نلن شهرة عريضة في مجال الخطوط " قسليم " جارية الأمير عبد الرحمن الأوسط ويقول عنها المقرئ: أنها كانت أديبة حسنة الخط، راوية للشعر، حافظة للأخبار، عالمة بضروب الأدب<sup>(٦)</sup>.

١- ابن خلدون: المقدمة، ص ٤٤٥.

٢- ابن خلدون: نفس المصدر، ص ٤٤٨.

٣- الطاهر مكي: دراسات عن ابن حزم، ص ٦٤، ٦٥.

٤- ليفي بروفنسال: سلسلة محاضرات عامة، ص ٩، عبد العزيز بن عبد الله: المرأة المراكشية، ص ٢٦٧.

٥- بروس: الشعر الأندلسي، ص ٣٧٣، علي عبد العظيم: ابن زيدون، ص ٧٥.

Ribera y Tarragó: op, cit, T.I, p. 346.

٦- المقرئ: نفع الطبيب، ج ١، ص ٣٥٠.

وعائنه بنت حمد غرصية. كانت حسة الخط. وتكتب مصحف والدفاتر. وجميع الكتب. واعنى بالعلم. وكان لها خزانة علم كبيرة. وثروة اعانتها على الإنفاق في مجال العلم<sup>(١)</sup> ولطيفة بنت زكريا بن عبد الله الكاتب المعروف "بالشيلاري". وكانت كاتبة جزلة. وخطاطة ماهرة. وعمرت عمراً طويلاً. عاشت أربعة وتسعين عاماً. كتبت فيها مئات الكتب الطوال ويبدو من اسم والدها "الكاتب" أنها ورثت منه هذه المهنة وتوفيت سنة ٤٢٧هـ - ١٠٣٧م. ودققت عقيرة أم سلمة. وماتت بكر لم تتزوج قط.<sup>(٢)</sup>

وذكر ابن حبان في المقتبس "البهاء". وكانت خيرة نساء بني أمية من أهل الزهد والعبادة والفضل. وكانت تكتب المصاحف وتوقفها أو تحبسها على المساجد. وينسب إليها مسجد البهاء من مساجد ريف الرصافة. وتوفيت في صدر دولة عبد الرحمن الناصر. في سنة (٣٠٥هـ - ٩١٨م) فلم يتخلف أحد عن جنازتها.<sup>(٣)</sup>

"ومرثنة" كاتبة خليفة عبد الرحمن الناصر. وكانت حاذقة ومن أخط النساء. وكانت أديبة أيضاً.<sup>(٤)</sup> وكذلك طونة بنت عبد العزيز وتكنى "بهيبة". وكانت حسة الخط، فاضلة، ذينة. وقد نقل ابن بشكوال: عنها على لسان ابنها أبو بكر بن القسام المقرئ.<sup>(٥)</sup>

وكانت مهنة الكتابة والتخطيط تحتاج بالضرورة إلى تجميل تلك المصاحف والكتب وتزيينها، ولذلك عملت كثيرات منهن في عملية تذهيب المصاحف والكتب القيمة على الأغلفة بتلك الخطوط الذهبية الرائعة. ويذكر بروس أن "حجر الشاذلة" وهو المستعمل في عملية التذهيب، يكثر في جبال قرطبة. وكانوا يصنعون كذلك الخابري من الأبنوس.<sup>(٦)</sup>

هذا فيما يخص بدور المرأة في مجال الكتابة والتعليم والخط والتذهيب. وهو كما رأينا دور كبير بلاشك عمل على إثراء الحياة العلمية في كل المدن الأندلسية، وعمل أيضاً على إبراز كثير من النماذج المشرفة والمشرقة للمرأة الأندلسية المسلمة التي استحضت عن جدارة، أن يذكرها ويؤرخ لها العديد من المؤرخين بل ويفخرون بأعمالها.

١- الطاهر مكي: دراسات عن بن حزم. ص ٦٦.

٢- ابن بشكوال: قصص. ص ٦٩٤. الطاهر مكي: نفس المرجع. ص ٦٥.

٣- ابن حبان: المقتبس من أنباء أهل الأندلس، تحقيق الدكتور/ محمود علي مكي، القاهرة ١٩٧١ م. ١٣٩٠هـ. ص ٦٣. هامش رقم (٩٦).

٤- ابن بشكوال: قصص، ص ٦٩٢. الضي: بغية المقتبس، ص ٥٤٦.

٥- ابن بشكوال: نفس المصدر. ص ٦٩٦. ٦٩٧.

٦- هنري بروس: لشعر الأندلسي. ص ٣٥٠.

وما كانت سُرّة الأندلسية المسلمة. لتصل إلى هذا الإبداع الأدبي العنبي إلا بالخرية التي قدمت إليها. فما كان منها إلا أن اغتنمتها. ولم تسرَ فليهما. فأخرجت منها روالع خلدقا، ووصلت من خلالها إلى كل ما ترجموه وتمناه.

لما عرفنا قط مجتمعاً من المجتمعات السابقة أو اللاحقة على فترتنا التي نلزم لها، عمل على كبت المرأة وتحييتها عن الحياة العامة. وأخرجت منه بنموذج واحد من النماذج المذكورة، ويسد لنا هذا على وجود اهتمام غير عادي بالمرأة الأندلسية المسلمة. وتعليمها.

ثالثاً: شعر الحب والغزل عند المرأة ما قالت، وما قيل فيها:

لتلق مع بيرس في قوله: " أن الأندلسيين قد ذهبوا بعبادة المرأة إلى حد بعيد. ويمكن القول بحق أن الشعراء لم يصنعوا شيئاً أكثر من أنهم عكسوا أفكار مجتمعهم. وإذا كان لكثير من معاصريهم أفكار مختلفة، فقد استطاعوا تحت تأثير هذا الأدب المصفى دائماً، أن يعدلوا عن رأيهم، وموقفهم إزاء المرأة. وأن يقروا في أنفسهم علاقتهم بها لكي يجعلوها تبرز أكثر صفاتها الطبيعية. وإن شئت الدقة لشكون أكثر لطنة، وألطف رقة، وأروع قديماً. وأصلق ذوقاً. ولنا الحق في أن نطلق كلمة "عفيف مهذب" Courtoisie. أمام هذا الاحترام القروسي للمرأة. والحق أننا نجد في تقدير المرأة هذا عناصر كثيرة من الحب المهذب، لقاء حار ووفاء وإخلاص وحلاوة ومهجة وحب، ولكن عبثاً نبحث عن التناقض بين الحب المهذب، والحب المثلي. الذي عرفه العصر المسيحي الوسيط فلا نجد له أثراً في الأندلس".<sup>(١)</sup>

ويسترسل بيرس: في أن النماذج الممودة لهذا الحب في إسبانيا الإسلامية، لم تكن ميزة للطبقة المتميزة، بل إنما تجد في كل مكان، وهي الظرف أو الأدب وكلاهما قديم. وكانا يعبران في القرون الإسلامية الأولى، بعد أن استقرت حضارة الإسلام في المدن، عن فكرة الأناقة الطبيعية. وقد امتزجت بالمعارف المتصورة.<sup>(٢)</sup>

وقد أسهمت كثيرات من نساء الأندلس، وأظهرن مشاعر الحب المتنبهة في أشعارهن، وأسهمت في دعم الفكرة التي أخذناها عن حرية المرأة الأندلسية المسلمة.

وكل هؤلاء الأندلسيات، أظهرن شخصية حازمة، بل ومبادأة في التعبير عن أنفسهم وما كن ليعلن ذلك. بهذا الوضوح والصرامة لو لم يكن المجتمع يسمح له بذلك.

إن نتاج عصرهن شاملاً. ومن الحق أن المكان الذي احتلته، يعود فضله إلى الجانب الأكبر، لعبادة الرجل هن. وهي عبادة ما كان يمكن لها أن تصل إليها دون جهد من جانبها بزيادة ثقافتها، وصقل

١- بيرس: المرجع السابق، ص ٣٧١.

٢- بيرس: نفس المرجع، ص ٣٧٢.

فكرها، والسامى بنفسها. "إلى هنا ونحن مع بيرس ولكن لسنا معه في رده، حرية المرأة المسلمة، كلية إلى البيئة المسيحية. حتى أثرت عليها. وقد سبق أن أهدينا الرأي، ودأ عليه في هذا الموضوع."<sup>١</sup>

وعلى الجانب الآخر، يذكر بالنسبة: إن الأندلسيين لم يروا في المرأة غير الجمال الحسي الملموس، أي الرودف الثقيل والمختصر التحيل. فقد أحمل الشعراء بصفة خاصة والأندلسيين بصفة عامة، قلة فهم الجانب النفسي من حياقتها، ولم يعودوا يستشعرون من جمالها غير الحسي الملموس أي الصورة (الدرهم، ١٣٠).

وهذا الرأي به كثير من التحني على المرأة الأندلسية المسلمة، ونظرة المجتمع إليها. فلور كان صحيحاً، لانزوت المرأة بعيداً عن العيون، والمشاركة، وما ساجلت الرجال، تطارحهم شعراً بشعر، حول أدق تفاصيل العلاقات بينهما، وخاصة "الحب". وكان ابن حزم، أبرز من كتب عن الحب العميق البعيد عن الزوات والشهوات، الملئ بالشفافية، والتميز، بعيداً عن الإسفاف وطوق الحماسة، ملهى ومزدهم ينماذج لهذا الحب الجميل، في كل صوره ومراحله.<sup>(٢)</sup>

ومن الأشعار التي تغزلت بالمرأة، ما ذكره الأمير الأموي الحكيم الرضي (١٨٠ - ٢٠٦ هـ / ٧٩٦ - ٨٢٢ م) ابن هشام الرضا. ويبدو أن الأمير الحكيم لم يرث عن أبيه هشام "الرضا" نزعه الدينية، إذ أن أشعار الغزل التي تركها تبي عن أنه رجل عليم بالنساء، ومحب لمن، فيقول في أحد أشعاره:

فُضِبَ من البان ماست لوق كُشبان  
وَلَسِّنَ عني وقد أزمعن هجران

١- بيرس : المرجع السابق ، ص ٣٧٦.

٢- العائلات الإسبانية المغرمة، لا تسمح حتى اليوم، بخروج نساتها بعد العاشرة ليلاً بمفردهن. وإلا تعرضن للشبهات، التي تحط من سمتهن. ويبدو أن ذلك أحد تأثيرات البيئة الإسلامية، التي ملازت موحدة إلى اليوم.

هنري بيرس : نفس المرجع، ص ٣٥٠.

٣- بالنسبة تاريخ الفكر الأندلسي، ص ٤٤.

٤- راجع : فصول كتاب طرق الحماسة.

وكذلك مقال الأستاذ/ عبد المجيد تركي: فقد قام بعمل دراسة لموقف ابن حزم

من المرأة الأندلسية في مقالة بعنوان:-

Abd el Magid Turki: ( Stvdia Islamica ) Femme privilégiées dans le Système D'Ibn Hazm, paris, 1997, p. 76 - 79.

وقد تناولنا معظم هذه الآراء، من خلال فصول الكتاب. كل رأى في موضعه مناسب.

لَا تَدْرُكُهُنَّ عَجَلِي فَأَعِزَّنِي عَلَى

الْمُهْجَرَانِ حَتَّى عَمَلَا مِنْهُنَّ هِمَانِ

مَنْ لَكَ نِي مِثْلَكَ مِنْ ذَلَّتْ عَزِيَّتُهُ

لِلْحَبِّ ذُلٌّ أَسِيرٌ مَوْلَانِي عَانِ

مَنْ لِي بِمُغْتَصَبَاتِ الرُّوحِ مِنْ بَدَنِ

يَغْصِنِي فِي الْهَوَى عَزِيٌّ وَمُلْطَانِي<sup>(١)</sup>

وقد أنشد هذا الشعر. لثاني حبس جوارى من جواريه عليه، واعراضهن عنه، وبعد مدة عدن إليه. وواصلته فأنشد يقول: -

نَلْتُ كُلَّ الْوَصَالِ بَعْدَ الْعِبَادِ

فَكَأَنِّي مَلَكْتُ كُلَّ الْعِبَادِ

وَتَسَاهِي السُّرُورِ إِذَا نَلْتُ مَا لَمْ

يَعْنِي فِيهِ تَكَالُفُ الْأَحْبَادِ<sup>(٢)</sup>

وللحكم الربضي أيضاً في موضع آخر يتغزل فيه أيضاً:

ظِلٌّ مِنْ فَرْطِ حُبِّ مَمْلُوكٍ

وَلَقَدْ كَانَ قَبْلَ ذَلِكَ مِلِكاً

إِنْ يَكَا أَوْ شَكَا الْهَوَى زَيْدٌ ظُلُمًا

وَبُعَادًا يُدْنِي حَتَامًا وَشَكَا

يَعْمَلُ الْحَدَّ مَا لَأُفُوقَ تَرْبٍ

وَهُوَ لَا يَرْتَضِي الْخُرَيْسَ أَوْ يَكَا

هَكَذَا يُحَسِّنُ التَّذَلُّلَ لِلْحُبِّ

إِذَا كَانَ فِي الْهَوَى مَمْلُوكًا<sup>(٣)</sup>

١- مجهول: أخبار مجموعة، ص ١٢١، ١٢٢. ابن عذاري: البيان المغرب، ج ٢، ص ٧٩، القري: فتح الطيب، ج ١، ص ٣٤٢، ٣٤٣، العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص ١٣٥، عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم، ص ٢٢٧.

٢- ابن عذاري: نفس المصدر، ج ٢، ص ٧٩.

٣- مجهول: أخبار مجموعة، ص ١٢٢، ابن عذاري: البيان المغرب، ج ٢، ص ٨٠.

ولعبد الرحمن الخامس ابن هشام بن عبد الجبار "المسظهر بالله" (٤٩٤ هـ - ١٠٢٣ م)،  
الذي أحب ابنة عمه، وتسمى "حببة" أم الحكم بنت سليمان "المتعين بالله". فقد كتب يوماً إلى  
أم حبيبته وتدعى "مُشفق". ويبدو أنها كانت تعارض هذا الحب، وهذا الإرباط، فأرسل لها  
قائلاً:-

وجالبة عُذراً لتصف رهبي

وتأني المعالي أن تُجيز لها عُذراً

يُكَلِّفُهَا الْأَهْلُؤْنَ رَدَى جَهَالَةٍ

وهل حَسَنَ بالشَّمْسِ أن تمنع البُردا

وماذا على أُمِّ الحَبِيبَةِ إذ رأت

جَلَالَةَ قَسَدِي أن أكونَ لها صِهراً<sup>(١)</sup>

وله في قصيدة أخرى يتغزل في ابنة عمه "حببة" ويمدح، ويفخر بنفسه أمامها، ويميز لها  
محاسنه، مرغياً إياها فيه فيقول:

حَامَةً نَيْبِ النَّبِشِينَ<sup>(٢)</sup> وفلست

فَطَرْتُ إِلَيْهَا مِنْ سَرَاهِمِ صَقَرَا

تَقْلِيلُ الثَّرِيَا أن تكونَ لها يداً

ويرجوا الصَّباحَ أن يكونَ لها نحراً

وإني لَطَعَانُ إذا الحَيْلُ أَقْبَلَتْ

جوانبها حتى ترى جُودَها شُقْراً

وَمُكْرِمٌ حَيْفَى حين ينزول ساحتى

وجاعِلٌ وفرى عند سائله وفراً

ويذكر عبد الواحد المراكشي: إن القصيدة طويّلة، ولكنه لم يأت منها سوى بطلك الأبيات.<sup>(٣)</sup>

ويصور لنا أبو عبد الملك مروان بن عبد الرحمن الناصر الملقب "بالأمير الطليق" (ت ٤٠٠ هـ - ١٠٠٩ م) بعض معاني الحب في أشعاره الرقيقة فيقول:

١- ابن هشام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الأول، المجلد الأول، ص ٥٥، ٥٦.

٢- النعشميون: هم بنو عبد شمس.

٣- عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص ٣١.

شعرٌ بهتزُّ في دعص ثفا

يحتي منه فؤادي خُرقاً

باسم من عقد دُر حِلصه

سلبه لئلا العنقا

فتأهى الحسن فيه إنما

بحسن العنق إذا ما أورقا

رقاً منه اختصر حتى خلصه

من نحول شَفَقٌ قد عشقنا<sup>(١)</sup>

وخادم بن عبد العزيز بن المنذر، في حبه لجاريته "عاج": -

ولاني عداي أن أزورك مطبق

ويساب منيع بالحديد مُضب

فإن تعجبي يا عاج لما أصابني

ففى ريب هذا الدهر ما يُتعجب

كم قالل أنج وبكك سألماً

ففى الأرض عنهم مسرّاد ومذهب

فقلت له إن الفسّرار مزلّة

ونفسى على الاسواء أحلى وأطيب

سأرضى بحكم الله فيما يتوسى

وما من قضاء الله للمرء مهرب

فمن يلك أمسى شامئاً بسى فاتة

سينهل من كأسى وشيكاً ويشرب<sup>(٢)</sup>

١ - إمبليو عرسية غوث: الشعر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٥٢، ص ٤٧.

٢ - ابن عدّارى: البيان المغرب، ج ٢، ص ١١٦.

وتلك الأشعار كانت بعض ما قيل من شعر الغزل في المرأة. وهنا لم تلف المرأة مكتوفة الأيدي  
حيال تلك الأشعار التي قيلت فيها، بل كان لها رد. وأحياناً كان الرد صريح وبدون تورية، وبالقائظ  
وعبارات فيها حرارة العاطفة وصدقها. وتبدأها بتلك الأشعار لحمدته بنت زياد المؤدب وتقول:

ولما أبى الواشون إلا فرقتنا

وما هم عندي وعندك من ثأرٍ

وشنوا على أسمعنا كل غارة

وقل حاتي عند ذاك وأنصاري

غزوتهم من مقلبك وأدعني

ومن نفسي بالسيف والسيل والنار<sup>(١)</sup>

ولخفصة بنت حمدون الحجازية (من وادي الحجازة) Guadalajara تقول:

يا وحشتي لأحبي

يا وحشة متصادي

يا ليلة ودعهم

يا ليلة هي ما هـ<sup>(٢)</sup>

ولها أيضاً:

لي حبيب لا ينسني لعصاب إذا ما تركته زاد نيبها

فقال لسي هل رأيت من شيبه قلت أيتها وهل تري لي شيبها<sup>(٣)</sup>

وهند جارية أبي محمد عبد الله بن مسلمة الشاطبي، وكانت أديبة وشاعرة وكتب إليها يوماً أبو  
عامر بن نسيق . يدعوها للحضور عنده ومعها " آلة العود " قائلاً:-

يا هند هل لك في زيارة فية

نبدوا غاروم غير شرب السلسلي

١- يونس: الشعر الأندلسي، ص ٣٧٥.

٢- المقرئ: فتح الطيب، ج ٤، ص ٢٨٦.

٣- المقرئ: نفس المصدر، ج ٤، ص ٢٨٥. ولخمدت أشعار أخرى. أوردتها المقرئ في نفس الجزء، والصفحة.



سمعوا البلايل قد شنوا فذكروا

نعماتِ عودك في النقييل الأولِ

فكُتبت إليه في ظهر الرقعة:

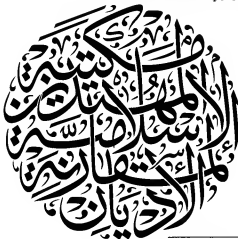
يا سيداً حاز الغُلا عن سادة

خُصم الأنوف من الطراز الأولِ

حسبي من الإسراع لحسوك أني

كُنت الجواب مع الرسولِ المُنسلي<sup>(١)</sup>

تلك كانت بعض الأشعار التي قالها المرأة الأندلسية، تبادل الرجل غزلاً بهزلاً. وحاولت قدر الإمكان عدم الإطالة، أو الإطناب، في هذا الشعر، مكثفة بتلك النماذج الشعرية الجميلة المعبرة، التي لا تخرج من أفواه نساء مكدمات، غير متعلّقات، أو غير مشاركات، في الحياة العامة والخاصة، بل من أفواه حرة مطلقة ليس عليها قيود. وقبل كل ذلك متعلّمة، ومتفقة، حتى بلغت هذا المستوى الرفيع من الرقي والقيمة، وهذا ما حاولنا إثباته.



١ - القري: فتح العلي، ج ٤، ص ٢٩٣، ٢٩٤.

## الفصل الرابع.

### دور المرأة في المجال الاقتصادي في الأندلس.

أولاً: المهن والصناعات التي مارستها المرأة الأندلسية:

أمثلة: [ الأطعمة - الأشرطة - الخزف - النسيج -

التوليد - الحياطة ..... وغيرها ]

ثانياً: - أسواق الجوازي وأنواعهن.

ثالثاً: - حالة الجوازي الاقتصادية.

رابعاً: - مكانة المرأة في المجتمع الإسلامي الأندلسي بصفة

عامة.

### أولاً: المهن والصناعات التي مارستها المرأة الأندلسية: -

أعطى الدين الإسلامي للمرأة المسلمة حرية كاملة للتصرف في أملاكها وجعل لها دمة مالية منفصلة بعيدة تماماً عن مال الزوج، فإن شاءت وهبت، وإن شاءت تصدقت من مالها الخاص، بدون الرجوع إلى الزوج أو مشورته. وقد حفظ لها القرآن الكريم حقها في الإرث، في آية صريحة لا تحتمل التأويل فيقول الله تعالى: ، وللرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون، وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون، مما قل منه أو كثر نصيباً مفروضاً<sup>(١)</sup>.

وما نريد أن نؤكد عليه هنا أولاً: أن الدين الإسلامي والشرعة الفراء حفظت لها حقها الاقتصادي. بحيث تكون لها ملكيتها الخاصة، وبخاصة في الإرث، ولا تكون لتلك الملكية وصاية من أحد.

ولكن المستشرق الفرنسي جيسار: يرى شيئاً آخر من خلال تناوله للحال الاقتصادي في حياة المرأة المسلمة في كتابه " الحياة الاجتماعية " فيقول إن جميع الباحثين وعلماء الاجتماع يؤكدون على أن " النظريات القرآنية " أو " الأحكام الشرعية الإسلامية " لم تقدم الكثير للوضع الاقتصادي والنادي للمرأة. وذلك لأن الحالة الاجتماعية السائدة وقتئذ كانت تعارض فكرة الاعتراف بالاستقلال الفعلي للمرأة. وفي الأوساط القروية يمكن أن تحرم المرأة من الميراث بمنتهى البساطة، أما في الأوساط المتمدنة فجند أن الأحكام الشرعية يمكن أن تطبق أكثر من القرى، وأن تحفظ للمرأة ممتلكاتها.

١- سورة النساء: الآية. رقم (٧).

أما في حالة توريث المرأة إرثاً شرعياً فعلياً، بحيث تحصل على ممتلكاتها، فقد جرت العادة. وكذلك التقاليد والعادات الاجتماعية، على عرقلة قدرة المرأة على ممارسة حقها الفعلي في المصروف في حقوقها، حيث أن كل تصرف يتطلب إجراءات عامة، تلزم المرأة أن تلجأ إلى من يقوم عنها بتلك الإجراءات وهذا الشخص بالطبع سيكون أحد أفراد عائلتها الذكور. ومن هنا يتضح التصدي الاجتماعي السافر لتطبيق القواعد الدينية الصريحة، التي لا تتماشى مع ما اكتسب من عادات وتقاليد، أي التعارض بين الشرع والتقاليد، والعادات الموروثة والتي يرجعها جيشار، إلى تقاليد قبلية قديمة.<sup>(١)</sup>

وقد قضى عليها الإسلام وكسر شوكتها وألغى بعض العادات القديمة السيئة. ولكن بعض الأوضاع الاجتماعية، كانت راسخة الجنون، بحيث لم يستطع الإسلام إستئصالها من جذورها تماماً.

أما الأساليب التي لجأ إليها المسلمون المتمدنون من أجل تغيير القوانين التي تضمن حق المرأة في الميراث، فكانت بعيدة كل البعد عن المطالبة بحرماتها من حقها في الميراث. غير أنها كانت دائماً تؤدي إلى نفس النتيجة. وهي الممسك ولو جزئياً بالتقاليد القبلية القديمة، والدخيلة على الإسلام.<sup>(٢)</sup>

والحقيقة: أن جيشار قد أصاب إلى حد بعيد في عرض تلك القضية، ولكن لسنا معه، في أن الأحكام القرآنية. لم تقدم للمرأة ما يحفظ لها حقها. أما عن ضياع حقها الاقتصادي في الإرث، فالعيب هنا ليس في التشريع الإسلامي. وإنما في القائمين على تطبيق تلك الشرائع، واستكانتهم، وعدم تصديهم بشكل حاسم لحفظ حقوق المرأة.

ومن منطلق تلك الآراء السابقة لجيشار: يستمر في موضع آخر حول عدم قدرة المرأة على التصرف في مالها، حتى بعد أن تركة بالفعل إلى عدة عوامل، منها: عدم قدرة الكليات منها، وبخاصة المسكينات، الأميات، أو قليلات الثقافة والمعرفة، البعيدات عن الحياة وتجارتها، والمربوبات سواء بإرادتهن أو بدونهن.<sup>(٣)</sup> وعامل آخر: يرجع إلى سطوة وسيطرة رجال العائلة، والتسليم من جانب المرأة بالأمر الواقع، الموروث من عادات وتقاليد قبلية. أصبحت واقعاً ملموساً، بل واحتلّت أحياناً بالتشريعات الدينية.

وعامل ثالث هو نظرة المجتمع دائماً للمرأة، على أنها كائن ضعيف يحتاج دائماً إلى من يصرف له شئونه.

-١ Guichard (Pierre): Structures Sociales, Orientales et Occidentales dans l'Espagne musulmane, paris, 1977. p. 76.

-٢ Guichard: op. cit. p. 76.

-٣ Guichard: op. cit. p. 75.

واخليفة: أن جيشار قد تحمل كثيراً على المرأة المسلمة، من خلال تلك الآراء، بل يتناقض نفسه وعلى صفحات نفس الكتاب. فيضرب لنا مثلاً بالسيدة خديجة زوج الرسول ﷺ قبل وبعد ظهور الإسلام. وكف ضربت لنا أروع مثل في إدارة أملاكها وممتلكاتها الاقتصادية.

فقد تمتعت تلك السيدة، باستقلال اقتصادي ومادي كبير، سواء في العصر الجاهلي، أو بعد ظهور الإسلام. وكانت لها ثروة ضخمة تديرها بنفسها.<sup>(١)</sup>

وأود أن أشير هنا: إلى أن قدرة المرأة اقتصادياً، ترجع إلى أشياء كثيرة منها قدرتها، وشخصيتها، والوسط الذي تعيش فيه، والطريقة التي تربت بها، أو عليها، سواء بالاستقلال، أو الاعتماد على غيرها، في تدبير شؤونها. وأيضاً مدى القدر الذي نالته من التعليم. والثقافة، ومعرفة شؤون الحياة.

والذي لا حدال فيه، هو أنه عندما يصل المجتمع بالمرأة إلى درجة معينة من الثقة بالنفس، وببقائها، وعن حوصلها، نستطيع في تلك الحالة، أن نقول: إنها قادرة على إدارة شؤونها بصرف النظر عن الزمان والمكان.

هذا فيما يختص بوضع المرأة المسلمة اقتصادياً بصفة عامة، أما عن وضعية المرأة الأندلسية في هذا المجال. فيرى الدكتور الأستاذ/ صلاح خالص أن دورها الاقتصادي لم يكن مؤثراً، بينما يبرز تأثيرها بصورة أكبر، وبوضوح أكثر في مجال الحياة العلمية والأدبية. ويرجع عدم تأثيرها اقتصادياً إلى امتلاك الرجل لكل وسائل الإنتاج، ومسبات العيش كالأرض والعقار.<sup>(٢)</sup>

وهذا الرأي مردود عليه؛ لأننا من خلال دراستنا لدور المرأة الأندلسية اقتصادياً، رأينا محاذج مشرفة لكثيرات منهن كانت هن حافنات الاقتصاد المستقلة. وكانت هن ملكية خاصة سواء في العقارات كالأرض والخوانيت أو في غيرها.

ويبدو أن الأستاذ الدكتور/ صلاح خالص. قد تأثر في هذا الصدد برأي أستاذه المستشرق الفرنسي/ ليفي بروفنسال: الذي يرى أن المرأة الأندلسية كانت لا ملكية لها، بل لم تمتنع بأي قدر من الحرية. وأن علاقتها بزوجها كانت تأخذ شكل علاقة السيد بالخدام المطيع الدليل، الذي لا يستطيع أن يناقش أي رأى، ويستطيع زوجها أن يتصرى بما شاء من الجوراري عليها وقمنا بشاء.

وقد شمل قوله هذا كل النساء الحرائر والجوراري، بل وعامة الناس وعاصمتهم.<sup>(٣)</sup>

١- Guichard: op, cit, p. 75.

٢- صلاح خالص: إشبهية في القرن الخامس الهجري، دراسة أدبية تاريخية لشؤون دولة بني عباد، دار الثقافة، بيروت، لسنة ١٩٨١، ص ٩٠، ٩١.

٣- Lévi Provençal: Histoire de l'Espagne Musulmane, T. III, p. 402

Sanchez Albórniz " Claudio": La España Musulmana, T. I, p. 294

وهذا الرأي أيضا به بعض المبالغة. فكما ذكرنا من قبل: أن "الاندلسيين لم يذلوا النساء. كما فعل غيرهم في المجتمعات الأوروبية المعاصرة لهم، بل انغم على حد تعبير هنري بيرس: ذهبوا بعبادة المرأة إلى حد بعيد. فقد كانت هي الزوجة والابنة والخصية، أما فيما يختص بعبادة الصري، وحقوق الرجل في الصري يأتي عدد دون الرجوع إلى المرأة وبخاصة الزوجة، فذلك العادة لم يوجدها الإسلام، وإنما كانت موجودة بالفعل. وإن كان الإسلام لم يعمل على القضاء عليها سريعا بل تركها كسي تدرب في المجتمع الإسلامي. وتخفى مع مرور الأيام كما هو حادث اليوم.

والواقع: إن المرأة الأندلسية أسهمت بصورة واضحة في الحياة الاقتصادية الأندلسية. ودلينا على ذلك ما ذكره الفقيه الأندلسي الكبير ابن حزم في كتابه "طوق الحمامة" فقد قدم لنا في لحات خاطفة وسريعة ألواناً من المهن والصناعات التي أسهمت فيها المرأة الأندلسية، أو التي كانت خاصة بها وحدها، فقد عملت مربية ومدرسة لأبناء الطبقات العليا. التي ينتمي هو إليها. فقد اعترف هو شخصيا بأنه تربي في حجور النساء. ونشأ على أيديهن، وتعلم منهن القرآن والفقه، وإجادة الخط، وتدقيق الشعر. أما المهن الأخرى التي أوردها ابن حزم، فهي الطيبة، والحجامة، والسراقة، والدلالة، والماشطة، والناتحة، والمغية، والكاهنة والمستخفة، والصانعة في الغزل، وما أشبه ذلك.<sup>(١)</sup>

وكان من الطبيعي، أن تبرز المرأة في مجال صناعة الأطعمة والأشربة. فيذكر بيرس: أن الشعراء بصفة خاصة اهتموا بتلك الناحية، ووصفوا الكثير من المأكولات، واهتموا أيضا بالمواد التي كانت تصنع منها الحلويات. وذكروا أن الذين يقومون بإعدادها فييات الملوك وحدهم. ويصنع العجينة من أرقي أنواع الدقيق وأنظفها، وبعد أن تنضج تقطع وتقدم. ومنها ما يقطع بالأيدي بدون سكين لطراوته ونعومته.<sup>(٢)</sup>

وعرفت قصور الخلافة في ظل دولة بني أمية، وكبار رجالات الدولة وظيفة أخرى للمرأة وهي "الراشدة". وهي ما يمكن أن نطلق عليها بلغتنا الحديثة "مديرة المنزل". وقد أشار الأستاذ/ليني بروفسال: في حديثه عن وظائف القصور، وطبقات أهل الخدمة فيها إلى بعض المهن. ويبدو أيضا من بعض نصوص المتقيس لابن حيان في القطعة الخاصة بالأميرين/ الحكم بن هشام (الربضي) وابنه عبد الرحمن (الأوسط) أن قصر الأمير كان يشتمل على عدد كبير من القاتمات بالخدمة من النساء، ترأسهن كهرمانة، وتلوها الوصيفات والطاهيات، ثم "الراشدات، أو المديرات".

ويبدو من النص أن الراشدات، كن ذوات صلة مباشرة بالأمير، والقائمات على رأسه. وكانت هن الرئاسة على من يدعوهن المؤرخ "خُرَنَات". وهي وظيفة أخرى. وهن الأميرات اللاتي يعهد إليهن حفظ الخُرَاس المختلفة مثل خزنة الكسوة. وغيرها.<sup>(٣)</sup>

١- ابن حزم: طوق الحمامة في الألفة والألاف. تحقيق الدكتور/ الطاهر أحمد مكي. الطبعة الرابعة. دار المعارف. ١٩٨٥. ص ٥٨. الطاهر مكي: دراسات عن ابن حزم. ص ٢٦٨، ٢٦٩.

٢- هنري بيرس: الشعر الأندلسي. ص ٢٧٢.

٣- ص حيان: المتقيس من أبناء أهل الأندلس. نشر وتغني. الدكتور/ محمود علي مكي، القاهرة ١٣٩٠ هـ. ١٩٧١. ص ٢٥٩ هامش رقم (٧٩).

ويرى ابن حزم: أن عمل المرأة ضروري، فلا بد أن يكون لها مغزل للصوف يشغلها وإن كانت تهربه لضرورة عملها به شيء من الطرافة، فيقول: إن النساء إذا جلسن بدون عمل فهن لا يفكرن، إلا في الجماع ودواعيه، والغزل وأسبابه.<sup>(١)</sup> والحقيقة: لا أعرف ما الذي حدا بابن حزم لتعبير موقفه من المرأة رغم اعترافه، بثقلها، وتعليمها، ورعاية عقلها، وفضلها عليه في تعليمه، وصفه منذ نعومة أظفاره.

ويدهش رأى ابن حزم هذا، حول علاقة الرجل بالمرأة، وكيف يشغلها دائماً، ولا يكون لها تفكير سواه، أن كثرات من نساء الأندلس. وخاصة المشهورات منهن كالثعالب مثلًا. قد أضربن عن الزواج. ومحبض لإزدقن ورغم ذلك أخرجن لنا روائع من الشعر والأدب العربي، ولم يجلسن فارغات البال إلا من الجماع والغزل ودواعيها.

ومن المهن التي امتنعتها المرأة وبرزت فيها، أعمال غزل ونسج الصوف والقطن والكسبان وغيره. فقلما نجد بيتاً أندلسياً ليس به منسج؛ وذلك للاحتماء تلك المهنة لطبيعة جلوس المرأة للغترات طويلة داخل موها. فكان لابد من إيجاد وسيلة لقضاء أوقات الفراغ من جهة، ومن جهة أخرى للمساعدة في نفقات البيت وعمل الملابس للزوج والأولاد، وفي حالات أخرى للإتفاق كلية على نفقات البيت والأولاد. فقد أورد لنا المقرئ: مثلاً رائعاً لزوجة أموية مكافحة، ماتت عائلتها في إحدى الغزوات، وترك لها أولاداً صغاراً تربيتهم، وهي زوجة "بكار الروائي". وقد أبت عليها كرامتها كأمرأة مسلمة. وزوجة حرة طلب المساعدة من أي فرد.

فقد زارها صاحب السقط،<sup>(٢)</sup> عندما علم بخروج زوجها إلى الجهاد، وهو يعلم أنه ليس لديها عائل، لكي يطمئن عليها وعلى أولادها، ورغب في تقديم المساعدة لهم، والنظر في شئونهم. فمما كان منها إلا أن ردت عليه بحسم بأنها لا تحتاج المساعدة، وأنها تعمل في مهنة "الغزل" بسداخل بيتها، ولها عجزوز تذهب بغزلها إلى السوق، وتصرف شئونها، وأبت منه المساعدة المادية أو المعنوية.<sup>(٣)</sup>

وقصة أخرى أوردتها الحشني: حول عمل المرأة في الغزل أيضاً. فيحدثنا عن القاضي "المصعب بن عمران الحمذاني" أحد من تولى القضاء للأمير هشام بن عبد الرحمن "الرضا". فقد أرسل إليه

١- ابن حزم: طرق إخمادة، ص ٧٩.

٢- والمعروف أن صاحب "السقط" أو "السقطي" هو باع الرذئ من المتاع، وهي أحماء أو أمعاء الحيوانات المذبوحة.

٣- المقرئ: نفع الطبيب، ج ٣، ص ٣٣٩، ٣٤٠.

وقد ذكر المقرئ: تلك القصة في صفحات طويلة، بداية من صداقة صاحب السقط "بكار السروان" مسروراً بخروج بكار للجهاد بموته، وتلقى زوجته خبر وفاته. وصمودها في تربية أولادها، واجمع القصة كاملة في المقرئ: نفس المصدر، ج ٣، ص ٣٣٤ وما يليها.

يوماً رسولاً يطلبه لمقابلة الأمير هشام في أمر ما، فأتاه الرسول فوجد زوجته تسج في منسج لها. والمصعب جالس معها بين يدي المنسج يعمل لها الوشائع<sup>(١)</sup> ففتحت المرأة ياصبعها في المنسج ثم قالت لزوجها، تذهب وترد القطساء عليه، كما رددته على أبيه من قبل. ثم ترجع لعملك في وشائع المنسج.<sup>(٢)</sup>

ويدو من تلك القصة الطريقة، أن أعمال النسج في المول لم تكن حكراً على النساء فقط. بل كان الرجل يمكن أن يساعد فيها أحياناً، والمرأة في طبقة العامة بصفة خاصة. كانت إلى جانب عملها الأساسي في تدبير شئون المول وتربية الأطفال. تقوم بمساعدة زوجها في كسب العيش. فحدثنا كتب الحسبة عن العديد من النساء الأندلسيات وكيف كن يعملن في غزل الصوف وبيعها في سوق محصص لتلك السلعة، ويعرف بسوق الغزل.<sup>(٣)</sup>

فيقول ابن عبد الرؤوف: في رسالته للحسبة أن النساء كن يقمن إلى جانب غزل الصوف بغزل القطن والكثان.<sup>(٤)</sup> وبعض النساء كن يقمن "بالندليس" والغش فيما يصنعه، كما تحدثنا كتب الحسبة عيّن. وذلك برش الكثان بالماء ووضعها في الأماكن الرطبة الندية قبل بيعها مباشرة، وذلك ليكتسب رطوبة ونداوة ويزيد وزنه عند البيع. وكان الحسب ينهي الرجال والنساء على السواء ممن يقومون بتلك الأفعال، بل ويأمرهن بتسبب الغزل، ووضعها في الشمس، ومن يساهوا الحسب، ويعود ليقبلها مرة أخرى، يعرض نفسه للعقوبة.<sup>(٥)</sup>

وكانت للنساء سوق خاصة بهن يجتمعن فيها لبيع غزلهن، ولا يجلسن في الخواصيت العامة بضاعتهم، ووضعت شروط خاصة لئن يتعامل مع النساء في أسواقهن بالبيع والشراء. فلا بد أن يشترى بأدب.

وبعض النساء كن لا يذهبن بأنفسهن إلى السوق لبيع منتجاتهن، بل يرسلنها إلى السوق مع لقات مثل شيخ كبير السن عُرف عنه الأمانة، والفضل. فذلك الشيخ يمكن له أن يخالط النساء في البيع والشراء بدون أن يتعرض كلا الطرفين للحرَج. أو يرسلن بمنتجاتهن مع سيدات قعيدات. أي كبيرات السن انقطع عيّن الرجاء، وينفن بهن أيضاً.

١- الوشائع: هي خطوط المنسج أو النول.

٢- الحسبي: قصة قرطبة، ص ٢٥.

٣- كدال أبو مصطفي: مائقة الإسلامية، ص ٦٦.

٤- ابن عبد الرؤوف: ثلاث رسائل أندلسية في الحسبة والحسب، نشر الأستاذ/ ليلى بروفسال، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للأثار الشرقية، القاهرة ١٩٥٥ م، الرسالة الثانية، ص ٥٥.

٥- ابن عبد الرؤوف: نفس المصدر، ص ٨٧.

وكانت الأسواق تعرض لرقابة الختسب. ويعاقب كل من يعرض للنساء في أسواقهن.<sup>(١)</sup> ويذكر ابن حزم: أن مكان تجمع النساء في قرطبة كان عند باب العطارين. وهو أحد أبواب مدينة قرطبة السبعة. ويقع في الجانب الغربي للمدينة. وكان حول هذا الباب تقوم تجارة العطور، وأدوات الزينة. وكما هو واضح فإن تلك الأشياء من أهم مستلزمات النساء، ولذلك أصبح هذا المكان ملتقى للنساء من أنحاء المدينة، وعلى مقربة من تلك البقعة. كان يقع حي الرقاقين أي صانعو الرقاق المستخدم في صناعة الخلود.<sup>(٢)</sup>

وكان يمكن للمرأة: أن تذهب إلى السوق "للحجامة" أي الفصد، وهي عبارة عن وسيلة طبية قديمة وشائعة لمعالجة بعض الأمراض. وكان الختسب ينهي الحجامة عن عدم الخلوقة بالنساء في حانوته. ويجب أن يكون له مكان واضح وبارز في السوق. تراه كل الأبصار بوضوح من كل موضع. حتى يكون تحت أعين ورقابة الختسب باستمرار.<sup>(٣)</sup>

ومن الأعمال التي مارسها المرأة الأندلسية المسلمة أيضاً بمهارة "تربية دود القز". والذي كان يستخرج منه أرقى أنواع الحرير. ويذكر المقرئ: أن مدينة "جيان الإسلامية" كانت هي المدينة الرئيسية التي يربي فيها دود الحرير، لكثرة اعتناء ساكنيها في البادية والخصر بدود الحرير، وتربيته.<sup>(٤)</sup>

ومارست المرأة الأندلسية أيضاً الاشتغال بالعلوم الدينية. فقد كانت "عابدة المدينة" تروي عن الإمام مالك بن أنس. وقال بعض الحفاظ أنها روت عن الإمام مالك بن أنس. عشرة آلاف حديث حفظاً، ولعلمها، وفضلها، إتقنها حبيب بن الوليد المرواني "أم ولد".<sup>(٥)</sup> "ورشيده" التي كانت تقوم بحولات علمية في أنحاء بلاد الأندلس. تعظ النساء وتعلمهن وتذكرهن. وكان لها صيت كبير في الأوساط الأندلسية، واتصلت بالخير.<sup>(٦)</sup>

وامتهنت المرأة كذلك تلاوة القرآن الكريم بالأجر، وخاصة في الآثم. وكانت النساء تقرأ "للساء" في مجلسهن. وإذا لم توجد امرأة قارئة يستعاض عنها برجل من العبيان. يقرأ عليهن في

١- ابن عبد الرزوف: نصد السيل. ص ٨٧.

٢- ابن حزم: طوق الحمامة، ص ٤٦. هامش رقم (٤).

٣- ابن عبد الرزوف: نفس المصدر، ص ٤٦.

٤- المقرئ: نفع الطب. ج ٣، ص ٢١٧.

٥- الشكعة: في الأدب الأندلسي، ص ٤٥.

٦- ابن عبد الملك: القيل والنكمة، ج ٢، ص ٤٨٥.



تجهمعن من وراء حجاب. بحيث يصل إليهن الصوت في المكان الذي يجلسن فيه. دون أن يراهن أو يرو.<sup>(١)</sup>

ومن المهن التي امتنتها المرأة الأندلسية مهنة "القضاء". ولكن بصفة غير رسمية. فيحدثنا المقري: عن قصة طريفة، لزوجته قاضي مدينة "لوشة"، وكيف كانت تساعد كـثيراً. فيما يستعصي عليه الفصل فيه من القضايا لأهل الأندلس، فمع اساع الجميع. وتشعب قضاياها، ظهرت الكثير من المشكلات والقضايا الخطورة، والمستعصية، بين المتقاضين. وعندما كانت تصل القاضي، قضية يستعصي عليه حلها. أسرع إلى زوجته يستجد برأيها، أو يحكمها، فتشر عليه بما يحكمهم به.<sup>(٢)</sup>

وهذا في رأيي: لا ينقص من مقدار القاضي، فالتساء يكون من أحياناً نظرة خاصة في أمور معينة، تصعب على الرجل. حتى لو كان قاضياً، ورغم ثقة القاضي في زوجته ورأيها، إلا أنه لم يـسلم، من ألسنة الأندلسيين اللاذعة، وكتب إليه أحدهم مداعياً يقول:-

بلوشة قاضي له زوجاً ... وأحكامها في الوري ماضية

فما ليته لم يكن قاضياً... وما ليها كانت القاضية

ويطلع القاضي زوجته، على تلك الايات، التي قلت فيها، فما كان منها إلا أن تناولت القلم، وكتبت على اليدوية، معرضة ومتفردة باليتين:-

وشيوخ سوء مزدري ... له شيوخ عاصية

كـلا لئن لم يستعهي... لتسفعن بالناصية<sup>(٣)</sup>

ويدو من خلال ردها، وسرعة يديتها. أنها على قدر كبير من العلم، والأدب، والفقه في الدين. وامتهنت المرأة الأندلسية كذلك مهنة الطب. وبرزت منهن في تلك المهنة. أم الحسن بنت القاضي أبي جعفر الطنجالي، من أهل مدينة لوشة. وكانت ليلة، وحسية، وتجد قراءة القرآن.

وقد خلفت أم الحسن وأقرب، مسائل طبية كثيرة، وذُكرت في "حقائق الإكليل"<sup>(٤)</sup> بما نصه: ثلاثة حدة وولادة، وفاضلة الأدب، وتقلدت الحسن من قبل ولادة. وقد نشأت في حجر أبيها، ولم يدخر

١- السقطي: (أبي عبد الله محمد بن أبي محمد السقطي) في آداب الحسنة، نشر/ كولان وليغي بروفنسال، باريس ١٩٣١م، ص ٩٨.

٢- الشكعة: في الأدب الأندلسي، ص ٩٨.

٣- الشكعة: نفس المرجع، ص ٩٠.

٤- عائلة الإكليل: هو كتاب لابن الخطيب، ويسمى "الإكليل الزاهر فيمن فصل عند نظم الجواهر".

عنها وسعاً في تعليمها وقديسها. حتى ظهرت مداركها في المعرفة. ودرست الطب. وفهمت أخراجه، وعلمت أساليبها، وأعراضه.<sup>(١)</sup>

ومن المتقدمات في الطب أيضاً "أم عمرو بنت أبي مروان بن زهر". ووصفت بالمهارة في التدبير والعلاج، فكانت تلج قصور الأمراء، وتنتظر في علاج مرضاهم. ونسائهم، وأطفالهم، وإسائهم. وكانت تستلقي في الطب لرجالهم، فويده بذلك مكانة على مكانتها. التي يقتضيها مجدها الكبير. وشرفها العظيم.<sup>(٢)</sup>

ورغم تلك الأمثلة الواضحة، لبعض النماذج النسائية، في ممارسة مهنة الطب، إلا أن ابن عبدون: له رأى آخر. ففي رسالته للحسية ينكر عليها القيام بهذا الدور. وهذه المهنة بالذات، ويقول: "إن المرأة لا يجب عليها ممارسة مهنة معينة. ومنها بصفة خاصة مهنة الطب، ذاكراً أن خطأ الطبيب، دائماً يكون جسيماً. ولا يستره إلا التراب، والمرأة غير مؤهلة. أو قادرة على القيام بهذه المهنة لما بها من جهل، وخطأ أكثر من الرجال."<sup>(٣)</sup>

ولا نعرف على أي أساس. كون ابن عبدون هذا الرأي القاسي عن المرأة، رغم المعارف عليه، منذ صدر الدولة الإسلامية. بأن تلك المهنة، من المهن التي خلقت أساساً للمرأة، لما تتطلبه من رحمة، وعطف، تتوافر في المرأة أكثر من الرجل، وربما لو عاش ابن عبدون في عصرنا هذا. ورأى ما وصلت إليه المرأة في مهنة الطب "ربما كان قد غير رأيه".

ويتضح مما أورده السقفي، أن هناك بعض النساء، اللاتي كن يقمن بعمل خبز في منازلهن، زيادة عن حاجتهن. ويعنه في الأسواق. وأن الغالب على مدن الأندلس شراء الخبز يوماً من الخبز.<sup>(٤)</sup>

ومن المهن الرئيسية التي برعت فيها المرأة بشكل خاص. وحتى يومنا هذا مهنة "التوليد"، وكانت المرأة التي تمارس تلك المهنة تسمى "القابلة". وقد أورد لنا ابن خلدون، بشئ من الإسهاب والتفصيل. ما تقوم به القابلة في عملية التوليد، وكيف تكون معينة على إخراج الوليد، ويكون لديها من الخبرة ما يساعدها في حالات تعسر عملية الولادة. ويضيف ابن خلدون، أيضاً. في أن تلك المهنة مخصصة بالنساء دون الرجال في غالب الأمر، لأنهن ظاهرات بعضهن على عورات بعض.

١- ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، المجلد الأول، ص ٤٣١، ٤٣٢.

٢- ابن عبد الملك: الذيل والتكملة. ج ٢، ص ٤٨٣.

٣- ابن عبدون: رسالة في الحسية. الرسالة الأولى، ص ٤٦.

٤- كمال أبو مصطفي: مداللة الإسلامية، ص ٧٣.

وكلمة القابلة استعير منها معنى " الإعطاء والقبول " كان انفساء تعطيها الجنين، وكأفا تقيده منها.<sup>(١)</sup>

ويضيف ابن خلدون: أيضاً، بأن القابلة لابد أن تكون مدربة، وعلى دراية باستعمال بعض أنواع المراهم والأدوية التي تلزم المولود لحظة الميلاد، وحق القصام أي " الفطام " . ويضيف ابن خلدون: بأن هؤلاء القوابل، كن أعلم وأبصر بهذه الأمور من الطبيب الماهر.<sup>(٢)</sup> وتلك شهادة عظيمة من مؤرخ علامة، عُرف عنه الدقة في الرأى، وفي تحري الصواب عن مهارة المراق، بل وتزويجها على الرجل في تلك المهنة الخطيرة التي تمس حياة كل امرأة. وكانت القوابل يفاضن في العادة أجوراً عالية، وبعد أن يولد الطفل كانت تخصص به امرأة أخرى، ولها وظيفة أخرى، وهي " الحاضنة " أو " المرضعة " وهي التي تقوم على رعاية الطفل، من لحظة الولادة حتى يكبر. وبشبه. ودائماً كانت تصم تلك الرعاية في بيت الأب. أما إذا كان الأب ميسوراً ومقتدراً، فيعهد بالمولود في حالات كثيرة، إلى امرأة " قروية " تحمله إلى الريف، ويبقى في حضانتها، ورعايتها، حتى الفطام. وقد وصلت إلينا عقود في هذا الشأن تحدد الشروط الواجب توافرها في الحاضنة، وأيضاً أهل الطفل.

فكان على الأب أن يدفع للحاضنة، راتباً شهرياً متفق عليه، بالإضافة إلى الملابس ومن جانها تلزم بإرضاع الطفل، ونظافته. جسماً، وملبساً حتى يكبر.<sup>(٣)</sup>

وبعدنا ابن بسام. بنموذج آخر رائع للصرافة المسلمة الأندلسية المكافحة التي يموت عائلتها، فتسجل بكل شجاعة مسئولية تربية أولادها. وجاء حديث ابن بسام: عنها في سياق حديثه عن ابنها الأشهر، دون باقي أولادها، هو الأديب والشاعر أبي بكر محمد بن عيسى الدان، المعروف " بابن اللبانة"، ويقول: كانت أمه " امرأة بزرقة، فارسة، صاحبة مكيال وميزان. وكانت امرأة صديق، وفي حرفتها صاحبة حق، مشغلة ببيع اللبن، مقبلة على ما يعينها من حال زمانها. " حتى غلب اسم اللبن عليها ونسب أولادها إليها. وبرز من أبنائها " أبي بكر " وأخيه عبد العزيز، إلا أن أبا بكر، كان أوسع أبنائها أدباً، وأكثر من حمل اسمها من أبنائها. فاشتهر في التاريخ الأندلسي باسم " ابن اللبانة".<sup>(٤)</sup>

١- ابن خلدون، المقدمة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م، ص ٤٣٩، ٤٤٠.

٢- ابن خلدون: نفس المصدر، ص ٤٤٠.

٣- الطاهر مكي: دراسات عن ابن حزم، ص ١٤٣، كمال أبو مصطفى: مائقة الإسلامية، ص ٦٩.

٤- ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الثالث، المجلد الثاني. رقم (٦) ص ١٦٧، العبادي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، هامش رقم (٣)، ص ٣١٥، صلاح خالص: إشبيلية في القرن الخامس الهجري، ص ٩١، ٩٢.

ونرى من خلال تلك القصة: أن أعمال المرأة في المجال الاقتصادي لم تقتصر على الأعمال التقليدية، داخل جدران المنزل، كغزل ونسج الأقمشة فقط، بل شملت من اتخاذ "حاتوتا" تعمل به خارج حدود موطئها. وخاصة المرأة من طبقة العامة، والتي دائماً ما تعبر أصدق تعبير، عن وضع المرأة في أي مجتمع، ومثالاً على ذلك أم شاعرتنا "ابن اللبانة".

وأشارت لنا كتب الفتاوى والتوازل إلى وجود "الحاطية" في بلاد الأندلس والمغرب، وهي التي تقوم بالتصهيد والإنفاق بين المتقدم للزواج، وأهل العروس. فيذكر الوثريسي: أنه عقب هذا الإنفاق. يرسل الحاطب والده وإخوته وبعض أقاربه، ومن نقل شهادتهم إلى دار العروس، للإنتفاق على كل ما يتصل بعقد الشكاح. خاصة من ناحية مطالب والد العروس.<sup>(١)</sup>

ويبدو أن دور الحاطية. كانت تختص به النساء العجائز بصفة خاصة. فيقول ابن حزم: إن النساء العجائز. كن يلعبن دوراً هاماً في قيسة الظروف بين الخطيبين، فالمرأة إذا أسست، وصلحت، وانقطع عندها الرجاء إنصرفت إلى العبادة

وتنسكت بعمل الخير، فهي تذلل العوائق، وتحمل الرسائل، وتحفظ السر، وأحب الأعمال إليها، وأرجاها للقبول سعيها في تزويج يتيمة، أو إعارتها ثيابها، وحليها لعروس مُسقلة.<sup>(٢)</sup>

وكن هؤلاء العجائز، يقمن أحياناً بمهمة "سامي البريد". بين محبين، وذلك لأن دخولهن إلى البيوت سهلاً وميسوراً، ولا يخشى خطرهن على أهل البيت، ولذلك كن ينفذن إلى الحجب المصونة، ويخترن الأسرار الكثيفة، والمقاصد المحروسة، ويصفهن ابن حزم: في "الطوق" بأنهن صاحبات العكاكيز، والنسايح، والفتوين الآخرين، وبحكم السن، والخبرة الطويلة في الحياة، لا يخلن على الفتيات الشابات بالنصائح السليمة.<sup>(٣)</sup>

وكانت المرأة الأندلسية تخرج بانتظام، إلى النهر لغسل الملابس، وكانت هن أماكن محددة من النهر. مخصصة هن، بحيث تكون بعيدة عن أماكن السقاية وبعداً عن أعين المتطفلين، والمتسكعين، ويمنع اغتصب العاطلين من التسور عليهن، في ذلك الموضع، حتى يأخذن حريتهن في غسل الملابس دون رقابة، أو مضايقة.<sup>(٤)</sup>

ويقسم النهر إلى أماكن منفصلة، لكل من الرجال والنساء. ومعروف لماذا. لأن كلاهما يمكن أن يتحرر من بعض ملابسه على ضفاف النهر. ففي تحديد الأماكن. صيانة لكل منهما.<sup>(٥)</sup>

١- الوثريسي: المعيار المغرب، جـ ٣، ص ١٢٦، ١٩٠، ٢٤٨، كمال أبو مصطفى: مألقة الإسلامية، ص ٦٠.

٢- ابن حزم: طرق الحمامة، ص ٥٨ الطاهر مكي: دراسات عن ابن حزم، ص ٢٦٩، ٢٧٠.

٣- الطاهر مكي: نفس المرجع، ص ٢٦٩، ٢٧٠.

٤- ابن عبد الرزوف: ثلاث رسائل في الحسية. الرسالة الثانية، ص ٣٢.

٥- ابن عبد الرزوف: نفس المصدر، ص ٤٦.

ومن المهن التي مارسها النساء أيضاً "الناقطة" أو القروسية. ويعد لنا المؤرخ الفرنسي جيتارد Guichard عن شخصية نسائية غنائية عاشت في أواخر القرن الحادي عشر، وأوائل القرن الثاني عشر الميلادي، وتدعى Guibourc.

وكانت زوجة راعية لحاكم "برشلونة". وكانت امرأة ذات نشاط واضح، وقادرة على ممارسة شئون الإدارة، في الإمارة، أثناء غياب زوجها وبعد فشله في إحدى المعارك، وإستلامه للباس، تحملت تلك المرأة، تبعاً لإعادة إنشاء حمامة مكونة من "٣٠٠٠٠" ثلاثون ألف جندي. وحدها.<sup>(١)</sup>

ومارست الجوارى أيضاً صناعة "الثقاف" و"المجادلة" و"الحجفة"<sup>(٢)</sup> و"اللعب بالسيف" و"الأسنة والخناجر، وغير ذلك من فنون المبارزة والدرال.<sup>(٣)</sup> وأبرز شخصية نسائية في مجال القروسية في الأندلس. كانت "جميلة بنت عبد الجبار المصمودي" أخت محمود بن عبد الجبار. وقد ذكرها ابن حزم في "جهرة أنساب العرب" وقال عنها: "جميلة أخت محمود بن عبد الجبار المشهورة بالشجاعة، والجدّة، والقروسية، ولقاء الفرسان ومبارزتهم في العساكر".<sup>(٤)</sup>

وقد عُرفت جميلة، بجمالها البارز، وتفوقها في القروسية. وظهر ذلك حينما شاركت أخاها في ثورته التي فجرها في مدينة ماردة، ضد الحكومة المركزية في قرطبة، وصحبت أخاها إلى مملكة ليون، فراراً من جيوش قرطبة، التي سورها إليهم الأمير عبد الرحمن الأوسط، لاحتداد ثورهم. وقد أكرمها ملك ليون ألفونسو الثاني. إكراماً تتجاوز كل تقدير في الحسان، فأقاما لديه مدة طويلة، وسحبها قلعة بورتولاميجو Portolamego في جنوب البرتغال. كي يتخذها محمود بن عبد الجبار، مع أتباعه، مركزاً لشن غاراته على المسلمين.

ولكن أخاها قتل بعد ذلك، وعندما شاهدت جميلة مصرع أخيها، أمام بصرها. انطلقت تقاتل العدو بضراوة وعنف، إلى أن سقطت أسيرة في أيدي النصارى، وأرغمت على الزواج، من أحد قوامس جليقية Galicia، وأنجبت ولداً، أصبح فيما بعد أسقفاً لمدينة سانت ياقب Santiago de Compostela.<sup>(٥)</sup>

١- Guichard: Structures Sociales, p. 90.

٢- الثقاف: أدلة من خشب. أو حديد، تتلف بها الرماح لتسوي وتعدل، والمجادلة: أي المناظرة، والحجفة: الترس من جلود.

٣- علي عبد العظيم: ابن زيدون حياته وشعره، ص ٧٠.

٤- ابن حزم: جهرة أنساب العرب، ص ٥٠٦.

٥- سحر سام: مظاهر الحصار في بطليموس، رسالة دكتوراه، نُقلت بآداب الإسكندرية سنة ١٩٨٧، ص ٢٤٤.

محمد عبد الله عات: دولة الإسلام في الأندلس. العصر الأول، القسم الأول، ص ٢٥٧، ٢٥٨.

ولم تكن الأعمال المنزلية التقليدية. حكراً على النساء فقط. فقد شارك الرجل، وبخاصة عندما يقيم بمفرده، ويكون مضطراً إلى خدمة نفسه. فيروى الحشني: عن القاضي محمد بن سلمة قاضي الجماعة في قرطبة، دخلت عليه يوماً امرأة إلى داره تستطيه. في مسألة فقيهة. وكان الوقت قبل صلاة الظهر. وهو وقت راحة على ما يبدو بالنسبة للأندلسيين. وقد كان متخففاً من ثيابه وليس على استعداد لاستقبال أحد. وعندما قرعت المرأة عليه الباب خرج إليها. وكانت لا تعرفه. فظفرت إلى يديه. فوجدت عليها آثار "عجين" أي كان يعجن. فطلبت منه أن يحسب القاضي بحسورها. فقال لها: اذهبي إلى المسجد، وسيلحق بك القاضي. فلما فعلت جاء وراءها وعرفه.<sup>(١)</sup>

ولعب الدور الاقتصادي للمرأة، دوراً كبيراً في حياة الجورجي بصفة خاصة. فقد كانت الجارية التي تنفق بعض الصناعات، تكون أغلى من مثيلاتها في السوق. وذلك لأن مشترها يستطيع منها اقتصادياً أكثر من مثيلاتها اللاتي لا يتفنن صناعة، ويروى في هذا المعنى: أن القاضي محمد بن بشر المعافري، رحل يوماً إلى الديار المصرية مع صاحب له، فأراد صاحبه شراء جارية تزنيه في غربته، وذهب معاً إلى سوق الرقيق، فوجد أن الجورجي، اللاتي لديهن صناعة، أغلى ثمناً من مثيلهن، المتخذات للذة والمتعة فقط.<sup>(٢)</sup>

وكانت المرأة الأندلسية، تطبق عليها القوانين المعمول بها، مثلها مثل باقي أفسراد المجتمع. إذا ارتكبت شيئاً مخالفاً، سواء في تجارة، أو غش، أو تدليس، وما إلى ذلك. وتحدد من العقوبة على قدر الجرم. الذي ارتكبه. ويودعن في السجن مثلهن مثل الرجال. ولكن كان هن سجن خاص بهن، بعيداً عن سجن الرجال، ولا يكون سجناتهن، إلا شيوخاً، معروف عنهم العفة والسيرة الحسنة بين الناس. وعادة كان سجن النساء لا يطول مثل الرجال، ولكن من الضروري، أن يحكم القاضي على من يجب عليها العقاب، في أي حكم من الأحكام بدون تفرقة.

وأحياناً، كانت توضع من يُحكم عليها بالسجن، لدى إحدى النساء الفضليات، المعرفات، والمشهورات، لدى القاضي بحسن سيرتهن وسلوكهن، وتمكث معهن السجينة حين انتصاهن مدة عقوبتهن، وذلك نظير أجر معين يقدره القاضي، ويؤخذ من بيت المال.<sup>(٣)</sup>

وكانت هؤلاء السجانات، يتخذن من يوهن مكاناً للإشراف على السجينات اللاتي يودعهن القاضي لديهن.<sup>(٤)</sup>

١- الحشني: قضاء قرطبة، ص ٩٥.

٢- الحشني: نفس المصدر، ص ٣١، ٣٢.

٣- ابن عبدون: ثلاث رسائل في الحسبة، "الرسالة الأولى"، ص ١٩.

٤- ابن عبدون: نفس المصدر. والصفحة.

وعرفت الأندلس، كما عرفت غيرها من الأقطار الإسلامية، مهنة أخرى للمرأة. وإن كانت ليست جديدة. فقد كانت موجودة إلى وقت ليس بعيد. وهي " النائحة "، وهي التي تستأجر للبكاء على الميت. وكان لها طقوس معينة، تستعملها في أداء مهمتها، كالصراخ، والتدب، وما إلى ذلك.<sup>(١)</sup> ويبدو أن النائحة كانت تقن عملها بحكم احترامها له، مما جعل ابن عبد ربه يقول عنها: " وليست النائحة الفلكي، مثل النائحة المسأجرة " .<sup>(٢)</sup>

وكان القاضي يمنع النساء من التوايح والصراخ على الميت، ويذكرهن بأن اجتماع النساء على الميت مكروه. وإن لم يمنع خروجهن إلى الجنازة، واكتفى بأنه مكروه.<sup>(٣)</sup>

وامتهنت المرأة الأندلسية أيضاً مهنة " الغاسلة " وهي التي تخرج لغسل المرأة الميتة. وكانت الغاسلة لها طقوس خاصة، إذا خرجت يوماً لأداء عملها، وذلك بأن تذهب أولاً إلى الغتسب، وتأخذ منه ورقة، وتجعلها في مكان بارز فوق عصابة على رأسها، أو تحيط بها في إزارها، حتى يعلم الناس أنها غاسلة.<sup>(٤)</sup>

ويبدو أن إشرط هذا الشرط على الغاسلة، كي يعلم الناس بما حدث. فيذهبون لأداء العزاء.

ومن عادات نساء الأندلس، الخروج إلى المقابر. وذلك في الأيام الأولى من فقد الميت، أو في الأعياد، ويتم ذلك تحت مراقبة القاضي والغتسب. كي لا تعرض النساء لمشاكسات المتعطلين، ممن ينتهزون فرصة هذه التجمعات النسائية. ويذهبون لاستراق النظر إليهن.<sup>(٥)</sup>

وكما ذكرنا، فقد اهتمت المرأة الأندلسية المسلمة، اهتماماً خاصاً، بنسخ وكتابة المصاحف الشريفة. بكل الخطوط العربية المعروفة في المشرق والمغرب، بالإضافة إلى الخطوط الخاصة بالأندلس. فيحدثنا ابن فياض: بأن الربضي الشرفي من قرطبة كان به مائة وسبعون امرأة، كلهن يغنن بكتابة " القرآن الكريم " .<sup>(٦)</sup> هذا في ربض من أرباض قرطبة. فما بالنا بجميع الأرباض، بل والمدن الأخرى، التي تضارع قرطبة، اهتماماً بالعلوم والثقافة، ولا يسعنا بعد هذا العرض لدور المرأة الاقتصادي، سوى أن نقول: بأن المرأة الأندلسية. لم تعرف الكسل والخمول، بل شاركت بإيجابية كاملة، في كافة المجالات الاقتصادية، سواء من داخل بيتها، أو خارجه.

١ - السفطلي: في آداب الحسية، ص ٩٨.

٢ - ابن عبد ربه: ( أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي ) طبائع النساء، جزء منقول من كتاب العقد المفريد، تخليق الأستاذ/ محمد البراهيم سليم، مكتبة القرآن للطباعة والنشر ١٩٩٢ م، ص ١٧٧.

٣ - ابن عبد الرؤوف: رسالة في الحسية، الرسالة الثانية ص ٧٧.

٤ - Dozy: Noms de Vêtements, p. 29.

٥ - بن عبدون: رسالة في الحسية ( الرسالة الأولى )، ص ٢٧.

٦ - Ribera y Tarrago: Disertaciones y Opusuculos. Tomo I. Madrid, 1928, p 3-46.

ثانياً: أسواق الجوارى وأنواعهن:—

يرى المستشرق الفرنسي جيسار Guichard أن تدن وضع المرأة في مجتمع ما قبل الإسلام يرجع بصفة عامة وأساسية، إلى عمليات السي، التي كانت تعرض لها المرأة، وكانت تلك العمليات من أهم أسباب جلب العار على ضحاياها، في حين كانت تعد من دواعي الشرف والعزة للطرف الآخر المغير.<sup>(١)</sup>

والحقيقة: أن جيسار في هذا الرأي. قد أصاب إلى حد بعيد، ويقيد ذلك ما جاء في كتاب الأغاني للأصفهاني، الذي تناول هذا الموضوع، وأبرز كيف كانت عمليات السي، التي تعرض لها المرأة، من أهم الأسباب، التي أدت إلى ظاهرة

"وأد البنات". فيحدثنا عن المشرج البشكري الذي أغار يوماً على قبيلة بني سعد، واستاق منهم أموالاً ونساء كثيرة. وكان من بين السبايا امرأة لها مكانة كبيرة في قبيلتها، إصطفاه عمرو بن المشرج لنفسه، فذهب رجال من قبيلتها لافتدائها، وفك أسرها، وإرجاعها مسرة أخرى إلى قبيلتهم.

فجعل عمرو بن المشرج، لها أسرها في يدها. إن شاءت رجعت وإن شاءت بقيت ففضلت البقاء، فأغضب ذلك أحد الرجال البارزين، من ذهبوا لفك أسرها، فعاد إلى قبيلته "ووأد" كل بنات القبيلة، وجعلت هذه العادة سنة، إقتدى بها جميع العرب من بعده فكان كل من تولد له أنثى، يندها خوفاً من المذلة والعار.<sup>(٢)</sup>

ويضيف جيسار: حول هذا الموضوع أيضاً، أن الإسلام، والسور القرآنية لم تصدى بشكل قاطع لنظام السي والسبايا.<sup>(٣)</sup> ويبدو أن جيسار: قد وقع في خطأ كبير، إذ أن ظاهرة السي والسبايا، لم يوجدها الإسلام، بل كانت موجودة بالفعل، قبل ظهور الإسلام، وغير مثال على ذلك، ما ذكرناه من قبل عن مجتمع ما قبل الإسلام.

ولا شك، أن تلك العادة، مثلها مثل عادات كثيرة، كشراب الخمر مثلاً، إذ لم يستطع الإسلام، نظراً لنفسي تلك الظاهرة، واشتدادها، العمل على إلغائها مرة واحدة، ولكنه عمل على إلغائها والقضاء عليها بالتدريج. فوضع لها نظام القدية، وحسن المعاملة، وتحرير الرقاب، وهذا الإلغاء

١- Pierre Guichard: Structures Sociales. p. 41.

٢- الأصفهاني: كتاب الأغاني، صححه الأستاذ/ أحمد الشقيطي، مطبعة القدم، الجزء الثاني عشر، ص ١٤٣، ١٤٤ بدون تاريخ.

وللتزيد من التفاصيل، حول هذا الموضوع التصل بعمليات السي. راجع الأصفهاني: نفس المصدر، ص ١٤٣، ١٤٤.

Guichard: op. cit. p. 78.



تتدرج من المنظور الإسلامي. لم يزد إلى إنكاسة فيما لو أُلغى مرة واحدة، وإنما سيؤدي حتماً إلى نهاية هذه الظاهرة على المدى البعيد. وهذا ما حدث بالفعل.

ويضيف جيتار: في نقطة أخرى حول هذا الموضوع أيضاً، في قوله: إن طبقة العيد في المجتمع الإسلامي، اختلفت احتمالاً تاماً عن باقي المجتمعات السابقة، واللاحقة. لغير المسلمين. من حيث الدور، الذي قامت به في تلك المجتمعات، حيث كان دور العيد فيها إقتصادياً في المقام الأول، أي أن الاستفادة منهم كانت اقتصادية في كافة المجالات والأنشطة.

أما في المجتمع الإسلامي. فقد كانت مشاركة العيد في النشاط الاقتصادي، والإنتاجي ضئيلة جداً، سواء كانوا في القرى، أو في المدن، وانحصر دورهم على أعمال الخدمة والجيش والإدارة. وأحياناً يكون لهم في المجال السياسي، مع عدم تسخيرهم اقتصادياً.

وقد أدى ذلك، إلى تحسين أحوالهم، في ظل النظام الإسلامي، وبدأ انتماء العيد. يزداد شيئاً فشيئاً. على عكس ما كانوا عليه في الحضارات السابقة، وبدأ توغلهم يزداد، إلى أن ذابوا تماماً في المجتمع الإسلامي.<sup>(١)</sup>

والإمام أو الجوّاري. نقصد من هنا النساء المملوكات اللاتي يبيعن ببيع العيد. وقد وجدنا بأعداد كثيرة في أعقاب الفتوحات الإسلامية. وكن يملأن قصور الحكام والحلفاء. فقد أباح الإسلام للمسلم، أن يملك من الأعداد ما شاء. ولم يحدد عدداً معيناً كالزواج. الذي حددته الشريعة، بأربع زوجات فقط. وكانت الجوّاري من أجناس. وأشكال مختلفة، ولم يكن بينهم وبين الرجال، الذين يشترهون حوائل كالخجاء، عند الحرّات. فقد كن معروضات هن في دور النخاسين فكانوا يختارون ما يشاؤون وفق رغباتهم.<sup>(٢)</sup>

ولم تكن عملية شراء الجوّاري، مبروكة بدون ضوابط، بل لابد أن تتم "بعقد" مخصوص لذلك. فيذكر لنا السقطي، في آداب الحسبة، أن شخصاً استدعاه لكتابة عقد جارية. وكانت الجارية أيضاً، يكتب لها استبراء من بائعها "أي أنها ليست امرأة حرة" وأنها ليست ملكاً لأحد، وذلك عن طريق لفة من النساء، يتغلغل عليها، أو عند رجل من الثقات، من أهل الدين والأمانة، تكون عند أهله. حتى يتحقق استبرائها.<sup>(٣)</sup>

١- Guichard: op. cit. p. 77, 78.

٢- Ibid pp. 77, 79.

صلاح خالص: إشبيلى في عصر الطوائف، ص ٩٦، شوقي ضيف: العصر العباسي الثاني، ص ٨٢، عمر رضا كحالة: المرفق في عاني العرب والإسلام، ج ٦، ص ٥٩.

٣- السقطي: في آداب الحسبة والخصب، ص ٤٨.

وكانت أسواق العيد والجواري، منتشرة في كافة المدن الأندلسية، وخاصة في مالقة Malaga. حيث تختص لإشراف المختص، وفي قرطبة أيضاً، وهي من كبريات المدن الأندلسية.<sup>(١)</sup>

وكان يدير هذه الأسواق: سماسرة وخاسون، يجلبون الرقيق من أوروبا المسيحية، من أسماك كنيرة، فمنهن الجليقيات، ويؤتى بهن من شمال غربي الأندلس، والصقلييات، ويؤتى بهن من وسط أوروبا، والإفرنجيات، وهن القادمات من جنوب فرنسا وإيطاليا، والبربريات، ويؤتى بهن من شمال إفريقيا، والقطالونيات، ويؤتى بهن من شمال شرق إسبانيا، وأجناس أخرى متعددة.<sup>(٢)</sup>

وقد نظمت تجارة الرقيق في الأسواق، بحيث توضع كل مجموعة متميزة في شيء معين من الجواري مع مثيلاتها. فكان يصنف من حيث الذكاء، والمهارة والموهبة، والجمال الكثير، وصنف آخر، من الجواري، تميزت به الأندلس بصفة خاصة، وهو إتقان اللهجة الرومانسية La lengua Romance، وهي اللهجة الدارجة للغة اللاتينية، ولشعارها عليها في الأوساط الأندلسية.<sup>(٣)</sup>

ومع انتشار وتوسع تجارة الرقيق في المجتمع الأندلسي، اقتضت الحاجة، ذهاب بعض المسلمين واليهود إلى مدينة "براغ".<sup>(٤)</sup> لشراء أعداد كبيرة من الرقيق الأوروبي من الجنسين. ثم يعودون إلى الأندلس عن طريق بحر الرون وقطالونية.<sup>(٥)</sup> وكان بعض البيزنطيين يقدمون الرقيق إلى البحار الأندلسيين، وذلك من خلال ما يجلبونه من غزواتهم على سواحل البحر الأسود، والتي يسبون فيها سبياً كثيراً، كان يقدم للمسلمين واليهود للتجارة بهم في الأندلس. وقد أحرز اليهود بصفة خاصة، شهرة كبيرة في هذا المجال.<sup>(٦)</sup>

وبعض التجار استخدموا الجواري في التجارة الفرمية. فكانوا يعثون بهن إلى منازل أصحاب الثراء، للخلوة بهن نظير مبلغ من المال.<sup>(٧)</sup>

أما عن أنواع الجواري. فقد كن "صنفين" أبيض وأسود، والرقيق الأبيض. كان أغلى ثمناً، وخاصة القادمات من دول أوروبا، لأنهن يتميزن ببياض البشرة، وشقرة الشعر، وورقة العيون. وكانوا

١- Sanchez Albómoz: Historia la España, T.I, p. 397.

٢- حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص ٤٢١، ٤٢٢، عبد الحميد العبادي: الجبل في تاريخ الأندلس، ص ١٠٤، كمال أبو مصطفى: مالقة الإسلامية، ص ٧٤؛ الطاهر مكي: دراسات عن ابن حزم، ص ٤٠.

٣- Albómoz: op, cit, T.I, p. 297.

٤- براغ: مدينة تقع حالياً في دولة التشيك، بقارة أوروبا.

٥- أحمد مختار العبادي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، ص ٢٥١.

٦- عمر رضا كحالة: المرأة في عالمي العرب والإسلام، جـ ٦، ص ٦١.

٧- كمال أبو مصطفى: مالقة الإسلامية، ص ٧٤.

دائماً موضع اختيار الأمراء والحكام، وعلية القوم، وكن أكثر قابلية لتعلم الفن والموسيقى، وكانت الجارية كلما مهرت في فنها، بولغ في ثمنها.<sup>(١)</sup>

وقد كان هناك نوع خاص، ومميز، لا يعرض في أسواق النخاسة، وإنما يجلب حصيصاً للأمراء والأغنياء<sup>(٢)</sup> أما النوع الآخر من الرقيق، وهن السوداوات، وكان يطلق عليهن "السودانيات"، فكان يوتي بهن من السودان والحيشة، ومن إفريقيا عموماً. وقد امتلأت من قصور وبيوت الطبقة الوسطى، نظراً لانخفاض أسعارهن، بالمقارنة بالرقيق الأبيض، لكنهن ظلن يمثلن أقلية في العدد بالمقارنة بالبيضاوات.<sup>(٣)</sup>

وما يدل على تواجد هذا العنصر الأسود، بل وتأثيره في المجتمع الأندلسي أن أحد شوارع قرطبة، لا زال يحمل حتى يومنا هذا، اسم شارع زقاق السود Calleja de los Negros.<sup>(٤)</sup>

وكانت السودانيات، أو السوداوات في كثير من الأحيان، يستخدمن في الأعمال المنزلية، وخاصة إذا تعدت الجارية منهن مرحلة الشباب، وأصبحت لا تصلح إلا للأعمال المنزلية.<sup>(٥)</sup> وإن كان هذا لم يجمع بعض الرجال، من التخاذل جاريات للمتعة، مثلهن مثل البيضاوات. فقد كانوا يقدرون فيهن صفات أنثوية لا يجدونها في غيرهن، وحتى عادي أن ترى أبناء لأباء بيض، وأمهات سوداوات، ويوضح هذا بجملة، أن المسلمين الأندلسيين، لم يعرفوا، الطريقة العنصرية، بسبب الجنس أو اللون، و التي ملأت تاريخ العصور الوسطى، وحتى أيامنا هذه.<sup>(٦)</sup>

ومثالاً على ذلك، أبو للطرف بن غليون، من بنسبة، الذي اتخذ جارية سوداء، تحمل اسماً مميزاً وهو "إشراق السويده" واشتهرت بسعة معارفها اللغوية، وبخاصة في الشعر الأدبي والفني.<sup>(٧)</sup>

١- الطاهر مكي: دراسات عن ابن حزم، ص ١٩٩، كحالة: المراقبة في عالمي العرب والإسلام، ج ٦، ص ٦٠.

٢- كحالة: المرجع السابق، ج ٦، ص ٦٠.

٣- هنري بروس: الشعر الأندلسي في عصر الطوائف، ص ٢٣٨، الطاهر مكي: نفس المرجع، ص ١٤٠ شوقي خفيف: العصر العباسي الثاني، ص ٨١، كحالة: نفس المرجع، ج ٦، ص ٥٤، ٥٥، ٦٠.

٤- الطاهر مكي: المرجع السابق، ص ١٨.

٥- سحر سالم: مظاهر الحضارة في بعلبوس، ص ٢٥٢، ٢٥٣.

Huici Miranda: Historia Musulmana de Valencia, Valncia, 1969, Tomo I, p.64

٦- الطاهر مكي: نفس المرجع، ص ١٨.

٧- بروس: نفس المرجع، ص ٢٣٨.

ويظهر لنا الشعر الأندلسي، مفهوم النساء الأندلسيات عن الحب، الذي يمارسه أزواجهن مع السوداوات. فقد مال ابن زيدون إلى جارية "ولادة"، وكانت سوداء فكبت إليه، عاتبة عليه تقول:-

لو كنت تُصَفُّ في الموى ما يننا

لم قسو جاريتي ولم تخيبر

وتركت غصناً مثمراً بجماله

وجنحت للغنص الذي لم يثمر.. الخ<sup>(١)</sup>

وقد برز هذا النوع من الرقيق، وتبوأ مكانة بارزة في عصر الخليفة عبد الرحمن الناصر السدي استكثر منهم في حرمه الخاص، ولكن ظلت مكاتبتهم لديه أقل من الصقالبة.<sup>(٢)</sup>

و فيما يختص بالخدمات الأندلسيات، فكن لا يعملن في البيوت الأندلسية، إلا بعقد متفق عليه بينها وبين مؤجرها، وكانت شروط العقد المتفق عليها ملزمة للطرفين. وكان هذا العقد يحفظ لها حقوقها في عدم مطالبها بأكثر مما تطلق.<sup>(٣)</sup>

وقد أمدنا السقفي: في كتابه آداب الحسية، عن الكثير من حيل النخاسين في بيع الجوارى. وبما أن رجال الأندلس يفضلون الجوارى العجميات، أي ذوات اللسان واللغة الأجنبية، والقادحات من أوروبا بصفة خاصة، ففهن ميزات، تفرى الرجال كما ذكرناها في وصلهن. ففي أحد الأسواق، إنطلقت جارية مع صاحبها أي مالكها، على تمثيل دور جارية أعجمية، رغم أنها كانت أندلسية الأصل، وتفنن التحدث بلغة أهل البلاد المتداولة، بل ومن أدنى طبقات العامة.

وقامت الجارية بتمثيل الدور في السوق، كي يربح مالكها من بيعها ربحاً وبيعاً، وعندما كشف أمرها لمالكها الجديد بعد أن دفع فيها مالاً وبيعاً، حزن على ماله حزناً شديداً فقالت له: عندى لك حل لتلك المشكلة، إحبنى إلى السوق، ولكن في بلدة أخرى، ومثلت نفس الدور مرة أخرى، بأنها "أعجمية" ولا تعرف لغة أهل البلاد، وتم ما أرادته، وبعها بأكثر مما دفع فيها.<sup>(٤)</sup>

١- بروس: المرجع السابق، ص ٢٣٩.

٢- بروس: نفس المرجع، ص ٢٣٧.

٣- Lévi Provençal: Historie de L'Espagne Musulmane, T. III, p. 400.

٤- راجع تفاصيل القصة كاملة في السقفي: في آداب الحسية، ص ٥٤، ٥٥.

Lévi Provençal: L'Espagne Musulmane au Xeme siecle, p. 192.

ومن حيل النحاسين أيضاً، في بيع الجوّاري، بيع صنف على أنه صنف آخر، أو دهن الجارية بهدانات، مجهزة ومحضرة بطريقة معينة، لتفصح لون بشرتها، وجعلها بيضاء. ولكن تأثير ذلك الدهان محدود، ويزول بعد فترة قصيرة، فعندما تعود الجارية مع مشتريها، إلى البيت بعد مدة يظهر لونها الطبيعي.<sup>(١)</sup>

رسان انحسب ينهي عن تلك الأفعال، وكانت الخادومات، أو الجوّاري، أو المربيات، يخرجن في أيام الأعياد، بأطفال أسياهن للترويح، ومشاهدة مظاهر العيد.<sup>(٢)</sup>

أما عن أثمان الجوّاري. فنعرف أنها كانت في الغالب مرتفعة، خاصة الجوّاري اليطساوات، الشقراوات، اللاتيّ يتمتعن بقدرة كبير من الجمال والثقافة. فقد كان يصل سعر الجارية إلى ألفين أو ثلاثة آلاف دينار. وتبعاً لما ذكرناه من صغر السن والجمال والموهبة وغير ذلك.<sup>(٣)</sup> وكانت أثمان العبيد أحياناً تنخفض انخفاضاً ملحوظاً. وذلك خلال فترات الغزو والانصرافات، كما حدث في أثناء حكم المنصور بن أبي عامر، في القرن الرابع الهجري، حيث يذكر: بعض المؤرخين، أن سعر الجارية المنخفض إلى عشرين ديناراً فقط.<sup>(٤)</sup>

وكان يطلق على الجوّاري أسماء بسيطة، جميلة، وبها كثير من التفاؤل. ولها معنى من معاني إمتيازهن مثل " المعفأة ". وكانت هزيلة نحيلة، وغصن، وروض وصبح، وقمر، وراح، وطروب.. الخ.<sup>(٥)</sup>

وتأثرت أسماء نساء الأندلس بصفة عامة باللغة الرومانسية وانتشارها تأثيراً مباشراً. وكان الاسم دائماً ينتهي بالحرفين " واو " أو " نون " مثل زهون.<sup>(٦)</sup> وهو تأثير محلي إسباني. فمن المعروف أن حرفي on في آخر الكلمة الإسبانية، تدل على التعظيم والتفخيم والكبر.

والقانون الأندلسي. لم يكن يتشدد مع الجوّاري، مثلما تشدد مع الخواثر. فقد كان عقاب الجارية التي تزني خفيفاً، بل وصل الأمر ببعض الفقهاء، إلى ترك الأمر بيد سيدها إن شاء

١- وقد أورد السقفي، في هذا المصدر، العديد من أسماء الدعات التي يستخدمها النحاسين وأيضاً حيلهم، وندابهم في بيع الجوّاري، راجع: السقفي: المصدر السابق، ص ٤٩، ٥٠، ٥١، وما يليها، كمال أبو مصطفى: مائة الإسلامية، ص ٧٤.

٢- كمال أبو مصطفى: نفس المرجع، ص ٨٠.

٣- عبد الحميد العبادي: الفصل في تاريخ الأندلس، ص ١٤٥ صلاح خالص: إشيلة، ص ٩٢ مصطفى الشكعة: الأدب الأندلسي، ص ١٤٥ شوقي ضيف: العصر العباسي الثاني، ص ٨٣.

٤- صلاح خالص: نفس المرجع، ص ٩٢.

٥- عبد الحميد العبادي: المجلد، ص ١٠٥.

٦- الشكعة: الأدب الأندلسي، ص ٤٦. وهذه الظاهرة نجدها يوضح في أسماء الرجال مثل خلدون، وعبدون وزرولون... الخ.

عاقبها. وإن شاء تركها. لذلك نرى أن المجتمع كان أميل إلى اللين مع الجوّاري. عن الحرّاء<sup>(١)</sup> وكما رأينا: فإن إزدهار تجارة الرقيق جعل منهنّ عصباً هاماً في المجتمع الأندلسي وأصبح لهنّ حقوق. وعليهنّ أيضاً واجبات، وإن اختلفت نوعاً ما عن واجبات الحرّاء. فقد كانت الجوّاري. أنشط من الحرّاء، في مجالات الحياة العامة، نظراً لقلة الضغط عليها كالحرة. فأصبحت ملهفات للشعراء. بل ويقرضن الشعر والأدب الرفيع بحرية أكثر من الحرّاء.

كما أدخل إلى الأندلس، أفكاراً وأفاناً جديدة، نظراً لاختلاف ثقافتهم. فكانت كل جارية كما ذكرنا: تأتي من مكان مختلف عن الأخرى، ولا بد أن هذا قد أدى إلى تنوع العادات والتقاليد، و المفردات اللغوية المملوّة بواسطة كل واحدة منهن، وهكذا نجد أن وضع المرأة الحرة في الوسط الأرسطراطي. أو العامي الأندلسي. قد اختلف عن وضع الإماء الجوّاري، اختلافًا كبيراً واضحاً في المجتمع الأندلسي.

ويبدو أن إزدهار تجارة الإماء والجوّاري، عمل على إيجاد كثير من المشكلات بين البائع والمشتري. وصل الكثير منها إلى الاحتكام للقاضي. وقد ورد الكثير منها في كتب القضاة والتوازل. فقد ذكر الولشريسّي: إن بعض الرجال. كان يدعي على إحدى الجوّاري بأنها ملكه، وفي أحيان كثيرة. كان يثبت العكس. وأما ليست ملكه، أو أن يبيع أحد الصغار، جارية. ثم يثبت بعد ذلك أنها حرة. ففي تلك الحالة، إذا شهد شاهد واحد فقط بأنها حرة لا يحكم لها بالخريسة. ولكن يرد الثمن إلى المشتري، وترد الجارية إلى بانعها مرة أخرى<sup>(٢)</sup>. وكانت الجوّاري أحياناً، يخضعن لعمليات المقايضة. فقد كانت أحياناً تسبدل الجارية بالحبوب، كالشعر مثلاً. ولكن لو حدث تنافس بين الطرفين المتقاضين. كان من الصعب، رد مقابل الجارية، فكان يقدر ثمنه، ويرد دنائره<sup>(٣)</sup>.

وفي بعض الأحيان. كان يشتري الرجل جارية، على أنها سليمة خالية من العيب. ثم بعد ذلك يجد بها عيباً "كالكي". مثلاً. فكان يلجأ إلى القاضي. ويرد إليه جزء من الثمن. الذي اشترأها به، يوازي قيمة العيب الموجود بها. وكان أهل النقات يتولون الحكم بهذا في بعض الأحيان. وكان عادة يرد ربع الثمن<sup>(٤)</sup>.

١- صلاح خالص: إشيلية في القرن الخامس الهجري، ص ٩٨.

٢- الولشريسّي: (أحد بن يحيى الولشريسّي) للغيار العرب والمخاض العرب عن فتاوى علماء إريقية والأندلس والقرب. دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨١م. ج ٦، ص ١٦٩.

٣- الولشريسّي: نفس المصدر، ج ٦، ص ٦٧.

٤- الولشريسّي: نفس المصدر، ج ٦، ص ١٦١، ١٦٢.

### ثالثاً: حالة الجوّاري الإقتصادية: -

قد يندهش البعض من اختيار هذا العنوان بالذات، وهو حالة الجوّاري الإقتصادية، ولماذا الجوّاري بالذات؟ رغم أن موضوع البحث يتحدث عن المرأة الأندلسية المسلمة بصفة عامة.

لقد لعبت الجوّاري دوراً كبيراً في تشكيل الحياة الأندلسية الخاصة بالمرأة، فكان دورهن أوضح، وأميز كثيراً من دور الحرّات، للأسباب التي ذكرناها من قبل.

ومما لا شك فيه، أن كثرات من الجوّاري الأندلسيات كن يتمتعن ببراء فاحش. وكانت هنّ أملاكهن الخاصة البعيدة كل البعد عن أملاك أسيادهن، أو أزواجهن بالنسبة " للحرّات " وهي أملاك عريضة وواسعة، وكن يدرّنها لحسابهن الخاص.<sup>(١)</sup>

ومن هؤلاء الجوّاري، الجارية التي كان يمتلكها الخليفة عبد الرحمن الناصر، وعرفت باسم " الزهراء ". فعندما ماتت هذه الجارية، ورث منها الناصر أموالاً طائلة. فأمر بإنشاء مدينة كبيرة بهذه الأموال. وتسمى باسمها فأُنشئت مدينة الزهراء.<sup>(٢)</sup>

ومنهن أيضاً، عجب، والشفاء، وطروب، وفجر وغيرهن، فقد أنشأن مساجد ومبانيات تحصل أرباحهن.<sup>(٣)</sup> ويذكر الأستاذ الدكتور شوقي ضيف. بأن الإسلام أباح للعبد حق التمليك. بل يستطيع أن يكتسب ماله أو صاحبه على جزء من المال يدفعه من العمل، حتى إذا أفاه. ردت إليه حريته. واستطاع كثير من الأرقاء، بذلك أن يحرروا بأموالهم من أسيادهم.<sup>(٤)</sup> ويذكر: الأستاذ/ لقي بروفنسال. أن المرأة في قرطبة، وضعت حجر الأساس، للعديد من المنشآت العمرانية في المدينة، ومن الملاحظ، أن هؤلاء الجوّاري. كان معظمهن من بين الأميرات زوجات الأمراء، أو من بين أمهات الأولاد أو الحرّات. جميعهن شاركن جنباً إلى جنب.<sup>(٥)</sup>

١ - طاهر مكي - دراسات عن ابن حزم، ص ٢٦٩.

٢ - ثوري خج ضبط، ج ١، ص ٥٢٣، ٥٢٤.

وهذه القصة عن بناء مدينة الزهراء. لم يوجد إجماع من المؤرخين على صحتها. إلا أنها ترمز هذه الظاهرة، وهي ثراء الجوّاري الفاحش.

٣ - شعادي في تاريخ الأندلس، ص ١٥١، محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ج ١، ص ٤٣٦.

٤ - شوقي ضيف: العصر العباسي الثاني، ص ٨٠.

٥ - Lévi Provençal: l'Espagne Musulmane au eXe siècle, p 59.

وأكثر هؤلاء اخواري، ولعاً بالإنشاء. جاريات الأمير عبد الرحمن الأوسط<sup>(١)</sup> فقد أنشأت في قرطبة عدة مساجد سميت باسمائهن.<sup>(٢)</sup> ومنهن مؤمنة، التي أطلقت اسمها على جبانة في قرطبة، بعد أن جهزتها على نفقتها الخاصة<sup>(٣)</sup>

والشفاء جارية عبد الرحمن الأوسط، وينسب إليها مسجد وربض في المدينة الغربية من قرطبة. وقد أهداها عبد الرحمن الأوسط، العقد الشهير بعقد الشفاء، الذي كان في الأصل، عقد السيدة زبدة زوجة هارون الرشيد. ثم انهب في الفتنة التي قامت في بغداد بين ولشها الأمين وأخيه المأمون، ثم اشتراه أحد التجار وباعه للأمير عبد الرحمن في الأندلس، والواقع أن الأمير عبد الرحمن كان يكن للشفاء معزة خاصة، لأنها قامت برعاية وإرضاع الطفل "محمد" ولي العهد مع طفلها من الأمير. وكانت تحبو عليه، كأنها أمه، بعد أن ماتت أمه عقب ولادته مباشرة، وإن كانت المصادر لم تقدمنا باسم أم محمد المذكور.<sup>(٤)</sup>

وهناك أيضاً أم سلمة، التي أنشأت ربضاً ومسجداً عرف باسمها، وأنشأت كذلك مقبرة عند أحد الأبواب، في السور الشمالي لقرطبة، عرفت بمقبرة أم سلمة.<sup>(٥)</sup>

ونذكر كذلك "معنة"، التي أصبحت محظية للأمير عبد الرحمن الأوسط. وعندئذ أقامت مسجداً عرف باسمها، وعندما توفيت دفنت في مقبرة تقع إلى الشمال الغربي من مقبرة عامر القرشي. وعرفت باسمها ونسبت إليها.<sup>(٦)</sup> وكان الحكم "الربضي" يحب بناء المساجد، ويشجع جواريه على إنشاء المساجد على نفقتهم الخاصة. مثل مسجد عجب، الذي أمرت ببنائه جاريته "عجب" غربي قرطبة. وقد حمل ربحان من أرباض المدينة، في الجانب الغربي لقرطبة، أسماء

١- مصطلحي الشكعة: في الأدب الأندلسي، ص ١٠١.

٢- محمد عبد الله عنان: نفس المرجع، العصر الأول، القسم الأول، ص ٢٧٨.

٣- Lévi Provençal: Histoire l'Espagne, T.I, p. 267.

٤- من المعروف أن الأمير محمد لم يعقله والده عبد الرحمن الأوسط ولياً للعهد رسمياً، ولكن كان معروفاً أنه خليفة باعتباره أكبر أولاده. وهذا ما أدى إلى تدبير بعض المؤامرات ضده.

Levi Provençal: op. cit. T.I, p. 267.

٥- ابن حزم: جهرة أنساب العرب، ص ٩٩.

عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم، ص ٢٩٩.

Provençal: Hist., T.III, p. 369.

٦- سالم، نفس المرجع، والصفحة.

سالم: قرطبة حاضرة الخلافة، ج ٢، ص ٩٣.

Provençal: op. cit. T.III, p. 376



مساجد قامت بسببه حوري والقيان. أحدهما مسجد الشفاء. وقد زود هذا الجانب العربي بمساجد أخرى كمسجد صروب إحدى القنصيات المقربات للأمير عبد الرحمن الأوسط.<sup>(١)</sup>

ومن شأن المساجد أيضاً، الأميرة "البهاء" ابنة الأمير عبد الرحمن الأوسط. والتي يقول عنها المراكشي في "الذيل والكملة" كانت عورة زاهدة. عابدة. متبلة. شديدة الرغبة في الخير. وكانت تكتب المصاحف. وتحبسها إليها. ويسب إليها مسجد بربط الرصافة.<sup>(٢)</sup>

ومن أشهر هؤلاء الجواري. ممن حُزن الثراء بدرجة كبيرة. كانت السيدة "صبح". أم الخليفة هشام المؤيد، وزوجة الخليفة الحكم المستنصر بالله، ولسعة أملأها، احتاجت إلى من يديرها لها. ووقع اختيارها على الفتى لطموح محمد بن أبي عامر. وكان ما يزال في بداية حياته السياسية. قبل أن يبرغ نجمه. ويعنو صيته. وكان ذلك بفضل استخدامها له في إدارة أموالها وضياعها.<sup>(٣)</sup>

### رابعا: مكانة المرأة في المجتمع الإسلامي الأندلسي بصفة عامة:

وفي نهاية هذا الكتاب. ينبغي أن نثبت حقيقة هامة: توصلت إليها من خلال تلك الدراسة. عن دور وضع المرأة المسلمة في المجتمع الإسلامي الأندلسي. وهي أنه لم يكن بالدين الكبير، الذي تصوره لنا بعض كتب المؤرخين، والمستشرقين، وأيضاً لم يكن فيه حرية زائدة، خارجة عن التقاليد والعادات الإسلامية المعروفة. والتي وضعت خصيصاً للمحافظة على المرأة المسلمة، بل كان وضعها يضم بشئ من التوازن، اكتسبت به بعض الحرية من البيئة المحلية، التي لا محالة قد أثرت بعض الشيء في وضعها الاجتماعي. ولكن بدون خروج عن الحدود المرسومة للمرأة المسلمة في إطار الشريعة الإسلامية، وذلك للمحافظة عليها وتوجيهها مواطن الشبهات.

فقد كان من الصعب على القاتحين المسلمين الجدد. تغيير تلك التقاليد البيئية المحلية الموروثة في إسبانيا بين عشية وضحاها. ولعل توضيح مدى محافظة المجتمع الإسلامي الأندلسي على نسائه في تلك النقطة، التي نحتم لها الدراسة، توضح إلى أي مدى حاول المجتمع صيانة المرأة. في المجتمع الأندلسي، من حيث أنها مسلمة في المقام الأول، بغض النظر عن وضعها ومكانتها حرة أم جارية، من طبقة العامة أو من الطبقة الأرستقراطية. فاللهم في النهاية أنها امرأة مسلمة، وكذلك نود: أن نشير إلى حقيقة هامة أخرى، وهي أن المجتمع الأندلسي. لم يحبس نساؤه أو يحجر عليهم. فقد أشار الكثير

١- سائر نفس المرجع. ص ٢١٧. ٢٩٩.

سائر: قرطبة. ج ٢. ص ٩٣.

٢- ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والكملة، ج ٢، ص ٤٨٤.

٣- العيني: بقية المنس، ص ١٠٥: ابن سعيد: لقرب في حلى المغرب، ج ١، ص ١٩٩.

وراجع تلك العلاقة الاقتصادية، بين صبح وابن أبي عامر. وكذلك الأموال التي استولت عليها صبح. وحاولت استخدامها في صراعها مع ابن أبي عامر. في مرحلة الصراع بينهما. في دور المرأة السياسي. ص ١١٥.

من المؤرخين الأندلسيين، إلى أن خروج النساء مختنطات بالرجال. وخاصة في أيام الأعياد والاحتفالات. كان شيئاً مألوفاً، بل كن أيضاً يذهبن إلى ساحة المصلى، حيث يقمن الحيام للصلاة. ولكن كان يمنع الرجال من المرور بين صفوف النساء، وكذلك تمنع النساء من المرور بين صفوف الرجال، إلا من كان هزماً، أى عجوزاً في كليهما. كما كان يمنع اختلاط النساء بالرجال، في أثناء الصلاة. فلابد من وجود فاصل بينهما.<sup>(١)</sup>

ويذكر الأستاذ الدكتور/ أحمد مختار العبادي. بأن هذه النصوص وأمثالها. تدلنا على أن نساء الأندلس. كن أكثر تحراً من نساء العالم الإسلامي في ذلك الوقت. بحكم تأثير الجوار والبيئة الغلبة الأوروبية.<sup>(٢)</sup>

وكانت الأعياد الإسلامية في الأندلس، ومن أهمها أعياد القدر، والأضحى، والمولد النبوي الشريف، مثل سائر العالم الإسلامي. تقام فيها الاحتفالات الدينية، وغير الدينية التي يحضرها الرجال والنساء والأطفال، كذلك شارك المسلمون إخوانهم المسيحيين في الاحتفال بأعيادهم المسيحية.<sup>(٣)</sup>

ولكن كان المحتسب، يمنع النساء من دخول الكنائس، تحسباً من أى عرض مشبوه. ويرى ابن عيرون: إن الفسنيين فسقة وزناة، ويجب منع نساء المسلمين، من الاختلاط بهم.<sup>(٤)</sup>، ولا تحتاج للتأكيد على أن ابن عيرون. كان متحاملاً في حديثه هذا على رجال الدين المسيحي، وربما يكون ذلك، نتيجة رواسب دينية داخل بعض المسلمين تجاه المسيحيين. إذ لم تكن عملية الاختلاط. قد أخذت صورة صافية بينهما.

ويذكر، ابن عبد الرزوف: إن خروج المرأة كان مألوفاً للذهاب إلى الوادي للمره، وأحياناً يذهبن بمفردهن، ولكن يبدو أن هذا. كان ضد رغبة المحتسب، الذي كثيراً ما كان يمنعهن من الخروج بمفردهن خوفاً عليهن من المهرجين، والمهززين. الذين كان المحتسب يمنعهم بثورة من الجلوس في الطرقات والشوارع السالكة. حتى لا يعرض للنساء أثناء سيرهن،<sup>(٥)</sup> ومنع كذلك

١- ابن عبد الرزوف: ثلاث رسائل في الحسبة: الرسالة الثانية، ص ٧٤.

٢- أحمد مختار العبادي: الإسلام في أرض الأندلس. ص ١٠٧-١٠٨.

ومشاهدات لسان الدين بن الخطيب في المغرب والأندلس، جامعة الإسكندرية ١٩٥٨م، ص ٩٦، ٩٠.

٣- العبادي: الأعياد في مملكة غرناطة، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد ١٩٧٠، ص ١٤٠.

Lévi Provençal: Histoire, T. III, p. 437.

٤- ابن عبد الرزوف: ثلاث رسائل في الحسبة، الرسالة الثانية، ص ٤٨.

٥- ابن عبد الرزوف: نفس المصدر، ص ٥٧، السقطي: في أدب أخيه، ص ٩٧.

الرجال والشباب من الجنوس أمام الحمامات العامة، والمخصصة للنساء. ثا في ذلك من إطلاع عليهن، وعلى أسرارهن داخل الحمامات.<sup>(١)</sup>

وعندما تذهب المرأة إلى السوق، لا يختلطها في البيع والشراء إلا "ثقة" خير، ويكون معروف ومشهور بين الناس بخبره وأمانته. وكان المختص برأى الموضع الخالية في الأسواق حتى لا يختلي بما التناق من النساء والرجال.<sup>(٢)</sup>

وتلك الأمثلة تعطيانا إنطباعاً، عن مدى محافظة المجتمع الأندلسي على نسائه، وعدم وضعهن موضع الشبهات، وتعريضهن إلى ما قد يسيئ إليهن.

وأيضاً، كان من حق المرأة الأندلسية، إذا وقع عليها ظلم من أى إنسان قريب أو بعيد، أن تشكو إلى القاضي مظلمتها. بل أحياناً يمكن أن تشكو زوجها نفسه، إذا أساء عسراً أو ضرراً ضرراً مبرحاً أثر عليها، فينظر القاضي في مظلمتها بعين العدل، وربما يستمع منها في مكان منعزل، بعيد عن مجلسه الذي

يمكن أن يطلع فيه الناس على أسرارها، وهو ما يعرف في عصرنا الحالي "بالجلسات السرية". حتى تكون على حريتها في رواية ما وقع عليها من ظلم، ويمكن أن يكون للقاضي أعوان يساعدونه، ويختلطون بالنساء. فلا بد أن يكونوا غير مشبوهين، ومعروف عنهم الصلاح والنزاهة، وأيضاً لابد لخطو سن الشباب، حتى لا تكون هناك فرصة للرشوة، والفسق والمراودة،<sup>(٣)</sup> والسق شبه إلى حد ما هيئة المحلفين في المحاكم الغربية حالياً.

ووصلت عدالة القضاء في المجتمع الإسلامي الأندلسي. فيما يختص بالنساء إلى حد أن طبق حكم على الأمير "الحكم الربضي". وذلك عندما اغتصب جارية، أي أخذها عنوة، وبدون رضاها من صاحبها. لأنها واقته بعد أن أرسلها له عامله على مدينة جيان، فوقع من عينه موقعاً حسناً، وحاول صاحبها استردادها بلا جدوى، فلم يجد أمامه إلا الذهاب للقاضي، يشكو له الأمير "الربضي" لأخذه الجارية دون رضاه. فما كان من القاضي، إلا أن أمر برد الجارية إلى صاحبها. فأراد الحكم الربضي التحايل على قرار القاضي، وعرض شراء الجارية بأكثر من ثمنها. ولكن صاحبها تمسك بها. وقال القاضي للحكم كلمة رائعة: "أيها الأمير، إنه لا يتم عدل في العامة، دون إقامة في الخاصة". وعبره بين أن يخرج الجارية لصاحبها. أو يعتزل القضاء. فعرض الحكم الربضي أمراً آخر. وهو تغيير الجارية بينه وبين صاحبها. فأخرجت الجارية من قصر الحكم أمام

١- ابن عديم: ثلاث رسائل في الحسبة، "الرسالة الأولى"، ص ٤٩.

٢- ابن عبد الرزوف: نفس المصدر، "الرسالة الثانية"، ص ٨٣.

٣- ابن عديم، وابن عبد الرزوف: ثلاث رسائل في الحسبة، "الرسالة الأولى والثانية"، ص ١٢، ٨٣.

القاضي. رُحِّيت بين الأمير الحكيم الرهضي وصاحبها. فاختارت صاحبها فردت إليه<sup>(١)</sup> وبه لبنا هذا النص مثلاً رافعاً عن حرية اختيار المرأة الأندلسية: حتى وإن كانت جارية لمن ترعاه سيئاً. فقد تركت الأمير بكل ما لديه من سلطان وجاه. وذهبت إلى مالكها الأصلي حيث فضلت الحب على ما عداه.

وكان من حق المرأة الأندلسية، أن تذهب إلى الحج، وخاصة إذا تقدمت بها السن، وانقطع عنها الرحاء، وفي تلك الحالة، لا يلزمها الحرم. وبهذا السلفي: عن "مكية" بنت عمرو بن هاني السقي حجت، وفي طريق عودتها إلى الأندلس، نزلت

بغمر الإسكندرية، ويبدو أن المدينة أعجبتها. فلم تعد إلى الأندلس مرة أخرى. بل استوطنت مصر. وتولت بمدينة "قوص" في الصعيد الأعلى<sup>(٢)</sup>. كذلك نسمع عن مصاحبة المرأة الأندلسية في بعض الأحيان، لأبيها، أو زوجها، أثناء خروجه للقتال. ومثال ذلك ما يحدثنا به ابن حيان: عن مجاهد العامري أمير دالية Denia سنة (٤٥٦هـ - ١٠٦٥م)، الذي أبحر في أسطول كبير مكون من مائة وعشرين ألف مراكباً، عليها ألفا فارس، مصطحباً معه زوجته المسيحية "جود"، وابنه الأكبر "علياً" وبعض بناته، وهزم في هذه الموقعة، واستولى الأعداء على نسله، وبناته، وابنة علي وزوجته "جود" كانت نصرانية.

واستطاع مجاهد، أن يفقدى بناته بعد ذلك سريعاً، ولكن زوجته المسيحية "جود"، فضلت البقاء، ورفضت العودة. وبقيت في الأراضي المسيحية كي تثبت على دين أهلها.<sup>(٣)</sup>

ولم تكن المرأة الأندلسية دائماً النموذج الطيع المهادئ المستكين، فقد شذت نماذج كثيرة عن تلك القاعدة. نذكر منها "كلمات" زوجة القاضي محمد بن زياد اللخمي، التي يبدو أنها كانت شرسة، سليطة اللسان، مسيطرة عليه، حتى أن ألسنة أهل قرطبة، أخذته بالغاها. وعندما تولى الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط الإمارة. لم يوافق بتولية القضاء والصلاة. كما كان من قبل نظراً لسيرته غير الحمودة، وتسلط زوجته عليه، وقال: "يكلبه الصلاة فقط" فإني لم أفس. ما كانت الناس تقول في أمر امرأته "كلمات"، وسيطرها عليه وذلك نموذج سيئ للمرأة المسلمة الأندلسية<sup>(٤)</sup>.

١ - مجهول: أخبار مجموعة، ص ١١٣، ١١٤ ابن عذاري: البيان المغرب، ج ٢، ص ٨٧.

٢ - السلفي: أخبار وتراجم أندلسية، مستخرجة من معجم السفر، للسلفي، حققها الأستاذ الدكتور/ إحسان عباس. المكتبة الأندلسية، رقم (٧)، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٦٣، ص ١٢٦

٣ - العبادي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، ص ٣١١، ٣١٢، ٣١٤

٤ - الحشني: قضايا قرطبة، ص ٦٠، ٦١.

وتجلى عظمة المرأة الأندلسية، ومكانتها الرائعة في المجتمع الأندلسي. فيما ترويه عنها القصص والحكايات، إلى درجة استفزاز الحملات العسكرية، لإنقاذ الأسيرات من أيدي الأعداء، فيحدثنا صاحب "أخبار مجموعة" عن الأمير الحكم بن هشام "الريضي"، الذي غزا أرض الشريك، بسبب امرأة مسلمة أسيرة استغلت به، وذلك عندما أبلغه الشاعر/عباس بن ناصح، أنه سيع امرأة يوازي الحجارة. في أثناء زيارته له هناك، وهي تقول "وأخولاه يا حكم، قد ضيعت، واسلمت، واستغلت، عنا، حتى استأيد العدو علينا. فأمر الحكم من فوره، بالاستعداد للجهاد، حتى تمكن من فك أسر المرأة، وأجرل لها العطاء، وقال لها: بعد أن رجعت، هل أغاثك الحكم؟ فقالت: إنه ما غفل عنا إذ بلغه أمرنا، فأغاثه الله، وأعز نصره."<sup>(١)</sup>

وقصة أخرى: على شطף قصة السابقة، حدثت في عهد الحاجب المنصور بمن أي عامر. وملخصها أن المنصور، أرسل أحد رسله إلى غرسة Garcia صاحب البشكنس، فتأهيه غرسة في إكرام الضيف، لما للمنصور من مكانة بين ملوك النصرانية. وخرج الرسول يوماً متزهاً، وبينما هو يحول في أحد الكنائس، استولفته امرأة مسلمة. لما مدة في الأسر وكلمته، وشكت له ما وقع بها، وقالت له أيرضى المنصور، أن ينسى بتعمه بؤسها؟ وذكرت له: إن لها عدة سنين في لأسر، وتاضدته في إبلاغ قصتها إلى المنصور.

فلما عاد إلى المنصور. قدم له تقريراً عن تلك الزيارة، في نهاية قصة تلك المرأة الأسيرة، فعاتبه المنصور، وعنفه بشدة، لأنه لم يبدأ بما كلامه، وهب من فوره، ونادى للجهاد، حتى والى أرض ابن شاذي موضع المرأة الأسيرة. وكانت هناك معاهدة بينه وبين غرسة، بحيث لا يبقى أسير أو أسيرة مسلمة في أرض الشريك، فلما وصل المنصور إليه، وعلم شاذي بالسبب، الذي جاء من أجله المنصور، فاعتذر له بشدة، وأرسل المرأة الأسيرة في الحال، ومعها امرأتان أخريتان، وحلف للمنصور بألظظ الإيمان، أنه ما كان يعلم بأمرها، وبالعلة منه في إرضاء المنصور، أمر يهدم الكنيسة التي كانت بها المرأة. وبذلك عادت المرأة إلى أهلها، بفضل حبة وغيره المنصور على نساء وطنه.<sup>(٢)</sup>

ومن مظاهر اهتمام الأندلسيين بالمرأة، والعمل على راحتها، اهتمامهم بالعمارة الأندلسية، التي تلي رغبات وراحة المرأة الأندلسية. ففي تصميم الدور والمنازل، يذكر الأستاذ/ تورييس بلباس Torres Balbas. أن المنازل الأندلسية. كانت عبارة عن نوعين: الأول خال من الزخارف وسه

١- ميجول: أخبار مجموعة. ص ١١٧ ابن عذاري: البيان للغرب. ج ٢، ص ٧٣، المقري: نفع الطبيب. ج ١، ص ٣٤٣، ٣٤٤.

٢- ابن عذاري: نفس المصدر، ج ٢، ص ٢٩٨ المقري: نفس المصدر، ج ١، ص ٤٠٤.

وهذه القصة وأمثالها تذكرنا بقصة مشابهة حدثت في الشرق في عصر الخليفة المصمم بالله العباسي في الشرق الإسلامي. حينما استغلت به امرأة هاشمية. وقعت في أسر البيزنطيين وصاحت "واضعصاء" فلما بلغه ذلك، قام على الفور بتجديداً في غزوة عمورية المشهورة ٢٢٣هـ - ٨٣٨م. وكل تلك القصص. إن دلت على شيء. فهي تعبر أصدق تعبير عن علو مكانة المرأة، واحترامها في المجتمع الإسلامي حرفاً وغرباً.

نوافذ صغيرة، وهو الخاص بتطبيق العامة. والنوع الثاني: وهو للمنازل الخاصة بالطبقة العليا والراقية. وهي عادة تتكون من طابقين، يميز الطابق العلوي فيها شاشات Parasoles أو شراييب، أو مظلات بارزة إلى الخارج. تشاهد منها النساء ما يحدث في الخارج. " دون أن يشاهدن أحد من المارة ".<sup>١</sup>

وكان النساء يشاهدن الحياة الخارجية بكل حيوتها ومظاهرها، من تلك الفتحات مبرمة تامة. دون أن نأخذن عيون المارة.<sup>(١)</sup>

أما الأجزاء الداخلية لهذه المنازل الأندلسية، فهي عبارة عن أحواش، أو صحنون داخلية Patios مزينة بتافورات المياقة. والورود والأزهار والرياحين. مما يجعلها قاعة استقبال جميلة ومرمجة. تتوفر فيها التهوية، وبخاصة في فصل الصيف؛ حيث ترتفع درجة الحرارة بصورة كبيرة، فيكون الشطر مجتمع فيه بمجة للناظرين. وبخاصة لسيدة الدار.<sup>(٢)</sup>

أما عن حرية المرأة الأندلسية المسلمة في التصرف في أموالها، فقد جعلت لها كأي امرأة مسلمة ذمة مالية منفصلة، وذلك أمراً عادياً حتى قبل الزواج فيقول الونشريسي: " إن البنت التي توثق أموالاً من قبل الغير، لا يحق لوالدها التصرف في تلك الأموال، أو الأملاك، فهي ملك عائص لها ".<sup>(٣)</sup> تلك كانت لغات سريعة. ختمنا بها الفصل الأخير، عن مدى إهتمام المجتمع الأندلسي بالمرأة الأندلسية المسلمة، وبقتضاها في كافة جوانب الحياة.

وأرجو من الله سبحانه وتعالى. أن أكون قد وفقت في نقل الصورة بشئ من الدقة، وتحريمت الأمانة العلمية، في عرض كافة جوانب الموضوع.

والله ولي التوفيق...

١- Torres Balbas: Los Contornos de las Ciudades Hispana Musulmanas, Madrid, Al-Andalus, Vol. XV, 1950, p. 306.

٢- Ibid: p. 395, 396.

٣- الونشريسي: المعيار الغرب، جـ ٦، ص ٤٣٢.



المفتدين

## الخلاصة

والنتائج التي توصلت إليها من خلال الدراسة.

نعرض فيما يلي أهم النتائج العلمية التي توصلت إليها من خلال هذا الدراسة:

(١) ناقشت الآراء المتضاربة حول دخول الفاتحين من العرب والبربر الأندلس. وهل دخلوا المراداً من الجنود اغارين فقط، أم دخلوا على شكل جماعات؟ صحبوا فيها نساءهم. وبعد عرضنا لجميع الآراء حول هذا الموضوع. توصلت إلى أن الفاتحين، من العرب والبربر، دخلوا الأندلس أفراداً وجماعات في آن واحد، وبذلك هذا تواجد المرأة على مسرح الأحداث منذ بدايات الفتح الإسلامي. وأن هناك زيجات مختلطة حدثت بين الفاتحين الجدد، وبين الإسبانيات من أهل البلاد.

(٢) عرضت على بساط الدراسة، آراء المستشرقين حول حرية المرأة الأندلسية. فقد انقسم الباحثون حيال هذا. ما بين مؤيد ومعارض، فالزيد يشد بتأثير الغرب الإسباني على المرأة الأندلسية، والمعارض يركز على مظاهر التزمّت، ويرجعها إلى الإسلام، وإلى تصرفات المسلمين مع نساءهم. وقد أوضحت أن الأندلسيين. لم يعملوا على سجن نساءهم وعزلهم عن الحياة العامة، وإنما عملوا على المحافظة عليهن، وعدم ظهورهن بشكل غير لائق. قد يسي إليهن، وإلى الإسلام. والدليل على ذلك أن المرأة لم تعرض لأي نوع من الضغط أو العزلة. وقد حفلت الدراسة ببعض النماذج المشرفة، التي أدت دوراً حضارياً رئيساً.

(٣) أوضحت أن إسبانيا الإسلامية. عرفت ظاهرة التسري بالإماء والجواري، مثل باقي الاقطار الإسلامية، وإن كان وضع المرأة الجارية، اختلف اختلافاً كبيراً عن أي مجتمع آخر غير إسلامي. فقد حظيت هؤلاء الجواري بمكانة رفيعة. لم تعرفها المرأة الجارية في أي مجتمع آخر غير إسلامي سابق أو لاحق. وأثبت أيضاً، أن الحياة الاجتماعية والعاطفية بل والعلمية للجواري. كانت أكثر نشاطاً وترفقاً. عن حياة غيرها، وبخاصة الحرّات. وذلك لما تقتضيه به نسبياً من حرية أكثر من الحرّات.

(٤) قارنت بين آراء بعض المستشرقين، الذين اعتبروا البيت الأموي بيتاً مولداً من الدرجة الأولى. وبين شعور وتصرفات بني أمية اللذين اعتبروا أنفسهم عرباً نقحاحاً. رغم كون أمهاتهم إسبانيات. بل ذهب بعضهم إلى دفع أموال كثيرة. غرّد ادعاء النسب العربي. ومن نتائج ظهور طبقة المولدين أيضاً. ظهور ما عرف في التاريخ والأدب الأندلسي "بحركة الشعبية" وهي حركة ظهرت في المشرق الإسلامي من قبل، وانتقلت إلى الأندلس. وهدفتها مهاجمة الجنس العربي والسيادة العربية كعنصر حاكم. وليس مهاجمة الإسلام كدين.

(٥) أبرزت في الدراسة أيضاً، مدى حب أهل الأندلس للغناء والموسيقى وبخاصة في عصر الدولة الأموية. فقد شجع أمراء بني أمية الحركة العلمية والفنية في الأندلس، واستقدموا لذلك



الكثيرات من الخواري المشرقيات البارعات في هذا المجال وبلغ من حب الأندلسيين لفن الغناء والموسيقى، أن ابتكروا مستجاً، أو لوناً جديداً عرف " بالموشحات " وكانت الحرجة، وهي مركز الموشح، لابد أن تكون على لسان فنانة، ويعتبر هذا الفن ثورة في الشعر العربي كله، وحركة من حركات التجديد فيه.

(٦) أضرت من خلال دراساتي لموضوعي الزواج والطلاق في الأندلس، إلى أن المرأة الأندلسية. كان لديها حرية كبيرة في اختيار شريك حياتها؛ بل ومن حقها أيضاً، أن تخلي كثيراً من الشروط في وثيقة زواجها. ومن حقها أيضاً، إذا ما وقع عليها ظلم أو جور في هذا الزواج، أن تلجأ إلى القاضي، الذي كثيراً ما يرد لها إعتبارها، بأن يعاملها زوجها معاملة حسنة، وإما أن يطلقها القاضي منه.

(٧) أثبت أن المرأة الأندلسية. لعبت دوراً كبيراً في مجال الحياة السياسية في الأندلس. فدانس البلاط ومؤامراته كانت لا تنتهي، ولكنها غالباً ما تنتهي بالفشل. ومن أبرز هذه المؤامرات تلك المؤامرة التي دبرها "طروب" لزوجها الأمير عبد الرحمن الأوسط، وإن كنا لم نوصول إلى نهاية حاسمة حول مصير "طروب"، لصمت المصادر حيال هذا الأمر.

(٨) أبرزت دور السيدة " صبح البشكسية " في مجال الحياة السياسية، وكيف هادنت المنصور بن أبي عامر، حتى تضمن الحكم لولدها هشام المزد. ثم بعد ذلك تنقلب عليه بعد أن تشعر بأنه قد حجب ولدها، واستأثر بالحكم لنفسه. بل وتحاول قريب الأموال والإستعانة بمخلفيها المغربي " زيري بن عطية المغربي " لولا أن المؤامرة، كشفت. وقضى عليها المنصور.

(٩) بينت كيف أن ملوك النصرانية، أزعوا أمام هجمات المنصور بن أبي عامر، المتوالية عليهم، بل وأهدوه بناتهم كزوجات وسراي، ومنهن من أسلمت وحسن إسلامها وأنجبن له الكثير من الأولاد.

(١٠) أوضحت أيضاً، أن المرأة الأندلسية. أثبتت جدارتها في مجال الإبداع الأدبي والعلمي، فقد بلغت كثيرات منهن مكانة عالية وشهرة واسعة زاهن فيها الرجال. ولنن في ظل هذه الحضارة الرائية مكانة سامية. واستشهدت برأى الفقيه الأندلسي ابن حزم: في طوق الحمامة. عندما ذكر بأنه لم يجالس الرجال. إلا وهو في حد الشباب. وأنه تلقى كل علومه على أيدي النساء. وكيف هذه الشهادة. حسم القضية لصالح المرأة الأندلسية. وضربت أمثلة كثيرة لشاعرات الأندلس المشهورات. ولغيرهن ممن شاركن وبرعن في مجالات الحياة العلمية. كالكتاب، والتعليم، والنخطيط والنذهب وغير ذلك.

(١١) أبرزت من خلال تلك الدراسة، كيف أن المرأة الأندلسية، إذا فاضت بما مشاعر الحب والعشق. عبرت عن مشاعرها بحرية. بل أحياناً تأخذ زمام المبادرة في كلمات رقيقة غاية في العذوبة والجمال.

(١٢) شرحت دور المرأة الاقتصادي. وأوضحت كيف أن المرأة الأندلسية شجعت باستغلال اقتصادي بارز من خلال امتلاكها لكل سبل الثروة من عقار وأراضي وغير ذلك. بل وإدارة تلك الثروات بنفسها وممارسة أيضاً العديد من المهن والصناعات الهامة. كالغزل، والنسج، والبيع والشراء، والتوليد والحياطة وغيرها، وفندت رأى ابن عبدون: حول عدم مقدرة المرأة على ممارسة مهنة الطب في حين أن تلك المهنة تعبر من المهن التي خلقت أساساً للنساء لما تتطلبه من رحمة وعطف، وهي صفات تتوافر في المرأة أكثر من الرجل.

(١٣) تحدثت عن أسواق النخاسة، وأصناف الرقيق من النساء، وكيف أن الإسلام، نظراً لنفسي، وانتشار هذه الظاهرة. لم يعمل على إلغاؤها مرة واحدة. ولكن عمل على إلغاؤها بالتدريج وهذا ما حدث بالفعل. فمع مرور الأيام لم يعد هناك رق.

وضربت أمثلة لبعض الرقيق ممن وصلوا إلى مناصب القيادة من الرجال، أما النساء فقد تضخمت ثروات الكثيرات منهن، إلى حد إقامة المنشآت العمرانية الضخمة من أرواق الخاصة. مما يدل على دورهن الإيجابي الفعال في المجتمع الأندلسي.

(١٤) ثم عثمت تلك الدراسة بنتيجة هامة: وهي أن وضع المرأة الأندلسية لم يكن بالتدني الكبير الذي تصوره لنا كتابات بعض المستشرقين، وأيضاً لم يكن فيه حرمان زائدة خارجة عن التقاليد والعادات الإسلامية، وإذا كان المجتمع قد سمح للمرأة الأندلسية بشئ من حرية الاختلاط. فقد كان اختلاطاً منظماً. متقناً، يصونها ويحافظ عليها في المقام الأول، ولعل علو مكانة المرأة الأندلسية، يجعل بوضوح في تلك الأمثلة الشعبية الرائعة، التي تقوم على استغفار الحملات العسكرية الضخمة لإطلاق سراح امرأة أسيرة استصرخت الحاكم. فهب من قوره لتجدها، ووردها إلى أرضها وأهلها.

ولا يسعى في اختتام، إلا أن أقول: بأن المجتمع الأندلسي. قد عمل على إفراح أجنال للمرأة الأندلسية في كافة المجالات، استجابات، وأعطت، وأبدعت، وعرجت من هذا كله، في صورة مشرفة ومشرقة. أشاد بها مؤرخو عصرها، بل والعصور اللاحقة أيضاً.



المفتدين

## المصادر والمراجع

### أولاً: المصادر العربية

- (١) ابن الأثير (أبو عبد الله محمد بن عبد الله القسطنطيني) ٦٥٨هـ - ١٢٦٠م  
"الحلة السواء"، جزآن. حققه وعمل على حواشيه الأستاذ الدكتور/ حسين مزنس. الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٣م.
- (٢) ابن بسام (أبو الحسن علي بن بسام الشيريني) ٥٤٢هـ - ١١٤٧م  
"الذخيرة في بحار أهل الجزيرة" تحقيق الدكتور/ إحسان عباس، القسم الأول من المجلد الأول، الخاص بقرطبة ووسط الأندلس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- (٣) ابن بشكوال (أبو القاسم خلف بن عبد الملك) ٥٧٨هـ - ١١٨٢م  
"الصلة في تاريخ أئمة الأندلس" القسم الثاني، المكتبة الأندلسية، السدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦م.
- (٤) البلاذري (أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر البغدادي) ٢٧٩هـ - ٨٩٢م  
"كتاب فتوح البلدان" القسم الأول نشره الدكتور/ صلاح نجفد، القاهرة، ١٩٥٦م.
- (٥) ابن حزم (أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي) ٤٥٦هـ - ١٠٦٣م  
أ- طرق الخيامة في الألفه والألاف ضبط نعه وحسب هوامشه لأستاذ الدكتور/ الطاهر أحمد مكي، الطبعة الرابعة، دار المعارف، رمضان ١٤٠٥هـ - يونيو ١٩٨٥م.
- (٦) ابن حزم ب- "زهرة أساب العرب" تحقيق وتعليق الأستاذ/ عبد السلام محمد هارون ذخائر العرب (٢).  
الطبعة الرابعة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧١م.
- (٧) الحموي (أبو عبد الله محمد بن عبد المعصم الحموي) ت: أوامر القرن التاسع الهجري- (١٥٠م) "صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض الطنطاوي في خبر الأقطار" نشره الأستاذ/ ليفي بروفسال، القاهرة، ١٩٣٧م.
- (٨) ابن حيان (أبو مروان خلف بن حيان القرطبي) ت: ٤٦٩هـ - ١٠٧٦م  
"اللقبيس من أبناء أهل الأندلس" جس قطع، اعتمدت منها علي القطعة الخاصة بالسنوات الأخيرة من عهد الأمير عبد الرحمن بن الحكم "الأوسط" حققها وقدم لها وعمل على حواشيه الأستاذ الدكتور/ محمود علي مكسي. القاهرة ١٣٩٠هـ - ١٩٧١م.

- (٩) الحُسيدي (أبو عبد الله محمد بن أبي نصر فروح بن عبد الله الأزدي) ت ٤٨٨هـ - ١٠٩٥م " جُلُودُ الْمُقْتَسِمِينَ فِي ذِكْرِ وَلاَةِ الْأَنْدَلُس " ثرثا، رقم (١)، المكتبة الأندلسية، وقم (٣)، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦م.
- (١٠) ابن الخطيب (لسان الدين أبو عبد الله محمد بن الخطيب) ت ٧٧٦هـ - ١٣٧٤م. -  
أ- الإحاطة في أخبار غرناطة. حقق نصه ووضع حواشيه الأستاذ/ محمد عبد الله عنان. مكتبة الخانجي، القاهرة، المجلد الأول، الطبعة الثانية، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م المجلد الثاني، النسخة الأولى، ١٣١٤هـ - ١٩٧٤م.
- (١١) ابن الخطيب " أعمال الأعلام لـيحيى بن بوعبقة قبل الإحتلال من ملوك الإسلام وما بعد ذلك من شجون الكلام " تحقيق وتعليق الأستاذ/ ليفي بروكسسال. الطبعة الرابعة، بيروت، لبنان، ١٩٥٦م.
- (١٢) ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد بن خلدون) ت ٨٠٨هـ - ١٤٠٦م.  
" تاريخ ابن خلدون، المسمى بكتاب العرب وديوان المبتدا والخبر " سبعة أجزاء، استعنت بالجزئين الأول، والرابع الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.
- (١٣) الحُسيدي (أبو عبد الله محمد بن حازم بن أسد القرواني) ت ٣٧١هـ - ٩٨١م.  
" تاريخ لقضاء قرطبة " ثرثا، رقم (١)، المكتبة الأندلسية، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦م.
- (١٤) ابن خلكان (أبو المعالي شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي عامر) ت ٦٨١هـ - ١٢٨١م. " ولغات الأعيان ولقاء أبنائه الزمان " حققه الأستاذ الدكتور/ إحسان عباس المجلد الأول، دار صادر، لبنان، بيروت ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.
- (١٥) ابن سعيد (علي بن موسى بن سعيد المغربي) ت ٦٨٥هـ - ١٢٨٦م.  
" المغرب في حُسن المغرب " حققه وعلق عليه الأستاذ الدكتور/ شوقي صيف جزائري، دكتور المغرب (١٠)، القاهرة، ١٩٥٥م.
- (١٦) السقفي (أبو عبد الله محمد بن أبي محمد السقفي)  
" في أدب الحسية " نشر كولان، ولفي بروكسسال، باريس ١٩٣١م.
- (١٧) السقفي " أخبار وتراجم أندلسية، مستخرجة من معجم السفر للسقفي " أعدّها وحققها الأستاذ الدكتور/ إحسان عباس، المكتبة الأندلسية، رقم (٧)، الطبعة الأولى، دار الثقافة، لبنان، بيروت، ١٩٦٣م.

- (١٨) الأصهباني (أبو الفرج علي بن الحسين) ت ٣٥٦هـ - ٩٦٦م  
 "كتاب الأغاني" واحد وعشرون جزءاً. استعت بالجزء. الثاني عشر صححه الأستاذ الشيخ أحمد الشطيبي. مطبعة التقدم، شارع محمد علي، بعبود تاريخ.
- (١٩) الطبري (أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة) ت ٥٩٩هـ - ١٢٠٣م.  
 "مغية للمفصّل في تاريخ رجال الأندلس" ثلثاً رقم (٦)، المكتبة الأندلسية. دار الكتب العربي، ١٩٦٧م.
- (٢٠) الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير الطبري) ت ٣١٠هـ - ٩٢٣م.  
 "تاريخ الأمم والملوك" الطبعة الثالثة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. ١٤١١هـ - ١٩٩١م.
- (٢١) الطرطوشي (أبو بكر محمد بن الوليد) ت ٥٢٠هـ - ١١٢٦م.  
 أ- "الحوادث والبدع" تحقيق الأستاذ محمد الطائي، تونس، ١٩٥٩م.  
 ب- "سراج الملوك" (القاهرة، ١٣٥٤هـ)
- (٢٢) ابن عبد الحكم (عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم) ١٨٧-٢٥٧هـ / ٨٠٣-٨٧١م  
 "فروع الطريقة والأندلس" حفظه وقدم له الأستاذ عبد الله أنيس الطباع، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ١٩٦٤م
- (٢٣) ابن عبدون (وابن عبد الرؤوف، والجرجسي) "ثلاث رسائل أندلسية في أدب الحسبة والمختص" نشر الأستاذ ليفي بروفسال. مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للأثار الشرقية، القاهرة، ١٩٥٥م.
- (٢٤) ابن عذاري (أبو عبد الله محمد بن عذاري المراكشي) عاش حتى ٧١٢هـ - ١٣١٢م.  
 "بيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب" ٤ أجزاء، الجزء ١. ٢ تحقيق ومراجعة ج. م. كولان- وليفي بروفسال. مكتبة الأندلسية رقم (٤) دار الثقافة، بيروت، لبنان. الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.
- (٢٥) ابن عبد ربه (أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي) ت ٣٢٨هـ - ٩٤٠م.  
 "طبايع النساء" جزء منقول من كتاب "العقد الفريد" تحقيق وتعليق الأستاذ محمد إبراهيم سليم مكتبة القرآن للطباعة والنشر. ١٩٩٢م.
- (٢٦) عبد الواحد (محي الدين أبي محمد بن عبد الواحد بن علي المصمعي المراكشي) كتب في ٦٢٠هـ - ١٢٢٤م

- \* تاريخ الأندلس، المسمى المعجب في تلخيص أخبار المغرب \*
- الطبعة الجمالية، الطبعة الأولى، ١٣٣٢هـ - ١٩١٤م.
- (٢٧) عبد الواحد  
مراكشي (أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك المراكشي) ت ٧٠٣هـ -  
١٣٠٤م.
- \* الذيل والتكملة للكتاني الموصول والصلة، تقدم وتحقيق الأستاذ الدكتور/محمد  
بن شريف، جزآن، اعتمدت، على الجزء الثاني منه. مطبعة المعارف الجديدة،  
الرباط ١٩٨٤م.
- (٢٨) ابن القوطية (أبو بكر محمد القرطبي) ت ٣٦٧هـ - ٩٧٧م.
- \* تاريخ إبتاح الأندلس \* حققه وقدم له ووضع فهرسه الأستاذ/ إبراهيم  
الإياري، المكتبة الأندلسية، رقم (٢) الناشر دار الكتب الإسلامية والمصرية،  
ودار الكتاب اللبناني، القاهرة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ -  
١٩٨٢م.
- (٢٩) الحسن قسم  
المغربية (شمس الدين أبو عبد الله محمد الدمشقي) ت ٧٥١هـ - ١٣٥٠م.
- \* أخبار النساء \* شرح وتحقيق الأستاذ الدكتور/ نزار رضا، منشورات مكتبة  
الحياة، بيروت، لبنان ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
- (٣٠) ابن الكرد  
بوس (أبو مروان عبد الملك التوزري) عاش أواخر القرن السادس الهجري، (١٢٢م).
- \* تاريخ الأندلس لابن الكردبوس، وهو قطعة من كتاب الإكتفاء في أخبار  
الخلفاء \* تحقيق الأستاذ الدكتور/ أحمد محار العبادي، معهد الدراسات  
الإسلامية، مدريد، ١٩٧١م.
- (٣١) مجهول (أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمراتها \* حققه وقدم له، ووضع فهرسه  
الأستاذ/ إبراهيم الإياري، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
- (٣٢) لقري (أحمد بن محمد المقرئ التلمساني) ت ١٠٤١هـ - ١٦٣١م.
- \* تلح الطيب من غصن الأندلس الرطيب \* حققه ووضع فهرسه الأستاذ  
الدكتور/ إحسان عباس ٨ أجزاء، دار صادر، بيروت، لبنان. ١٣٨٨هـ -  
١٩٦٨م.
- (٣٣) الوشري (أحمد بن يحيى الوشريسي) ت ٩١٤هـ - ١٥٠٨م، بقاس.
- \* لعيار المغرب، والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب  
\* ثلاثة عشر جزء، سمعت بالجيز الثالث، والسادس، دار الغرب الإسلامي،  
بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

## ثانياً: المراجع العربية الحديثة والمعربة

- (٣٤) أرسلان (الأستاذ/ شكيب أرسلان)  
" تاريخ غزوات العرب " مصر، ١٣٥٢هـ - ١٩٣٣م.
- (٣٥) بروفسال (الأستاذ/ ليفي بروفسال)  
سلسلة محاضرات عامة في أدب الأندلس ولزائجها ١٩٤٧-١٩٤٨م.  
ترجمها إلى العربية الأستاذ/ محمد عبد الحادي شعرة، وراجعها الأستاذ/ عبد  
الحميد العبادي. الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٥١م.
- (٣٦) بروفسال " تاريخ إسبانيا الإسلامية " الطبعة الثانية، بيروت، لبنان، دار المكشوف،  
١٩٥٦م.
- (٣٧) بالثيا (الأستاذ/ أنخل جثالث بالثيا)  
" تاريخ الفكر الأندلسي " ترجمة الأستاذ الدكتور/ حسين مؤنس. الطبعة  
الأولى، مكتبة النهضة المصرية، مايو، ١٩٥٥م.
- (٣٨) بيوس (الأستاذ/ هنري بيوس)  
" الشعر الأندلسي في عصر الطوائف " ملاحظه العامة، وموضوعاته  
الرئيسية، ولبثته الوثائقية. ترجمة الأستاذ الدكتور/ الطاهر أحمد مكي. الطبعة  
الأولى، دار المعارف، ذو القعدة ١٤٠٨هـ - يونيو ١٩٨٨م.
- (٣٩) حسين (الدكتور/ حمدي عبد النعم حسين)  
" مجتمع قرطبة في عصر الدولة الأموية في الأندلس " رسالة دكتوراة نوقشت  
بآداب الإسكندرية. سنة ١٩٨٤م.
- (٤٠) حجاجي (الأستاذ/ حمدان حجاجي)  
" حياة وأثار ابن زمرق شاعر الحمراء " المؤسسة الوطنية، الجزائر، بسون  
لاريخ.
- (٤١) خالص (الدكتور/ صلاح خالص)  
" إحصائية في القرن الخامس الهجري " دراسة أدبية تاريخية لنشوء دولة بسق  
عباد، ٤١٤ - ٤٦١هـ. دار الثقافة، بيروت، لبنان، ١٩٨١م.
- (٤٢) ابن زيدون (ديوان شعر ابن زيدون) شرح وتحقيق الأستاذ: كرم الشباني، دار صادر  
للطباعة والنشر، بيروت ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.



- (٤٣) الركاى (الأساذ/ جودت الركاى)  
 " في الأدب الأندلسي " مكتبة الدراسات الأدبية، رقم (٢٢). الطبعة الرابعة، دار المعارف، مصر، ١٩٧٥م.
- (٤٤) زيب (الدكتوراة/ زيب وطوان)  
 " الإسلام وقضايا المرأة " لودجهة، التنوير، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣م.
- (٤٥) سالم (الدكتور/ السيد عبد العزيز سالم)  
 " تاريخ المسلمين وأثارهم في الأندلس من الفتح العربي... حتى سقوط الخلافة بقرطبة " مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٦١م، الإسكندرية.
- (٤٦) سالم " قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس "  
 دراسة تاريخية عمرانية أثرية في العصر الإسلامي. جزآن، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية، ١٩٨٤م.
- (٤٧) سالم " دراسات في تاريخ العرب " تاريخ الدولة العربية الناش، مؤسسة شباب الجامعة، للطباعة والنشر، الإسكندرية، ١٩٨٤م.
- (٤٨) سالم " دائرة معارف الشعب " كتاب الشعب. العدد (٦١) عن فن الغناء والموسيقى.  
 العدد (٦٤) عن الحياة العلمية والأدبية في الأندلس، ١٩٥٩م.
- (٤٩) سحر (الدكتوراة/ سحر السيد عبد العزيز سالم)  
 " مظاهر الخطابة في بطلوس " رسالة دكتوراة، نوقشت بأداب الإسكندرية، سنة ١٩٨٧م.
- (٥٠) سحر " بحث عن الزواج المختلط في الأندلس " تحت الطبع.
- (٥١) الشكعة (الدكتور/ مصطفى الشكعة)  
 " الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه " دار العلم للملايين. بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٧٥م.
- (٥٢) الشامي (الدكتور/ أحمد الشامي)  
 " التطور التاريخي لعلوم الزواج في الإسلام " " دراسة مقارنة " كلية الآداب، جامعة الرقازيق، ١٩٨٢م.

- (٥٣) صيف (الدكتور/ شوقي صيف)  
 "العصر العباسي الثاني، تاريخ الأدب العربي" دار المعارف، مصر، الطبعة الثالثة، القاهرة، مايو ١٩٧٣م.
- (٥٤) العبادي (الدكتور/ أحمد مختار العبادي)  
 "في تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، بدون تاريخ.
- (٥٥) العبادي دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، بدون تاريخ.
- (٥٦) العبادي من التراث العربي الإسباني. مخازج لأهم المصادر العربية، والحواليات الإسبانية التي تأثرت بها.
- "مجلة عالم الفكر"، المجلد الثامن، العدد الأول ابريل - مايو - يونيو، ١٩٧٧م.
- (٥٧) العبادي "عالم الفكر" المجلد الحادي عشر، العدد الأول  
 "مقال عن الحياة الاقتصادية في المدينة الإسلامية ١٩٧٩م.
- (٥٨) العبادي "الأعياد في مملكة غرناطة" صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد، ١٩٧٠م.
- (٥٩) العبادي "مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في المغرب والأندلس" مطبعة جامعة الإسكندرية، ١٩٥٨م.
- (٦٠) العبادي "الإسلام في أرض الأندلس أثر البيئة الأوروبية"  
 مقال بمجلة عالم الفكر، العدد الثاني، المجلد العاشر الكويت، وزارة الإعلام، ١٩٨٤م.
- (٦١) العبادي (الأستاذ / عبد الحميد العبادي)  
 "المجلد في تاريخ الأندلس" المكتبة التاريخية، جمع مادته ونسقها الأستاذ / أحمد إبراهيم الشريف وراجعته الدكتور أحمد مختار العبادي إشراف الدكتور أحمد عزت عبد الكريم، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الأولى، ١٩٥٨م.
- (٦٢) عبد الله (الأستاذ/ عبد العزيز بن عبد الله)  
 "المرأة المراكشية في الحقل الفكري" صحيفة معهد الدراسات الإسلامية.

مؤيد. ١٣٧٨هـ - ١٩٥٨م. العدد (١٠٠٢).

- (٦٣) عنان (الأستاذ / محمد عبد الله عنان)  
 " دولة الإسلام في الأندلس من الفتح إلى بداية عهد الناصر والحلافة الأموية  
 والمملكة العمارية " مكتبة الخليلي، القاهرة. ١٩٥٥م.
- (٦٤) العقاد (الأستاذ / عباس محمود العقاد)  
 " المرأة في القرآن " دار الهلال، القاهرة. ١٩٦٧م.
- (٦٥) عبد العظيم (الأستاذ / علي عبد العظيم)  
 " ابن زيدون، عصره وحياته وشعره وأدبه " رسالة ماجستير نوقشت بكلية دار العلوم في يوليو ١٩٥٤ م،  
 مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٥٥م.
- (٦٦) فروت (الأستاذ / إميليو غروسي فروت)  
 " الشعر الأندلسي بحث في تطوره وعصائصه " ترجمة الأستاذ الدكتور / حسين  
 مؤنس، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٢م.
- (٦٧) غنيم (الدكتورة / إسمت غنيم)  
 " المرأة في الغرب الأوربي في العصور الوسطى، دار المعارف، الإسكندرية،  
 ١٩٨٣م.
- (٦٨) فاطمة (الدكتورة / فاطمة المريني)  
 " مقال تحت عنوان الأيديولوجية والإسلام " جامعة الرباط، " مجلة فكر وفن " العدد  
 (٤٧) مويخ، ألمانيا. ١٩٨٨م. الناشر Frauen Buchverlag
- (٦٩) القادري (الدكتور / إبراهيم القادري)  
 " مجلة دراسات أندلسية " مقال عن طاهرة لروح في الأندلس إبان الحقبة  
 المرابطية من خلال نصوص ووثائق جديدة، تونس، العدد التاسع، رجب  
 ١٤١٣هـ - يناير ١٩٩٣م
- (٧٠) كحيلة (الدكتور / عبادة كحيلة)  
 " تاريخ النصارى في الأندلس " الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.
- (٧١) كحالة (عمر رضا كحالة)

" المرأة في عالمي العرب والإسلام " سلسلة بحوث اجتماعية، الجزائر السادس  
والسابع، الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة، القاهرة ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م.

( الدكتور / محمد حنين )

( ٧٢ ) محمد ح

" مقال بمجلة العربي عن فن القلاء " "نكاح"

مجلة العربي، العدد (٣٢٨) السنة التاسعة والعشرون، مارس ١٩٨٦ م، جنادي  
الأخرى، ١٤٠٦ هـ

( الدكتور / حسين مؤنس )

( ٧٣ ) مؤنس

" فجر الأندلس " دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة  
الأموية، ٧١١ م - ٧٥٦ م. شركة العربية للطباعة والنشر، الطبعة الأولى،  
القاهرة ١٩٥٩ م.

إسلاميات " مقال عن الحياة تحت هارون الرشيد " بمجلة أكتوبر،  
العدد (٦٦٠) الأحد ١٨ يونيو ١٩٨٩.

( ٧٤ ) مؤنس

( الدكتور / محمود علي مكي )

( ٧٥ ) مكي

" تحقيق ديوان ابن دراج القسطل، " منشورات المكتب الإسلامي " دمشق  
١٣٨١ هـ - ١٩٦١ م.

( الدكتور / الطاهر أحمد مكي )

( ٧٦ ) مكي

" دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة " الطبعة الأولى، دار المعارف  
١٩٨٠ م.

" دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة " الطبعة الثالثة، دار المعارف،  
ذو الحجة ١٤٠١ هـ - أكتوبر ١٩٨١ م.

( ٧٧ ) مكي

( الدكتور / كمال أبو مصطفي )

( ٧٨ ) أبو مصطفي

" عاقلة الإسلامية في عصر دولت الطوائف " في القرن الخامس الهجري،  
الحدادي عشر ليلادي. دراسة في مظاهر العمران، والجهاد الاجتماعية، مؤسسة  
شباب الجامعة، ١٩٩٣ م. لإسكندرية

( الدكتور / عبد العزيز الأهواني )

( ٧٩ ) الأهواني

" الأغنية الشعبية أصل الترشيح " مجلة، العدد الثاني، فبراير ١٩٥٧ م.

### Third: References in Foreign Languages.

- (80) Albórniz ( Claudio Sánchez Albórniz )  
" La España Musulmana", Tomo I. Buenos Aires. 1946.
- (81) Aubrun ( Charles Aubrun )  
" La Femme au mayen âge Espagne. "  
Paris, 1960.
- (82) Balbás (Torres Balbás)  
" Los Contornos de las Ciudades Hispano Musulmanas."  
Al -Andalus, Vol XV, Madrid, 1930.
- (83) Cantero ( Valentín Benítez Cantero )  
" Vocabularia Español - Árabe - Marroquí". 1949.
- (84) Corriente ( Federico Corriente )  
" Diccionario Español - Árabe"  
Instituto Hispano Árabe de Cultura,  
Madrid, 1977.
- (85) Cagigas ( Isidro de las Cagigas )  
" Los Mozarabes" Tomo I. Madrid, 1947.
- (86) Dozy (Reinhart Dozy)  
" Histoire des Musulmans d'Espagne  
3 Vols, éd - Lévi Provençal, Ielden,  
1932.
- (87) Dozy "Historia de los Musulmanes de España", Tomo I, Ielden,  
1861.
- (88) Dozy "Dictionnaire Détaillé des Noms des Vêtements chez les  
Arabes"  
Amsterdam. 1845.
- (89) Dozy Diccionario de Historia de España Tomo2. Madrid, 1952.
- (90) Dozy Spanish Islam, History of the Moslems in Spain, Lonon.  
1912.
- (91) El Hajji ( Abdurrahman El Hajji)  
Inter marriage between Andalusia and northern Spain in the

- Umayyad Period. Oxford, 1938.  
"Revthe Islamic Quarterly"  
Vol XI, No 1-2.
- (92) Eduardo (Saavedra Eduardo)  
"Estudia Sobre la invasion de los Arabes en España"  
Madrid. 1892.
- (93) Gomez ( Garcia Gomez )  
una Cronica anonima de Abd El-Rahman, III.  
" Al Nasir " Madrid, 1958.
- (94) Gauchard ( Pierre Gauchard )  
Structures Sociales "Orientales"  
et Occidentales dans L'Espagne  
Musulmane, Paris, 1977.
- (95) Hurtado ( Juan Hurtado Y Angel Gonzales Palencia ).  
" Historia de la Literatura Espanol"  
Madrid, 1944.
- (96) Miranda ( Ambrosio Huici Miranda )  
" Historia Musulmana de Valencia Y Su Region "  
Valencia, 1969.
- (97) Makki ( Mahmoud Makki )  
" Essayo Sobre las Portaciones  
Orientales en la España Musulmana "  
Madrid, 1967.
- (98) Nykl ( B.A.R Nykl )  
" Hispāna Arabic Poetry and Its Relations with the old  
Provençal Troubadours " Baltimore, 1946.
- (99) Palencia ( Angel Gonzales Plancia )  
Historia de la literatura arabigo  
Española 2<sup>ed</sup>, Barcelona, 1945.
- (100) Painter " History of the middle āges "  
Great Britain, 1979.
- (101) Pedro ( Aguado Bleye )  
"Manuel de la Historia de España",  
Tomo I, Madrid. 1947.
- (102) Pérès (Henric Pérès )

- ~ La Poésie Andalousse en Arabe Classique au XIe Siècle  
Paris, 1953.
- (103) Provençal ( E. Lévi Provençal )  
" La Civilización Árabe en España"  
Segunda edición, Buenos Aires, 1953.
- (104) Provençal " Histoire de L'Espagne Musulmane" Leiden, Paris, 3 Vols.  
1950 - 1954.
- (105) Provençal " L'Espagne Musulman au Xème Siècle" Institutions et vie  
Sociale Paris, 1932.
- (106) Ríbera ( Julián Y Tarragó )  
" Disertaciones Y Opúsculos"  
Tomol, Madrid, 1928.
- (107) Provençal " El Concionero de Abn Cuzman en Disertaciones Y  
Opúsculos"  
Madrid, 1928.
- (108) Simonet ( Francisco Javier Simonet )  
" Historia de los Mozarabes de España  
Madrid, 1897 - 1903.
- (109) Schack ( Adolfo Federico de Schack )  
" Poesia Y Arte de los Arabes en España Y Sicilia,  
Traducción de:  
Juan Valera, Mexico, 1944.
- (110) Turki ( Abd El Magid Turki )  
" Stvdia Islamica "  
Femmes Privilegiées dans le Systeme  
D'Ibn Hazm, Paris, 1977.



## محتويات الكتاب

## صفحة

٥	شكر وتقدير.....
٧	مقدمة.....
١١	تلهيد.....
٢١	دراسة نقدية وتحليلية لأهم المصادر والمراجع للكتاب.....
٢٩	دراسة تمهيدية وعرض سريع لتاريخ لأندلس.....

## الفصل الأول :

٣٥	دور المرأة في المجال الاجتماعي في الأندلس.....
	أولاً: الفاتحون للمسلمون، والزواج المختلط من الفتح الإسلامي للأندلس
٣٥	حتى سقوط الدولة الأموية في الأندلس.....
٤٩	ثانياً : السري بالإمام والجواري عن طريق السبي.....
٥٩	ثالثاً : طبقة المولدين نتاج الزواج المختلط والسري بالإمام.....
	رابعاً : أثر السراي والجواري في مجال الحياة الاجتماعية
٦٦	في الأندلس " فن الغناء والموسيقى".....
	خامساً : العادات في الزي، واستخدام أدوات الزينة
٧٩	والترين بالخلي والتطيب بالعطور.....
٩١	سادساً : الزواج والطلاق.....

## الفصل الثاني

١٠٥	دور المرأة في المجال السياسي في الأندلس.....
١٠٥	أولاً : تأثير أمهات الأرواد على الولاة والأمراء والخلفاء في عصر الدولة الأموية.....
	ثانياً : " قُر " أو " ونقة "، بنت فرتون البشكنية
١١٦	جدة الخليفة عبد الرحمن الناصر.....
١١٧	ثالثاً : السيدة: صح Aurora البشكنية، ودورها في المجال السياسي.....
١٢٣	رابعاً : أمهات ولد المنصور بن أبي عامر.....

## الفصل الثالث



١٢٧..... دور المرأة في المجال العلمي في الأندلس

أولاً : دور المرأة في الأدب الأندلسي مع ذكر أمثلة

١٢٧..... لشاعرات الأندلس المشهورات

١٥٧..... ثانياً : الكتابات والمخطوطات والنقوش

١٦٢..... ثالثاً : شعر الحب عند المرأة، ما قيل فيها، وما قالته

### الفصل الرابع

١٦٩..... دور المرأة في المجال الاقتصادي في الأندلس

١٦٩..... أولاً : المهن والصناعات التي مارسها المرأة الأندلسية

١٨٣..... ثانياً : أسواق الجوارى وأنواعهن

١٩٠..... ثالثاً : حالة الجوارى الاقتصادية

١٩٢..... رابعاً : مكانة المرأة في المجتمع الإسلامي الأندلسي بصفة عامة

١٩٩..... \* الخاتمة \*

٢٠٣..... قائمة المصادر والمراجع

٢٠٠٤/٤٥١٧	رقم الإيداع
977-17-1310-8	التسجيل الدولي I.S.B.N.

### مطبعة صحوة

٧ شارع اسماعيل رمضان - فيصل

ت / ف ٣٨٧١٦٩٢ - ٠١٠١٠٠٩٦٧٨

مكتبة محمد السادس العالمية للأدب